



أندريه ماكين

الوصيّة الفرنسيّة

ترجمة: عبد السلام المودني

منشورات الجمل

رواية

أندريه ماكين

الوصيّة الفرنسيّة

رواية

ترجمة: عبد السلام المودني

مراجعة: صالح الأشمر



منشورات الجمل

وِلِد **أندريه ماكين** في روسيا سنة ١٩٥٧. له ستّ روايات من ضمنها «**الوصية الفرنسية**»، التي حاز بها جائزة الغونكور سنة ١٩٩٥، وجائزة ميديسي آيكو سابقاً.

أندريه ماكين: **الوصيّة الفرنسيّة**، رواية
الطبعة الأولى، جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة **لمنشورات الجمل**، بغداد ـ بيروت، ٢٠١٢
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣، بيروت ـ لبنان
تلفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ٠١ (٠٠٩٦١)

Andreï Makine: Le testament Français, roman

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

لماريان فيرون وإيربر لوتمان

للورا وتيري بمونتالومبير

لجون كريستوف

«(. . .) ولمّا لم أكن أستطيع أن أذكر أسماء
كل أولئك الذين قاموا بأعمال وأَمكن لفرنسا أن تبقى
بفضلهم، أضع هاهنا أسماءهم
الحقيقية، بسعادة طفولية وتأثّر عميق (. . .)»

مارسيل بروست
«البحث عن الزمن الضائع»

«هل سيطلب السيبيريُّ من السماء أشجار
زيتون أم كليكوة بروفانس؟»

جوزيف دو ميستر
«أمسيات ستراسبورغ»

«سألت الكاتب الروسي عن طريقة عمله،
وفوجئت بأنه لا يُترجِم مؤلّفاته،
إذ كان يتكلم لغة فرنسية سليمة
جداً، مع شيء من التباطؤ بنفسه،
إذ كان يتحدث اللغة الفرنسية بطريقة
سلسة للغاية، بسبب حدة ذهنه.
اعترف لي بأن الأكاديمية وقاموسها يصيبانه بالجمود.»

ألفونس دودي
«ثلاثون سنة في باريس»

الفصل الأول

[١]

كنت أخمّن، وأنا بعد صغير السنّ، أن تلك الابتسامة الفريدة جداً تمثل نصراً صغيراً وغريباً بالنسبة لكل امرأة. نعم، إنها انتقام مؤقّت من كل الخيبات، ومن فظاظة الرجال، ومن ندرة الأشياء الجميلة والحقيقية في هذا العالم. لو كنت أعلم كيف أقولها آنذاك لسمَّيت هذه الطريقة في الابتسام «أنوثة»... غير أن لغتي كانت واقعية جداً. فقد كنت أكتفي بأن أتملّى في وجوه النساء في ألبومات صورنا لأجد انعكاس الجمال هذا عند بعضهنّ.

لأن هؤلاء النساء كنّ يدركن، أنه لكي يكنّ جميلات كان عليهن قبل أن يعميهنّ ومّاض المصوِّرة بثوانٍ، أن ينطقن بهذه المقاطع اللفظية الفرنسية الغريبة التي لا تعرف معانيها إلاّ قلّة منهنّ: «تفّاحة صغ...ي...رة». وعوض أن تتمدد الشفاه بسعادة بالغة، أو أن تتقلص بوجوم قلق، كانت تشكل بسهولة كبيرة ذلك القرص اللطيف. فكان الوجه بأكمله يبدو جميلاً إذ يتقوّص الحاجبان قليلاً، وتتمدد تفّاحتا الخدين. وعندما كنّ يقلن «تفاحة صغيرة» كانت هناك

رقّة بعيدة وحالمة تحجب النظرة وتصفّي الملامح، سامحة للأيام الخوالي بأن تحلّق على الوميض.

ومثل هذا السحر الفوتوغرافي أخضع ثقة النساء مهما اختلفت مشاربهن. تماماً مثل تلك القريبة من موسكو الموجودة في الصورة الملوّنة الوحيدة في ألبوم صورنا، والتي تزوّجت من أحد الدبلوماسيين، والتي تمتنع عادة عن الكلام، وتتأفف مللاً حتى قبل أن تتمكن من سماعك. لكن، في هذه الصورة، ميّزت على الفور تأثير «التفاحة الصغيرة».

لقد تبيَّنتُ هالتها على وجه تلك الريفية ذات الثلاثين سنة، وهي قريبة مجهولة، ما كان يَذكر اسمها إلا عند الحديث عن النساء اللواتي بقين من دون أزواج بعد المجزرة التي تعرّض لها الذكور في الحرب العالمية الأخيرة. وحتى غلاشا الريفية المنتمية إلى العائلة كانت تبرز ابتسامتها الخرافية في الصور القليلة التي بقيت لها. أخيراً كانت هناك كل تلك المجموعة من القريبات الشابات اللواتي يضخمن شفاههن محاولات الحفاظ على هذا السحر الفرنسي الفار أثناء اتخاذهنّ وضعيّتهنّ أمام المصوِّرة. عندما يهمسن «التفاحة الصغيرة» كنّ ما يزلنَ يعتقدنَ بأن الحياة القادمة تنسج فقط من أجل لحظات النعمة تلك. . .

ونادراً ما كانت تخترق كل ذلك الدفق من النظرات والوجوه نظرة ووجه امرأة بملامح متناسقة رقيقة وعينين رماديّين كبيرتين. بدت شابّة في ألبومات الصور الأكثر قدماً ببسمتها المُشْرَبَة بالسحر الخفي لـ«التفاحة الصغيرة». ثم أخذ هذا التعبير يتلاشى خلف حجاب من الكآبة والبساطة مع تقدّمها في السن، وفي ألبومات الصور الأكثر حداثة والأقرب إلى زمننا هذا.

كانت تلك المرأة، الفرنسية التي تاهت في شساعة روسيا الثلجية، هي من علمت الآخرين الكلمة التي تجعلهن جميلات. هذه المرأة كانت جدتي من جهة أمي... كانت قد وِلدت في فرنسا في بداية القرن، من نوربير وألبرتين لوموني. ومن المحتمل جداً أن يكون سرّ «التفاحة الصغيرة» أول أسطورة فتنت طفولتنا. وهي أيضاً الكلمات الأولى من هذه اللغة التي تسميها أمي مازحة «لغتك الجدة من جهة أمك».

في يوم من الأيام وقعت على صورة ما كان ينبغي أن أراها... كنت أقضي عطلتي عند جدتي، في تلك المدينة المحاذية للسهب الروسي والتي سقطت بعد الحرب. حدث ذلك مع دنوّ غسق صيف حار وطويل أغرق الغرف بضوء خبّازي اللون. وكان ذلك النور الذي لم يكن حقيقياً تماماً يقع على الصور التي كنت أنظر إليها أمام نافذة مشرعة. وكانت تلك الكليشيهات الأكثر قدماً في ألبوم صورنا، إذ إن صوره تجاوزت الماضي السحيق لثورة سنة ١٩١٧، وبعثت من جديد زمن القياصرة، محدثة ثقباً في جدار الحديد الصلب جداً لتلك الفترة، تحملني تارة إلى فناء كاتدرائية قوطية، وطوراً آخر إلى ممرّات حديقة تصيبني نباتاتها بالذهول نتيجة لهندستها المتقنة. كنت أغوص في تاريخ عائلتنا السحيق...

وفجأة، ظهرت تلك الصورة!

رأيتها عندما دفعني فضولي إلى فتح ظرف كبير كان مخبأً بين الصفحة الأخيرة والغلاف. كان يحوي الحصة الحتمية من الصور التي تم الاعتقاد أنها لاتستحق أن تظهر على الورق الخشن، والتي تضم مناظر لم يعد باستطاعة أحد تحديد معالمها، ووجوه من دون

ملامح تجعل المرء يتعلق بها أو ذكريات. حصة قيل في كل مرة أنه يتعين يوماً فرزها لتقرير مصير كل تلك الأرواح المعذبة...

رأيتها بين تلك الوجوه المجهولة والمناظر المنسيّة. كانت شابة في ثياب غريبة مقارنة بأناقة الشخصيات التي تعود للظهور في صور أخرى، ذلك أنها كانت تضع سترة كبيرة بلونها الرمادي المتسخ، ومبطنة بالقطن المندوف، وبشابكا رجالية مقلّمة من جهتي الأذنين. كانت تقف وهي تضم إلى صدرها وليداً مغطى بملاءة صوفية.

تساءلت ذاهلاً: «كيف أمكنها أن تتسلل بين هؤلاء الرجال بملابس رسمية وأولئك النساء بثياب السهرة؟». وفي صور أخرى كانت تبدو خلفها وحولها تلك الطرقات العظيمة والأعمدة المصفوفة والمناظر المتوسطية. كان حضورها ينطوي على مغالطة تاريخية، وغير لائق ولايمكن تفسيره. كانت تبدو في ذلك الماضي العائلي كمتطفلة بأزيائها المضحكة التي ترتديها في أيامنا هذه إلاّ النساء اللواتي يقمن في فصل الشتاء بكنس الطرقات المملوءة ثلجاً...

لم أشعر بدخول جدتي الغرفة إلاّ عندما وضعت يدها على كتفي، فقفزت من مكاني ثم سألتها مشيراً إلى الصورة:

ـ من تكون هذه المرأة؟

اخترق وميض فزع عينَيْ جدتي الهادئتين على الدوام.

وبصوت غير مبالٍ تقريباً ردّت بسؤال:

ـ أية امرأة؟

وصمتنا كلانا وأنصتنا. إذ أخذ حفيف غريب يملأ الغرفة.

استدارت جدتي وصرخت بصوت بدا لي يقطر سعادة:

ـ رأس ميت! أنظر، رأس ميت!

رأيت فراشة كبيرة داكنة اللون، كائناً خُرافياً وغسقياً يرتعش أمامي، ويجاهد كيما يلج عمق المرآة الوهمي. هرعت إليه مادّاً يدي وشاعراً بدغدغة جناحيه المخمليين في باطن كفّي... وهناك فقط أدركت الحجم غير الاعتيادي لتلك الفراشة. دنوت منها ولم أستطع منع صرخة صدرت عني حين قلت:

ـ لكنهما اثنتان! إنهما سياميّتان!

والحقيقة أن الفراشتين كانتا ملتصقتين ببعضهما. وكان جسداهما يخفقان بتهيّج. ولمفاجأتي لم يعرني ذلك الكائن الخرافي المزدوج أي اهتمام حتى أنه لم يقدم على أية محاولة للفرار. وقبل أن أمسك به كان لديّ ما يكفي من الوقت لألاحظ البُقع البيضاء على ظهره. كانت تلك هي رأس الميت.

لم نعد للحديث عن المرأة ذات السترة المبطّنة... تابعت بناظري تحليق الكائن الخرافي في السماء بعد أن حُرّر وانشطر إلى فراشتين. عندها فهمت بما يوحي به عقل طفل في العاشرة من العمر سبب ذلك الاتحاد. يبدو لي الآن انزعاج جدتي منطقياً.

أعاد لي القبض على الفراشتين المتزاوجتين حدثين من الذاكرة بعيدين جداً والأشد غموضاً في طفولتي. الأول عندما كنت في الثامنة من العمر. ويتلخص في بعض كلمات من أغنية قديمة، كانت جدتي تهمس بها أحياناً أكثر مما تغنيها عندما كانت تجلس في الشرفة، وقد أحنت رأسها على ملابس تعيد إصلاح ياقاتها أو تثبت أزرارها. كانت أبياتها الأخيرة على الخصوص تفتنني:

.... وهنا نمنا حتى نهاية العالم.

فنوم العاشقين ذاك الذي يدوم طويلاً كان يتجاوز إدراكي الطفولي.

كنت أعلم من قبل بأن الناس الذين يموتون ينامون أبداً (تماماً مثل تلك الجارة المسنّة التي شرحوا لي جيداً غيابها ذات شتاء). هل كانوا مثل عاشقَي الأغنية؟ هكذا اختلط الحب والموت في رأسي الصغيرة. وما كان جمال الأغنية الحزين إلا ليزيد من ذلك التشويش بفضل الأغنية حيث الحب، والموت، والجمال... وتلك السماء الليلية، وتلك الريح، ورائحة السهب تلك، حتى بدت لي حياتي كأنها بدأت لتوّها.

أما الذكرى الثانية فقد كانت بعيدة جداً حتى أنني لا أستطيع تحديد تاريخها، حتى كأنْ لم يكن هناك وجود لـ«أنا» محددة لشدة ضبابيتها. كان هناك فقط ذلك الإحساس المكثف بالضوء، ورائحة الأعشاب المعطرة وتلك الخطوط الفضية التي تخترق كثافة زرقة الجو، (سأكتشف بعد سنوات أنها: خيوط العذراء). كان ذلك الانعكاس المشوّش الذي يصعب الإمساك به ذا قيمة كبيرة لديّ، لأني أقنعت نفسي بأنه يتعلق بذكري مشوّشة تعود لما قبل ولادتي. أجل، كذاك كان الأمر. فقد كان يحمل لي الصدى نَسَبي الفرنسي. ألفيتُ كل عناصر تلك الذكرى في حكاية لجدتي حيث شمس خريفية رافقت سفرها في بروفانس، ورائحة الخزامى في الحقول، وحيث ماجت في الجو العبق خيوط العذراء تلك. لم أجرؤ أبداً أن أحدّثها عن بصيرتي الطفولية.

وخلال الصيف التالي رأينا، أختي وأنا، جدتنا تبكي لأول مرة في حياتنا...

كانت تبدو في أعيننا كإلاهة عادلة وراعية ووفية لنفسها بصفاء مثالي. فحكايتها الشخصية التي تحولت منذ فترة طويلة إلى أسطورة جعلتها في مرتبة تتجاوز أحزان الفانين البسطاء من البشر. كلا، لم نر

أي دمعة، بل تشنّج أليم لشفتيها فقط، وخلجات تعبر خدّيها، وخفقات سريعة لأهدابها. . .

كنا نجلس على سجادة نُثرت عليها قطع أوراق صغيرة، ثم عكفنا على لعبة مثيرة. ذلك أننا أخذنا نسحب حجراً صغيراً لُفّ في قطع ورق بيضاء صغيرة وشرعنا في مقارنتها. فمرة شظية من الكوارتز، ومرة أخرى حصبة ملساء ورائعة الملمس. وكان مدوّناً على الورق أسماء ظننّا لجهلنا أنها كلمات مبهمة لتسميات معدنية مثل: فكامب، ولاروشيل، وبايون. . . بل لقد وجدنا في إحدى القُصاصات قطعة حديدية خشنة يعلوها بعض الصدأ. واعتقدنا أننا قرأنا اسم هذا المعدن الغريب «فيردان». . . وهكذا تم إحصاء الكثير من تلك المجموعة. وعندما دخلت جدتنا كانت اللعبة قد أخذت مساراً آخر، فقد أخذنا نتنازع الحجارة الصغيرة الأكثر جمالاً، وكنا نمتحن صلابتها بضرب بعضها بالبعض الآخر حد كسرها في بعض الأحيان. أما تلك التي كانت تبدو لنا قبيحة مثل «الفردان» فقد كنا نلقي بها من النافذة إلى حديقة مزروعة بزهر الدهلية. وانتهى الأمر بالعديد من القصاصات الورقية ممزقة. . .

تجمدت جدتنا أمام ساحة المعركة المملوءة بالقطع البيضاء المنثورة. رفعنا أعيننا، وهنا بدت عيناها الرماديتان وقد أشبعتا دمعاً. كان ذلك فقط من أجل أن توصل لنا بريقهما غير المحتمل.

كلا. لم تكن جدتنا إلاهة لا تنفعل. فهي أيضاً يمكنها أن تكون فريسة للانزعاج وللضيق المفاجئ. هي التي اعتقدنا أنها تمضي بثبات نحو الأيام المتوالية الهادئة يمكنها هي أيضاً أن ترسو أحياناً على ضفاف الدموع!

ومنذ ذلك الصيف كشفت لي حياة جدتي أوجهاً أخرى منها غير متوقعة، وبالأخص أكثر شخصية.

فقد كان ماضي جدتي المنصرم، يُلخّص في بعض التمائم وبعض بقايا العائلة الثمينة، مثل تلك المروحة الحريرية التي تذكرني بورقة رقيقة من القيقب، أو مثل الحقيبة اليدوية الصغيرة المشهورة «حقيبة بون نوف[1]». وتزعم أسطورتنا بأن الحقيبة وجدتها على ذلك الجسر شارلوت لوموني وكانت حينها في الرابعة من العمر. يومها كانت الفتاة تركض أمام والدتها قبل أن تتوقف فجأة صارخة: «حقيبة!» هكذا، وبعد أزيد من نصف قرن ما يزال صوتها يتردد صداه الواهن في مدينة تائهة في السهب الروسية اللامتناهية. و كانت جدتي تحفظ داخل تلك الحقيبة، المصنوعة من جلد الخنزير وذات الصفائح المطلية باللون الأزرق عند قفلِها، مجموعتها من الأحجار القديمة.

شكلت تلك الحقيبة القديمة أحد أول تذكارات جدتي. أما بالنسبة لنا فقد كانت تلك الحقيبة مكوّناً لعالم ذكرياتها المذهل: باريس وجسر بون نوف... كوكبة مدهشة من الخيوط التي تنسج حدودها غير المحددة بعد أمام أنظارنا المفتونة.

إضافة إلى ذلك، كان من بين آثار الماضي علامة قديمة جداً (أذكر اللذة التي كنا نمرّر بها أصابعنا على الحوافّ الذهبية المصقولة للمجلّدات الوردية مثل: *مذكرات كلب جعيد، وأخت الأبله*...).
كانت تلك الصورة قد أُخذت في سيبيريا حيث تظهر ألبرتين وإلى جوارها نوربير وأمامهما على دعامة متكلفة جداً، كما هو عادة الأثاث

---

(١) بون نوف: الجسر الجديد، الذي يُعد على الرغم من اسمه أقدم جسور باريس التي تعبر نهر السين. المترجم.

في استوديوهات المصورين، وهي نوع من الإسكملة مرتفعة جداً حيث تجلس شارلوت وهي بعد طفلة في الثانية من عمرها، تضع على رأسها قبعة مزيّنة بالدانتيلا، وترتدي فستاناً زاهي اللون. حيّرتنا كثيراً تلك الصورة من الورق المقوّى السميك حيث كُتب اسم مصوّر ورُسِم على الميداليات التي حصل عليها، حدّ أننا تساءلنا: «ما ما الشيء المشترك بين هذه السيدة الفاتنة ذات الوجه الصافي دقيق الملامح، والمحاط بخصلات ناعمة الملمس، وهذا الرجل المسنّ ذي اللحية البيضاء المشطورة إلى ضفيرتين صلبتين تشبهان إلى حد كبير مقدمة وجه فظّ؟»

كنا نعلم سلفاً بأن ذلك الرجل المسنّ، وهو والد جدنا، يكبر ألبرتين بستة وعشرين سنة. وكانت أختي تخاطبني مصدومة: «لكأنّه تزوّج من ابنته!» وكان يبدو لنا هذا الارتباط غامضاً وشاذاً. فكل كتبنا المدرسية ضمّت نصوصاً غزيرة عن قصص تروي حكايات فتيات صغيرات السنّ من دون مهر ورجال طاعنين في السنّ أثرياء وبخلاء وراغبين في الشباب حدّ أن كل ارتباط زواج في الوسط البورجوازي بدا لنا مستحيلاً. حاولنا جاهدين أن نكشف خلف تقاطيع وجه نوربير عن بعض اللؤم وشعور بالرضى لم يفلح في إخفائه. غير أن وجهه ظل بسيطاً وصادقاً مثل وجه المستكشفين الجسورين في صور روايات جيل فيرن. ثم إن ذلك الرجل المسنّ صاحب اللحية البيضاء لم يكن يبلغ حينها إلا ثماني وأربعين سنة...

أما ألبرتين، الضحية المفترضة للعادات البرجوازية، فسرعان ما ألفت نفسها على حافة قبر مفتوح حيث شُرع في إهالة التراب بالرفش عليه. كانت تقاوم بعنف كبير الأيدي التي أمسكت بها، صارخة بألم أدهش حتى ذلك الحشد الجنائزي من الروس المجتمعين في تلك

المقبرة التابعة لتلك المدينة السيبيرية النائية. حتى أولئك المعتادون على ألم المواكب الجنائزية في بلدهم، وعلى دفق الدموع، وعلى النحيب المؤثر، ظلوا ذاهلين أمام الجمال المعذّب لتلك الشابة الفرنسية، إذ كانت تهتز متشنّجة على القبر صارخة بصوتها الحزين: «إرموني أيضاً! إرموني»!

وهكذا فقد تردد طويلاً صدى هذا النحيب في آذاننا الصغيرة.

أخبرتني أختي التي كانت تكبرني سناً، وقد احمرّ وجهها قائلة:

ـ ربما. . . ربما أحبته.

غير أن الأكثر غرابة من رابطة نوربير وألبرتين كانت شارلوت في تلك الصورة التي تعود إلى بداية القرن والتي أثارت فضولي، وبخاصة أصابع رجليها العارية. ذلك أنها ضمّتها بقوة اتجاه أخمص قدميها في حركة تلقائية أو بسبب شقاوة غير متعمدة. فهذا التفصيل العادي أضفى على الصورة كلها معنى غريباً. ولما كنت عاجزاً عن وصف فكرتي فقد اكتفيت بأن أردد في داخلي بصوت حالم: «هذه الطفلة التي تتواجد على هذه الإسكملة لسبب مجهول، في ذلك اليوم من فصل الصيف الذي مضى إلى الأبد، في الثاني والعشرين من شهر تموز/يوليو لسنة ١٩٠٥، وفي منطقة نائية جداً من سيبيريا، أجل هذه الفرنسية الصغيرة جداً والمحتفلة في ذلك اليوم بعيد ميلادها الثاني، هذه الطفلة التي تنظر إلى المصوّر، ونتيجة لنزوة غير واعية تماماً تشنّج أصابع رجليها الصغيرة بشكل لا يصدّق، مكّنتني من اقتحام ذلك اليوم وتذوّق جوّه، ووقته، ولونه. . .»

بدا لي غموض ذلك الحضور الطفولي مدوّخاً حد أني أغلقت عينيّ.

كانت تلك الطفلة. . . جدّتنا. أجل، كانت هي. تلك المرأة التي رأيناها تلك الليلة تنحني وتشرع في جمع قطع الأحجار الصغيرة المتناثرة على السجادة في صمت. وبحيرة وخجل، تراجعنا أنا وأختي بعد أن جعلنا ظهرينا إلى الجدار، ومن دون أن نجرأ على الهمس بأية كلمة اعتذار أو نقدّم مساعدة لجدّتنا في جمع طلاسمها المبعثرة. خمّنا بأن عينيها المخفوضتين مُلئتا دمعاً. . .

لم يكن أمامنا في لعبتنا المدنّسة تلك جنّية ساهرة كما كانت على الدوام، أو كونتيسة سيد اللحية الزرقاء، أو حتى جكيلة الخشب النائم، بل امرأة مجروجة وحساسة على الرغم من كل قوة روحها. كانت لحظة الفزع تلك بالنسبة لها أشبه بشخص راشد تمّت خيانته، ليظهر ضعفه، وليشعر كأنه ملك عار أمام ناظري طفل منتبه. كان مظهرها أشبه ببهلوان تعثر، وخلال ثوان من فقدانه توازنه أبقاه المتفرج حافظاً لتوازنه، وكأنه متضايق أيضاً من تلك القدرة غير المتوقعة.

أعادت غلق حقيبة «بون نوف» وحملتها إلى غرفتها، ثم نادتنا إلى المائدة. وبعد صمت، شرعت في الحديث بصوت متوازن وهادئ بالفرنسية، بينما كانت تصبّ الشاي في الأقداح بحركة اعتيادية، قائلة:

- من بين الحجارة التي ألقيتماها حجر لطالما تمنيت أن أجده. . .

حكت لنا، ودوماً بنبرتها المحايدة تلك، وباللغة الفرنسية مع أننا نتحدث الروسية على مائدة الطعام عادة، بسبب زيارة الأصدقاء أو الجيران المفاجئة، عن استعراض الجيش الكبير، وحكاية الحجر الصغير الداكن، والمسمّى «فردان». وما كدنا نفهم معنى حكايتها. غير أن فتنتنا

انصبّت على نبرة صوتها. كانت جدتنا تحدثنا كما لو أننا راشدين! رأينا فقط ضابطاً وسيماً بشارب ينفصل عن صف استعراض النصر، متقدماً من شابة وسط الحشود المتزاحمة والمتحمسة، ويقدّم لها قطعة صغيرة من المعدن الداكن...

خرجت بعد العشاء مسلّحاً بمصباح كهربائي لأمشط أرضية الروضة الموجودة قرب عمارتنا، غير أن «الفردان» لم يكن هناك. إلا أني ألفيته في صباح الغد على الرصيف. وكان عبارة عن حجر حديدي صغير محاط ببعض أعقاب السجائر وزجاج قنينة. كان قد امتلأ رملاً تحت ناظري. بدا وكأنه يجتث نفسه من هذا المحيط المبتذل، وكأنه حجر نيزكي أتى من مجرّة مجهولة، وقد أوشك على الاختلاط بحصى الممشى...

هكذا حدَسْنا سرَّ الدموع الخفية في مُقْلَتَيْ جدّتنا، وأحسسنا بوجود ذلك الحبيب الفرنسي البعيد في قلبها، والذي سبق جدنا فيودور. أجل، كان ذلك الحب لضابط أنيق من الجيش العظيم، وهو الرجل الذي وضع في راحة يد شارلوت شظية «الفردان» الخشنة. هزّنا ذلك الاكتشافِ وشعرنا بأننا متحدان مع جدتنا عن طريق سر قد لا يكون أحد من أفراد العائلة عرفه. وأخذنا نسمع في تلك اللحظة دفق الحياة في كل ألمها الجميل خلف التواريخ وحكايات عائلتنا الأسطورية.

التحقنا مساءً بجدتنا في شرفة غرفتها الصغيرة المغطاة بالأزهار. كانت تبدو معلقة فوق ضباب السهب الحار. وكانت شمس حارقة تحاذي الأفق بقيت مترددة بُرهةً قبل أن تنزلق سريعاً. وبدت النجوم الأولى ترتجف في السماء. وحمل إلينا الهواء المسائي روائح قوية.

صمتنا. وكما هي العادة كانت جدتنا تعيد حياكة قميص ممدد على

فخذيها. وعندما أشبع الجو بظل لازَوَرْدي رفعت رأسها متخلّية عن عملها، وأجالت بصرها الشارد في السهب الضبابي البعيد. ولما لم نجرؤ على قطع صمتها اكتفينا بين الفينة والأُخرى، باستراق النظر إليها. هل كانت ستبوح لنا بسر آخر أكثر أهمية، أم أنها ستتصرف كما لو أن شيئاً لم يحدث لتقرأ لنا على ضوء أباجورها الفيروزي صفحات من دودي أو من جيل فيرن التي كانت ترافق عادة ليالينا الصيفية؟ ومن دون الاعتراف بذلك، أخذنا نترقد كلماتها ونصغي لنبرة صوتها. وامتزج في انتظارنا، وهو انتظار المتفرج للبهلوان، فضول قاس وتضايق غير واضح المعالم. كان لدينا انطباع بأننا نصبنا فخاً لهذه المرأة الوحيدة في مواجهتنا.

ومع ذلك، فقد بدت كأنها لم تلحظ حضورنا القلق، إذ بقيت يداها موضوعتين على فخذيها من دون حركة، ونظرها يسبح في صفاء السماء. وكان ظل ابتسامة ينير شفتيها...

وشيئاً فشيئاً، استسلمنا لذلك الصمت. ولما كنا منحنيين على الدرابزين فقد رحنا نُحملق في السماء ما أمكننا. وبدت الشرفة تتأرجح قليلاً منفلتة من تحت أقدامنا آخذة في التحليق. وبدأ الأفق يدنو كما لو أننا نتجه صوبه عبر أنفاس الليل.

استطعنا تحت خط الأفق تمييز ألقها الشاحب. كان كما لو أنه لمعان موجات صغيرة على صفحة نهر. وبشك أخذنا نتطلع إلى الظلمة المنثورة على شرفتنا الطائرة. أجل، فقد كانت صفحة ماء داكنة تتلألأ وسط السهوب، وتصعد صاحبة رطوبة لاذعة الأمطار الغزيرة. وكانت صفحتها تظهر بوضوح بالتدريج بضوء كامد شتوي.

بدت لنا في تلك اللحظة كُتل العمارات السوداء تخرج من هذا المد

العجيب وعلامات الكاتدرائيات وأعمدة النور. إنها مدينة! مدينة ضخمة ومتناسقة على الرغم من المياه التي تغرق شوارعها. كانت مدينة شبح تنبثق تحت أنظارنا...

وفجأة اكتشفنا أن أحداً يحدثنا منذ مدة. كانت جدتنا تحدثنا!

ـ كنت حينها في مثل عمريكما الآن. حدث ذلك شتاء سنة ١٩١٠، وتحوّل السين إلى بحر حقيقي. وكان الباريسيون يُبحرون في قوارب، وكانت الشوارع تشبه الأنهار، وغدت الساحات كبحيرات عظمى. وأشد ما كان يدهشني، الصمت...

أصخنا السمع من شرفتنا لذلك الصمت الغافي لباريس الغارقة، حيث كان يُسمع هدير بعض الأمواج عند مرور قارب، وصوت أخرس عند طرف شارع غارق.

كانت فرنسا جدتنا أشبه بأطلنتيد ضبابية تخرج من البحر.

[٢]

ـ حتى الرئيس اكتفى بالوجباتِ الباردة!

كان ذلك هو الردّ الأول الذي انتشر في عاصمة فرنسا الأطلنتيد الخاصة بنا. تخيّلنا نظرة شيخ جليل جمع في قسمات وجهه وقار والد جدنا نوربير، والتبجيل الفرعوني لستالين. شيخ بلحية مسنّنة يجلس أمام طاولة تضيئها شمعة بشكل حزين.

حمل ذلك الرجل الأربعيني الخبر، وكان بعينين يقظتين وهيئة واثقة. كذاك كان يظهر في صور ألبومات جدتنا القديمة. دنا بقاربه من جدار عمارة، ووضع سُلّماً ثم صعد حتى إحدى نوافذ الطابق الأول. كان الرجل يدعى فانسون، وهو عم شارلوت ومراسل *الإكسلسيور*. فمنذ بدء الفيضان، أخذ يشق طريقاً له في شوارع العاصمة باحثاً عن حدث ذلك اليوم. وكانت الوجبات الباردة للرئيس حدثاً. وأخذت الصورة المدهشة التي نتأملها في قطعة جريدة اصفرّت من قارب فانسون. كانت لثلاثة رجال على متن قارب متمايل يعبر الماء المتدفق على جوانب العمارات. وقد فسّرت أسطورة الصورة بالقول:

«السادة النواب يقصدون دورة للجمعية العمومية»...

تجاوز فانسون دعامة النافذ قافزاً في حضني أخته ألبرتين وشارلوت اللتين كانتا في بيته خلال مقامهما في باريس... امتلأت أطلنتيد

الصامتة من قبل بالأصوات والمشاعر والأحاديث. وفي كل ليلة كانت حكايات جدتنا تحرر بعض قطع هذا العالم الذي التهمه الزمان.

ثم كان هناك ذلك الكنز المخبأ. تلك الحقيبة المملوءة بالأوراق القديمة والتي كانت كتلتها المنفرجة تخيفنا، عندما كنا نتجاسر بالانسلال تحت سرير شارلوت. كنا نسحب أقفالها ونرفع الغطاء. لا شيء غير الأوراق! كانت حياة الراشدين بكل مللها، وبكل جديتها القلقة، تحبس أنفاسنا برائحتها وغبارها جرّاء تركها محبوسة كل ذلك الوقت... هل يمكننا أن نفترض بأن جدتنا ستجد إرضاءً لنا صورة النواب الثلاثة في قاربهم وسط تلك الجرائد القديمة، وتلك الرسائل التي تحمل تواريخ لا يمكن تخيّلها؟

... كان فانسون هو من مرّر لشارلوت مذاق مخططات الجرائد تلك، وهو من حثها على جمعها، وقص انعكاسات الواقع الزائلة تلك من الجرائد. هل فكر بأنهما سيحصلان مع الوقت على رموز أخرى مثل قطع الفضة القديمة والمنقوشة بالبرونز.

وفي ليلة من ليالي الصيف المفعمة بأنفاس السهوب العطرة انتزعتنا كلمات أحد العابرين من تحت شرفتنا من أحلامنا حين قال:

ـ كلا، أقسم لك. لقد قالوها في الإذاعة. لقد خرج إلى الفضاء!

وردّ صوت آخر مُتشكك وهو يبتعد:

ـ هل تعتقد أنني غبي أم ماذا؟ «لقد خرج»... ما من شيء هناك في الأعلى ليخرج إليه. هذا أشبه بالقفز من الطائرة من دون مظلة...

أعادنا ذلك الحديث إلى الواقع. وكانت الإمبراطورية الكبرى تتسع حولنا، مستمدة كبرياء خاصة من اكتشاف هذه السماء فوق الأرض غير المكتشفة بعد. كانت الإمبراطورية بجيشها العتيد وبمحطمات الجليد

الذرّية تكتشف القطب الشمالي، وبمصانعها التي كان عليها فيما بعد أن تنتج كمية من الصلب تتجاوز إنتاج كل بلاد العالم مجتمعة، وبحقولها للقمح المتماوجة من البحر الأسود حتى المحيط الهادئ. . . وبذلك السهب اللامتناهي.

ومن على شرفتنا، كانت سيدة فرنسية تحدثنا عن قارب يعبر المدينة الكبيرة المغمورة بالفيضان والتي تحاذي جدار عمارة. . . اهتززنا في أماكننا محاولين إدراك أين نحن؟ هنا أم هناك؟ وانطفأ في آذاننا همس الأمواج.

كلا، لم تكن المرة الأولى التي نشعر فيها بانشطار حياتنا، ذلك أن الحياة إلى جوار جدتنا وحدها كانت تكفي بأن نحس بأننا هناك. كانت تعبر الباحة دوماً دون أن تجلس على طرف مقاعد البابوشكات[1] التي لا يمكن تصوّر الباحة الروسية من دونها. غير أن هذا ما كان ليمنعها من أن تحييهن بطريقة ودودة جداً، والسؤال عن صحة تلك التي لم ترها منذ عدة أيام، وأن تقدّم لها خدمة بأن تدلّها على الطريقة التي تزيل المذاق اللاذع من الفطر المملح. . . لكنها كانت توجّه تلك الكلمات واقفة دائماً. وكانت محدثاتها من عجائز الباحة يقبلن ذلك الاختلاف. فالكل كان يتفهم أن شارلوت ليست بابوشكا روسية.

ولم يكن ذلك يعني أنها مفصولة عن العالم، أو أنها تحرصِ على بعض الأحكام الاجتماعية المسبّقة، ذلك أننا كنا في بعض الأحيان نُنتزَع من نومنا الطفولي في الصباح الباكر حين نسمع صيحة صاخبة تتردد وسط الباحة:

---

(١) بابوشكا: جدّة بالروسية. المترجم.

ـ تعالوا لأخذ الحليب.

وعبر أحلامنا كنا نتعرف على الصوت، وخاصة على النبرة الفريدة لبائعة الحليب آفدوتيا التي تأتي من القرية المجاورة. وكانت ربّات البيوت ينزلن بِقِربهن قاصدات وعائين كبيرين من الألمنيوم كانت تلك القروية النشيطة ذات الخمسين سنة تجرّهما من منزل إلى آخر. وفي أحد الأيام، عندما أيقظني نداؤها ولم أعد للنوم... سمعت باب منزلنا يصفق بصوت خافت جداً، وأصواتاً مبحوحة تلج غرفة المعيشة، وبعد لحظة قال صوت بعفوية مرحة:

ـ آه، كم هو جميل بيتك يا شورا! كما لو أنني مستلقية على غمامة.

ولما حيرتني تلك الكلمات استرقت النظر من خلف الستارة التي تفصل غرفتنا فألفيت آفدوتيا مستلقية على الأرضية، فاتحة ذراعيها ورجليها، ومبقية عينيها نصف مفتوحتين. كان كل جسدها، من قدميها المغبرتين العاريتين حتى شعر رأسها الملقى على الأرض، مسترخياً في استراحة عميقة. وكانت ابتسامة شاردة تزيّن شفتيها المنفرجتين.

ـ كم هو جميل بيتك يا شورا!

كذاك رددت بصوت خافت مخاطبة جدتي باسم التصغير هذا، الذي يحلّ عادة لدى الناس محلّ اسمها الغريب.

قدّرت تعب ذلك الجسد الأنثوي الضخم المسترخي في غرفة المعيشة. وفهمت أن آفدوتيا ما كانت لتسمح لنفسها بمثل تلك اللامبالاة إلا في غرفة جدتي، ذلك أنها ما كانت لتُوبَّخ أو يُنظر إليها بسوء. كانت قد أنهت جولتها الشاقة التي تمضيها منحنية تحت ثقل

وعاءَيها الكبيرين. وعندما ينفد كل ما لديها من الحليب، كانت تصعد عند «شورا» بقدمين مخدّرتين، وذراعين متعبتين. وكانت الأرضية نقية دوماً، وغير مغطاة، وتحفظ رطوبة صباحية عذبة. وكانت آفدوتيا تدخل، وتحيي جدتي، ثم تتخلص من حذاءَيها الكبيرين قبل أن تستلقي على الأرضية. وكانت «شورا» تقدم لها كوب ماء، وتجلس على مقعد صغير جوارها ثم تشرعان في الحديث قبل أن تجد آفدوتيا في نفسها الشجاعة لتمضي في طريقها...

سمعت جدتي في ذلك اليوم تقول بضع كلمات لبائعة الحليب المستكينة لشرودها السعيد. كانت النساء يتحدثن عن الأعمال في الحقول، وعن محصول الحنطة السوداء... ولم أكن مندهشاً لسماع شارلوت تتحدث عن تلك الحياة الريفية وكأنها تخبرها جيداً، ولا للغتها الروسية الصافية جداً والدقيقة على الدوام، والتي لا يمكن مقارنتها بتاتاً بلغة آفدوتيا المعقدة والخشنة والمنمّقة. تطرقتا أيضاً في حديثهما إلى الحرب، الموضوع الذي لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهله، ذلك أن زوج بائعة الحليب كان قد قُتل في الجبهة، كما تحدثتا عن الحصاد والحنطة السوداء، وعن ستاليغراد... وفي تلك الليلة، كانت ستحدثنا عن باريس الواقعة تحت وطأة الفيضان، أو تقرأ لنا بعض الصفحات من هيكتور مالو! أحسست بماضٍ بعيد ومظلم. ماض روسي أخذ يستيقظ تلك المرة في أعماق حياتها الماضية.

قامت آفدوتيا وقبلت جدتي. وسلكت من جديد طريقها التي تأخذها عبر الحقول اللامتناهية تحت شمس السهوب، على متن عربة غارقة في محيط من الأعشاب طويلة الأزهار... رأيتها تلك المرة وهي تغادر الغرفة تلامس بأصابعها القروية الكبيرة بحذر وتردد

المجسَّم الدقيق الموضوع على صوان مدخل بيتنا. كان المجسّم لحورية بجسد مبلول تضم إليها ساقين ملتويتين. وكان هذا الرسم الذي يعود لبداية القرن أحد الومضات المنتمية للماضي والتي استطاعت البقاء بمعجزة. . .

ومع أن الأمر يبدو غريباً جداً فالفضل في نجاحنا في الوصول إلى معنى ذلك الهناك الغريب الذي تحمله جدتنا يعود إلى السكير غافريليتش. كان ذلك الرجل الذي كان جسده المترنج وحده كافياً لإثارة الخوف عندما يظهر خلف الناس في الباحة. وهو الرجل الذي تصدّى لرجال الميليشيا عندما أوقف حركة السير في الشارع الرئيس بمشيته المترنحة المتقلبة. وهو الرجل الذي انفجر أيضاً مهدداً السلطات. وهو الذي ارتعد زجاج النوافذ لتهديداته، وكُنست المقاعد من البابوشكات. بيد أن غافريليتش كان هو الرجل نفسه الذي يتوقف عندما يقابل جدتي محاولاً أن يخفي أنفاسه المخمورة بالفودكا، ويضغط على كل كلمة من كلماته باحترام مؤكد قائلاً:

ـ صباح الخير شارلوتا نوربيرتوڤنا!

أجل، كان الوحيد في الباحة الذي يدعوها باسمها الفرنسي مع أنه يضفي عليه بعض الروسية. غير أن الأكثر من هذا هو أنه حفظ، ولسنا ندري كيف أو متى، اسم والد شارلوت مشكلاً بذلك اللقب الأسري الغريب جداً «نوربيرتوڤنا» والذي كان قمة في التأدب والملاطفة عندما يصدر من فمه. وكانت عيناه المضطربتان تومضان. وكان جسده المارد يجد توازنه، ويشرع في هزّ رأسه هزات متواترة، وغير متناسقة أحياناً مُجِيراً لسانه المنقوع بالكحول على تأدية هذه الكلمات البهلوانية عندما يقول:

ـ هل أنت بخير يا شارلوتا نوربيرتوفْنا؟

وكانت جدتي ترد على تحيته، حتى أنها كانت تتجاذب أطراف الحديث مع غافريليتش من دون أي حكم أخلاقي مسبق. وكانت حالة الباحة في تلك الأوقات شاذة، ذلك أن البابوشكات يُطردن بفعل الدخول المدوي للسكير فيلجأنَ إلى درج مدخل البيت الخشبي الكبير المقابل لعمارتنا، في حين يختبئ الأطفال خلف الأشجار. وكان يمكن رؤية الوجوه موزّعة بين الفضول والخوف من خلف النوافذ. وفي الساحة كانت جدتنا تتحدث مع غافريليتش المدجّن. غير أنه لم يكن غبياً، ذلك أنه أدرك منذ مدة طويلة أن دوره يتجاوز السكر والعربدة إذ أحس أن وجوده ضروري من أجل خير الباحة من الناحية النفسية. فقد أضحى غافريليتش شخصاً، وطرازاً، وفضولاً، والناطق باسم القدر غير المتوقع والشاذّ العزيز جداً على قلوب الروس. ثم تظهر فجأة تلك الفرنسية بنظرتها الهادئة، وعينيها الرماديتين. تلك المرأة الأنيقة على الرغم من بساطة ثوبها، والرقيقة والمختلفة جداً عن أترابها وعن البابوشكات واللواتي طردهنّ لتوّه من مجثمهن.

وفي أحد الأيام أراد أن يقول لشارلوت شيئاً آخر غير التحية العادية فسعل في قبضة يده، ثم دمدم قائلاً:

ـ هكذا إذن يا شارلوتا نوربيرتوفْنا. أنت وحيدة هنا في سهوبنا...

وكان لهذه الكلمات الخرقاء الفضل في أن أتصوّر، للمرة الأولى، جدتنا من دوننا وحيدة في فصل الشتاء.

كان كل شيء ليمرّ بطريقة مختلفة في موسكو أو في لينينغراد، ذلك أن الزحام البشري للمدينة الكبيرة كان من شأنه أن يمحوَ اختلاف شارلوت، غير أنها ألفت نفسها في سارنزا الصغيرة، المدينة

المثالية لعيش حياة تتشابه أيامها. وهكذا أضحت حياتها الماضية حاضرة بقوة كما لو أنها عاشتها بالأمس فقط.

كذاك كانت سارنزا مجمّدة عند حافة السهوب، مندهشة بعمق أمام المدى غير المحدود الواقع عند أبواب بيوتها. وكانت شوارعها ملتوية ومغبرّة لا تكلّ من الصعود إلى الروابي، وسياجاتها من الخشب تحت خضرة الحدائق والشمس والمناظر النائمة، والمارة الذين كانوا يظهرون فجأة عند طرف شارع يبدون وكأنهم يتقدمون من دون أن يصلوا أبداً إلى مستوى ارتفاعك.

وكان بيت جدتي يقع عند حدود المدينة في المنطقة المعروفة بـ«الفرجة الغربية». ولما كانت فرنسا تقع في غرب أوروبا فقد كان ذلك مصادفة تسلّينا كثيراً. وكانت تلك العمارة ذات الطوابق الثلاثة التي شُيّدت في العشرية الأولى تقع، بحسب مشروع حاكم طموح، في راس شارع يحمل بصمة طراز حداثي. أجل، كانت العمارة نسخة بعيدة لموضة بداية القرن. وكان كما لو أن كل التواءات وانحناءات تلك الهندسة التي تجري ببطء من أصلها الأوروبي والتي أصابها الضعف حتى انمحى نصفها قد بلغت حتى أعماق روسيا. وهكذا فقد تجمّد ذلك الدفق تحت وطأة ريح جليدية عند عمارة بعيني عجل دائرتين وغريبتين. . . فشل إذن مخطط الحاكم المستنير، ذلك أن ثورة تشرين الأول/ أكتوبر أوقفت كل تلك النزعات المنحطة للفن البورجوازي. وظلت تلك العمارة وهي شِق ضيّق من الشارع المأمول فريدة من نوعها. زد على ذلك أنها لم تحفظ إلا ظل نموذجها الأولي بعد عدة عمليات إصلاح. غير أن الضربة القاصمة جاءتها من الحملة الرسمية لمحاربة «الزوائد الهندسية»، والتي كنا شهوداً عليها في

مرحلة طفولتنا. فكل شيء بدا «زائداً»، ذلك أن العمال شرعوا في إزالة سيقان شُجيرات الورد، وقضوا على عيني العجل... وبما أن هناك دوماً أشخاص متحمسون فوق العادة (والواقع أن هذه الحملات نجحت فعلاً بفضلهم) فقد كدّ الجار المقيم في الأسفل في إزالة الزيادة الهندسية الأكثر بروزاً من الجدار والمتمثلة في وجهي كاهنتي باخوس جميلتين تبتسمان بحزن، وصولاً حتى شرفة جدتنا. ولتحقيق ذلك كان لزاماً عليه إنجاز أعمال تتضمّن مجازفات كبيرة، ذلك أنه وقف على حافة نافذته حاملاً أداة حديدية طويلة بيده. وهكذا انتزع الوجهان عن الجدار، متسبباً في سقوطهما أرضاً الواحد في أثر الآخر. وتهشم أحدهما على الإسفلت إلى ألف قطعة، بينما غاص الآخر في مسار مخالف تماماً في نباتات الدهلية التي استوعبت سقطته. وعند حلول الليل حملناه إلى بيتنا. ومنذ ذلك الحين أخذ ذلك الوجه الحجري ينظر إلينا وسط أُصُص الورود، مصاحباً إيانا في ليالينا الصيفية الطويلة بابتسامته الذابلة وعينيه الحانيتين. ويبدو أنه كان ينصت معنا لحكايات شارلوت.

وكان في الجانب الآخر من الباحة المغطاة بأوراق الزيزفون وأشجار الحور بيت خشبي كبير مكوّن من طابقين، وكان أسود اللون بنوافذ مظلمة صغيرة، وباعثة على الريبة. فمثل ذلك البيت وأشباهه هو ما كان يريد الحاكم محوه باستنارة طراز حديث رقيقة. وكان يسكن تلك البناية التي تعود لأكثر من قرنين البابوشكات الأكثر فلكلورية، والفارّات مباشرة من الحكايات، بشالاتهن السميكة، ووجوههن الشاحبة شحوب الموتى، وبأياديهن بارزة العظام الزرقاء تقريباً، الموضوعة على ركبهن. وعندما كنا نجد فرصة للتواجد بذلك

البيت المظلم كانت الرائحة اللاذعة والواطئة التي تسكن الممرات المغلقة تضغط على حنجرتي. غير أنها لم تكن سيئة تماماً. فقد كانت رائحة الحياة الماضية، المظلمة والبدائية جداً في استقبال الموت والولادة والحب والألم. كان ثمة جو ضاغط إلا أنه مليء بالحياة الغريبة. وهو الوحيد الذي يناسب سكان تلك الإسبة[1] الكبيرة. كان يمثل النفس الروسي... وكنا نتفاجأ ونحن في الداخل بكثرة الأبواب، وانعدام التناسق بينها، وانفتاحها على غرف غارقة في ظلال غريبة. كنت أشعر بشكل ملموس تقريباً كثافة أجساد الحيوات التي تختلط هناك. وكان غافريليتش يسكن في القبو الذي تقتسمه معه ثلاث عائلات. وكانت نافذة غرفته الصغيرة تغلق بالأعشاب الطائشة في فصل الربيع. وكانت البابوشكات الجالسات على مقاعدهن على بعد أمتار منها يلقين بين الفينة والأخرى نظرات قلقة. ولم يكن من النادر أن يظهر وجه «مثير الفضائح» من بين سيقان تلك الأعشاب. وكانت رأسه تبدو كأنها تخرج من الأرض. إلا أن غافريليتش كان في لحظات التأمل تلك يبدو هادئاً دوماً. وكان يقلّب رأسه كما لو أنه يريد التطلع إلى السماء وضوء الغروب في أغصان الزيزفون... وحين وصلنا في يوم من الأيام حتى تسقيفة تلك الإسبة السوداء الكبيرة القائظة دفعنا تاجاً ثقيلاً من القرميد. وكان في الأفق حريق مرعب يحجب السهوب. وكان الدخان على وشك أن يحجب الشمس...

وفي النهاية، لم تنجح الثورة إلا في إبداع وحيد في ذلك الركن الهادئ من سارانزا. ذلك أن الكنيسة الواقعة عند أطراف الباحة رُفعت

---

(١) الإسبة: منزل خشبي يسكنه فلاحو روسيا الشمالية. المترجم.

قُبّتها. وكان قد نزع أيضاً فاصلها الأيقوني ووضع مكانه مربّع أبيض كبير من الحرير الأبيض. وظهرت الشاشة المصنوعة من ستائر مصادرة من غرف بورجوازية للعمارة «ذات الزوائد». وهكذا، كانت سينما *باريكاد* مستعدة لاستقبال متفرجيها الأوائل...

أجل، كانت جدتنا تلك المرأة القادرة على التحدث إلى غافريليتش بهدوء. وكانت أيضاً تلك المرأة المعارضة لكل الحملات، وهي التي قالت لنا يوماً، غامزة بطرفها، في معرض حديثها عن السينما: «هذه الكنيسة مقطوعة الرأس...». ورأينا بعد ذلك كيف ارتفع فوق البناية الواطئة مجهولة التاريخ بالنسبة لنا مجسّم بصليّ مذهّب وصليب.

كانت تلك العلامات الصغيرة هي التي تكشف لنا اختلافها أكثرهما تكشفه من ثيابها وجسدها. أما اللغة الفرنسية فقد اعتبرناها دوماً لهجتنا العائلية. ومهما يكن من أمر فقد كان لكل عائلة بعض جنونها الشفوي، ومصطلحاتها الحميمة، وعاداتها اللغوية وألقابها التي لاتتجاوز أبداً عتبة البيت.

كانت صورة جدتنا منسوجة من كل تلك الغرائبيات التي لاتؤذي أحداً، وهو ما يعتبره الآخرون تفرّداً. وحتى اليوم الذي اكتشفنا فيه أن حجراً صغيراً يعلوه الصدأ يمكنه أن يتسبب في تألُّق الدموع بين أهدابها، وأن اللغة الفرنسية لهجة بيتنا المحلية يمكنها بفضل سحر أصواتها أن تنتزع مدينة عجيبة من المياه السوداء المظلمة لتعود ببطء إلى الحياة.

تحوّلت شارلوت في تلك الليلة من سيدة ذات أصول غير روسية مضبّبة إلى رسولة للأطلنتيد التي ابتلعها الزمان.

[٣]

كانت نوبي ـ سير ـ سين تتكوّن من حوالي اثني عشر بيتاً من جذوع الصنوبر المقشورة. كانت إسبات حقيقية بأسقف مغطاة بألواح رقيقة استحال لونها إلى الفضي بفعل سوء الأحوال الجوية لفصل الشتاء، وبنوافذ ذات إطارات خشبية قُطعت بشكل جميل، وبسياجات تجف الملابس عليها. وكانت النساء الشابات يحملن دلاء مملوءة بالماء على أطراف عِصيّ تتساقط منها قطرات على الأرضية المغبّرة للشارع الكبير. بينما كان الرجال يحملون أكياس قمح ثقيلة على العربات، في حين كان قطيع يقصد إسطبلاً ببطء كسول. وكنا نسمع صوت الأجراس المكتومة، وصياحاً أبح لأحد الديكة، فيما تعبق الأجواء برائحة عذبة صادرة عن خشب يحترق تختلط برائحة العشاء ـ الذي دنا موعده ـ.

ذلك أن جدتنا قالت لنا يوماً عندما كانت تحدثنا عن مدينة مولدها:

ـ آه ! كانت نوبي حينها مجرد قرية. . .

قالتها بالفرنسية، غير أننا لم نكن نعرف غير القرى الروسية. والقرية الروسية هي بالضرورة حفنة إسبات ـ كلمة «*ديريڤنيا*» مشتقة من «*ديريڤو*» أي الشجرة والغابة. . . وكان الخلط كبيراً على الرغم من التوضيحات التي أتت بها حكايات شارلوت فيما بعد. فما إن يُسمع إسم نوبيّ حتى تتراى القرية بمنازلها الخشبية، وقطيعها

وديكها. وعندما حدثتنا شارلوت لأول مرة في فصل الصيف الموالي عن شخص يدعى مارسيل بروست (تصورناه بالمناسبة يلعب كرة المضرب في نويي في شارع بينو) تخيلنا ذلك الغندور (وكانت قد أرتنا صورته) بعينيه الفاترتين وسط الإسبات!

كان الواقع الروسي يبدو دوماً تحت تأثير الأكسدة الهشة للألفاظ الفرنسية. ولم ينج رئيس الجمهورية من بعض الملامح الستالينية في الصورة التي نسجتها مخيلتنا. وأخذت نويي تستقبل مزيداً من *الكلخوزيين*[1]. وكانت باريس التي جعلت تتخلّص ببطء من فيضانها تبعث في نفسه إحساساً روسياً جداً ـ الاستراحة العابرة بعد كارثة تاريخية أخرى، وتلك الفرحة بإنهاء حرب، والتمكن من النجاة من أعمال قمع دموية. تجوّلنا في تلك الشوارع التي ما تزال ترشح الرطوبة منها، وقد غطتها الرمال والأوحال، وسكان تزاحموا عند أبواب العمارات، وثياب معلقة من أجل تجفيفها تماماً مثلما يفعل الروس بعد فصل شتاء بدأوا يظنون أنه أبدي.

ثم لمّا أخذت باريس تتألق من جديد بجوّها الربيعي المنعش الذي خمنّا مذاقه بحدسنا ـ ظهر موكب فاتن تجره قاطرة متوجة راحت تخفف من سرعتها لتتوقف عند أبواب المدينة أمام مقصورة محطة رانلاغ.

نزل من العربة شاب يرتدي بزة عسكرية عادية وأخذ يمشي على البساط الأحمر المفروش تحت قدميه. كان مصحوباً بامراة في رَيعان الشباب ترتدي فستاناً أبيض بأصيلة من الريش. ثم إن رجلاً أكبر سناً

---

(١) الكلخوزيون: سكان مزرعة تعاونية في الاتحاد السوفيتي. المترجم.

بملابس رسمية وبشارب جميل وبشريط أزرق رائع على صدره، انفصل عن جمع غفير كان في رواق المقصورة المسقوف واتجه نحو الزوجين. وكانت الريح الناعمة تداعب أوراق نباتات السحلبيات والقطيفات التي تزيّن الأعمدة، محركة ريش القبعة المخملية التي تضعها الشابة. وتصافح الرجلان...

كان سيد الأطلنتيد المنبثقة من الماء، الرئيس فليكس فور، يستقبل قيصر كل الأراضي الروسية نيقولا الثاني وزوجه.

كان الروج الإمبراطوري المحاط بنخبة الجمهورية هو من قادنا عبر باريس... علمنا بعد سنوات من ذلك، التسلسل التاريخي الحقيقي لتلك الزيارة العظيمة. فلم تكن زيارة نيقولا ألكسندر في ربيع سنة ١٩١٠، أي بعد الفيضان، ولكنها تمت في شهر تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٨٩٦ أي قبل ولادة أطلنتيد الفرنسية خاصتنا. غير أن هذا المنطق الواقعي لم يكن يعنينا كثيراً. ذلك أن تسلسل الأحداث في حكايات جدتنا الطويلة هي التي كانت تعني لنا كل شيء. ففي يوم من الأيام، وفي زمنهم الأسطوري، كانت باريس تخرج من الماء، والشمس تشرق، ثم سمعنا في اللحظة نفسها الصراخ الذي كان ما يزال بعيداً للقطار الإمبراطوري. ويبدو لنا تسلسل الأحداث هذا مشروعاً مثل ظهور بروست وسط قرويي نويي.

كانت شرفة جدتنا الضيقة تحلّق مصحوبة بعبق أنفاس السهب عند حدود مدينة نائمة ومفصولة عن العالم بصمت الشهوب الأزلي. وكل ليلة تشبه مطرية الكيميائي المذهلة حيث يحدث تحوّل مدهش للماضي. وكانت عناصر ذلك السحر تبدو لنا على قدر من الغرابة لا يقل عن غرابة مكوّنات حجر الفلاسفة. وكانت شارلوت تبسط جريدة

قديمة، وتقربها من مصباحها الفيروزي لتعلن قائمة طعام الوليمة التي قُدّمت على شرف العاهلين الروسيين عند وصولهما إلى شربورغ.

حساء اللحم
سلطعونية القريدس
سمك مقبّلات بومبادور
تروتة لوار مَطهيّة بنبيذسوترن
شرائح لحم خروف بالفطر
سمانات الكروم بكبد الإوزّ
فراخ مانس
محببات هلالية
شراب بنش معدّ بطريقة رومانية
طيور بارتافيل وأورتلون المحمّرة والمحشوّة
شرائح كبد الإوز من نانسي
سلطة
هليون الأغصان بالمرق الموصلي
مثلجات
تحلية

أنّى لنا تلك الشفرات الخفية؟ حيث *طيور بارتافيل وأورتلون*! وحيث *سمانات الكروم بكبد الإوزّ*! ولما كانت جدتنا متفهمة، فقد شرعت في البحث عن مرادفات لها مستشهدة بسلع غذائية بدائية جداً كانت ما تزال موجودة في متاجر سارانزا. و كنا سعداء ونحن نتذوّق تلك الأطباق الخيالية المزيّنة بالرطوبة الضبابية للمحيط (شربورغ!). غير أنه كان يتعيّن المضيّ في تعقب القيصر.

ومثله تماماً عند دخوله إلى قصر الأليزيه، أجفلنا لرؤية كل تلك الثياب السوداء التي تتوقف عن الحركة عند اقترابه. ويكفي أن يتصوّر المرء أكثر من مئتين من الشيوخ وثلاث مئة نائب برلماني! (الذين كانوا قبل بضعة أيام فقط، وبحسب تتبعنا لتسلسل الأحداث، يقصدون جميعاً دورتهم على متن قوارب. . .) وصدر صوت جدتنا الهادئة دوماً، والحالمة قليلاً، وقد امتزجت به رعشة مأساوية خفيفة عند قولها:

ـ تدركان أن ذلك كان لقاءً بين عالمين، أحدهما في مواجهة الآخر. (انظرا إلى هذه الصورة، من المؤسف أن الجريدة ظلت مطوّية لوقت طويل. . .) أجل، القيصر، ذلك السلطان المطلق، وممثلو الشعب الفرنسي! ممثلو الديمقراطية. . .

وكان يغيب عنا المعنى العميق لذلك اللقاء. غير أنه صار بإمكاننا في وقت لاحق أن نميّز من بين خمس مئة نظرة مصوّبة نحو القيصر أولئك الذين كانوا، عن سوء نية، يرفضون جو الحماس العام، ولا سيّما أولئك الذين كانوا، بسبب «الديمقراطية» الغريبة، قادرين على إظهار ذلك! أذهلتنا تلك العفوية. كنا نتفحص صفوف الملابس السوداء لنكشف مكامن الكدر. وكان على الرئيس أن يتعرّف عليهم، وأن يطردهم دافعاً إياهم من على درجات مدخل الأليزيه!

وفي الليلة الموالية أُضيء مصباح جدتنا مجدداً في الشرفة. ورأينا بين يديها بعض صفحات الجرائد التي كانت قد أخرجتها من الحقيبة السيبيرية. كانت تتحدث، وأخذت الشرفة تنفصل ببطء عن الجدار، لتحلّق غارقة في ظل السهب المعطّر.

. . .كان نيقولا يجلس إلى طاولة الشرف المزيّنة بأكاليل من زهور مديولا الجميلة. و كان ينصت أحيانا إلى بعض تعليقات السيدة فور الجالسة إلى يمينه، ويصغي أحياناً أخرى إلى صوت الرئيس الجهير المخملي الموجّه إلى الإمبراطورة. وكان انعكاس الكريستال وبريق الفضة اللامع يخلبان أنظار الضيوف. . . وعند التحلية، قام الرئيس، ورفع نخباً معلناً:

ـ إن حضور جلالتكم بيننا، وهو الذي أثار ابتهاج شعب بأكمله، دعم الروابط التي تجمع بين البلدين بأعمال منسجمة، وثقة متبادلة في مصيريهما. اتحاد بين إمبراطورية قوية وجمهورية مثابرة. . . معزز بإخلاص متين . . . . ولما كنت متحدثاً باسم الأمة أجمعها أجدد لجلالتكم مرة أخرى. . . أمنياتي من أجل عظمة ملككم. . . ومن أجل سعادة صاحبة العظمة الإمبراطورة. . . أرفع كاسي على شرف صاحب العظمة الإمبراطور نيقولا، وصاحبة العظمة ألكسندرا فيدوروفنا.

وشرعت أوركسترا الحرس الجمهوري في عزف النشيد الوطني الروسي. . . وفي الليل، كانت الحفلة الساهرة بدار الأوبرا مسك ختام كل تلك الاحتفالات. وصعد الزوج الإمبراطوري السلالم مسبوقاً بشخصين يحملان مشعلين. كانا يظنان أنهما يتقدمان عبر شلال يتحرك، حيث الانحناءات البيضاء للأكتاف الأنثوية، والورود المزهرة على الصدريات، واللمعان المعطر للتسريحات، وتلألؤ المجوهرات على الأجساد العارية. كل ذلك في خلفية الأزياء الموحّدة، والأزياء الرسمية. وحيث النداء القوي «يحيا الإمبراطور» يحرّك صداه السقف العظيم ليجعله متطابقاً مع السماء. . . وفي نهاية

العرض، وعندما أخذت الأوركسترا في عزف النشيد الوطني الفرنسي، استدار القيصر إلى الرئيس، ومدّ له يده.

أطفأت جدتي المصباح، وأمضينا بعض الدقائق في الظلام الحالك، وهو الوقت الكافي لتطير كل الذبابات الصغيرة التي تبحث عن موتها المنير تحت الأباجور. وشيئاً فشيئا، أخذت أعيننا تبصر مجدداً. وأخذت النجوم تشكل كوكباتها. وأخذ الفوسفور يتخلل الطريق شديدة البياض. وفي أحد أركان شرفتنا، وبين التيجان المعقودة للجلبان العطر، كانت كاهنة باخوس الخائرة ترسل لنا ابتسامتها الحجرية.

توقفت شارلوت عند عتبة الباب وتنهّدت بلطف قائلة:

- تعلمان، في الحقيقة، أن النشيد الوطني الفرنسي لم يكن إلا خطوة عسكرية. ولا شيء أكثر. تقريباً مثل الأناشيد الثورية الروسية. فالدم في مثل هذه الأوقات لم يكن يخيف أحداً...

عند دخولها الغرفة، سمعنا هذه الأبيات التي رددتها بصوت خفيض كصلاة غريبة آتية من الماضي:

- ... *رُفِع العلم المدمى* (...) *ولْيَروِ دمٌ غير نقيّ أخاديدنا*....

انتظرنا أن يغرق صدى تلك الكلمات في الظلمة، وبنفس واحد قلنا متعجبين:

- ونيقولا؟ القيصر؟ هل كان يعلم معنى النشيد؟

وبدت فرنسا الأطلنتيدية كسلّم للأنغام، ذات ألوان، وذات رائحة. واكتشفنا من خلال مرشدتنا الأجواء المختلفة التي تشكل الذات الفرنسية.

وبدا قصر الإليزيه في بريق الثريات ولمعان الجليد. وكانت الأوبرا تلمع من خلال الأكتاف النسائية المنحسرة، وقد أثملنا العبير الذي كان يفوح من التسريحات المعطرة. أما كنيسة «نوتردام»، فقد بدت بالنسبة لنا كإحساس من الحجر البارد تحت سماء صاخبة. أجل، كنا نحس تقريباً جدرانها الخشنة والمسامية. وبدت لنا صخرة هائلة تشكلت بفعل تأكّل حاذق عبر القرون...

وكانت تلك الأضلع الدقيقة تحدد تخوم العالم الفرنسي غير الثابتة حتى تلك اللحظة. وكانت تلك القارة المنبعثة تحفل بالأشياء وبالكائنات. جثت الإمبراطورية أمام «مركع» محير، لم يخبرنا بأية حقيقة معروفة. شيء مثل كرسي قطعت قوائمه، كذاك شرحت شارلوت. وقد تركتنا صورة قطعة الأثاث المبتورة الأطراف تلك ذاهلين. أبدينا رغبتنا، تماماً مثل نيقولا، بأن نلمس ذلك المعطف الأرجواني الذهبي الباهت الذي استخدمه نابوليون يوم تنصيبه. وكانت المادية تعوز ذلك العالم الذي كان في طور التشكل. ففي سانت شابيل أيقظت تلك الرغبة برغاسة رق خشنة. ذلك أن شارلوت أخبرتنا بأن تلك الرسائل الطويلة المكتوبة بخط اليد، كانت كتبت قبل ألف سنة بيد إحدى ملكات فرنسا، وسيدة روسية، تدعى آنا روسلافنا، وهي زوجة هنري الأول.

غير أن الأمر الأكثر إثارة هو أن الأطلنتيد كانت تُشيَّد أمام ناظرينا. ذلك أن نيقولا أمسك مِسَجَّة من الذهب، وصبّ الملاط داخل قالب من الغرانيت. كان ذلك الحجر الأساس لجسر ألكسندر الثالث... ثم مد المسجّة إلى فليكس فور قائلاً: «دوركم سيدي الرئيس». أخذت الريح الطليقة التي تُرغي وتُزبد مياه السين الكلمات التي قالها وزير التجارة مقاومة اصطفاق الأعلام عندما قال:

ـ حضرة السير. رغبت فرنسا بأن تهدي لذكرى والدكم المعظم أحد أكبر معالم عاصمتها. باسم حكومة الجمهورية، أرجو من جلالتكم، سيدي الإمبراطور، أن تقبلوا هذا التكريم بأن تضعوا ختمكم رفقة رئيس الجمهورية على الحجر الأساس لجسر ألكسندر الثالث، الذي سيربط بين باريس ومعرض ١٩٠٠، وبأن تمنحوا بالتالي هذه المعلمة العظيمة المترجمة للحضارة وللسلام، والتي ندشنها الآن، عناية عظمتكم السامية، والعناية اللطيفة للإمبراطورة.

وما كاد الرئيس يطرق الغرانيت طرقتين رمزيتين حتى وقعت حادثة غريبة. ذلك أن شحصاً لا ينتمي إلى الحاشية الإمبراطورية أو إلى الأعيان الفرنسيين انبرى أمام الزوج الإمبراطوري وخاطب القيصر رافعاً الكلفة بينهما، وببراعة اجتماعية عالية جداً لثم يد القيصرة! ولما أذهلتنا كل تلك الوقاحة ولقد حبسنا أنفاسنا مذهولين أمام هذا القدر من الوقاحة...

وشيئاً فشيئاً، أخذ المشهد يتضح. ذلك أن كلمات المتسلل أخذت تتضح، متجاوزة الماضي البعيد وعثرات فرنسيتنا. وبعصبية وصلنا صداها حين قال:

أيها الإمبراطور المعظم.. يا ابن ألكسندر الثالث!
لتحتفي فرنسا بمقدمك العظيم
صوتي يحييك بلغة الآلهة
لأن الشاعر وحده يمكنه أن يرفع الكلفة عن الملوك.

صدرت عنا «آهة» ارتياح. فالوقح الشجاع لم يكن سوى الشاعر الذي أخبرتنا شارلوت باسمه: جوزي ماريا دو إيريديا!.

وأنت، سيدتي، القريبة منه في هذه الحفلة
يمكنك وحدك أن تمنحي الجمال السامي
فلتتألمي أن أحيي في جلالتك
الرقة الإلهية التي صنع منها لطفك.

أثارتنا وتيرة هذه الأبيات. واحتفل صدى القافية في آذاننا بزواج عجيب للكلمات البعيدة مثل: نهر وجديد وذهب، أيضاً... وشعرنا بأن تلك الزخرفة الشفوية وحدها يمكنها أن تعبّر عن غرابة أطلنتيد الفرنسية خاصّتنا.

هي ذي باريس! من أجلكم
يتعالى الهتاف من المدينة الحاضرة المبتسمة والمزيّنة بالأعلام
أجل. في كل مكان، في القصر كما في مفترق الطرق المتواضع
تتحد الألوان الثلاثة لأمّتينا...

تحت أشجار الحور الذهبية، هو ذا السين بضفافه الجميلة
يحمل لكم أصوات الشعب السعيد
أيها الضيوف النبلاء، هي ذي القلوب تتبع الأعين نحوكم
وفرنسا تحييكم بكل قواها الحيّة.

بالجهد تتمّ الأعمال المنبثقة
عن السلام، وهذا الجسر يلقي جسراً هائلاً
للقرن الذي ينتهي والآخر الذي يبدأ
والذي شُيّد ليربط الناس والأزمان...
قبل أن تنزل من الجُرف التاريخي

وإذا ما ردّ قلبك الكريم على القلوب الفرنسية
تأمّل برزانة، واحلم أمام هذا الجسر
فقد نذرته فرنسا لوالدك ألكسندر.

فلتكن قوياً ولتكن إنسانياً كما كان والدك
احفظ سيفك المبتل المشهود بغمده
وكمحارب مسالم يضغط على سيفه
أيها القيصر، أنظر إلى الأرض تدور في يدك

فالمأثرة الإمبراطورية تحفظ توازنها
وذراعك الأقوى مرتين لم يصبها التعب أبداً
لأن ألكسندر والإمبراطورية أورثاك
شرف أسر قلوب شعب حر.

«شرف أسر قلوب شعب حر». شدنا هذا الشطر الذي أوشك أن يمر من دون أن ننتبه له في دفق الأبيات المطرب... وفهمنا في تلك اللحظة لماذا تجرأ الشاعر على تقديم نصائح إلى سيد الإمبراطورية الأكثر قوة في العالم. ولماذا يعتبر حب المواطنين الأحرار شرفاً؟ فقد بدت لنا الحرية في تلك الليلة الساخنة كهبة ريح لاذعة ورطبة تهز السين، ملأت رئتينا بنفس مثمل ومجنون قليلاً...

تمكنا فيما بعد من تقدير الثقل الكبير لذلك الإنشاد. غير أن مغالاة المناسبة لم تمنعنا في تلك الفترة من أن نكتشف في مقاطعها «شيئاً في اللغة الفرنسية» بقي حتى الآن من دون اسم. هل كان الروح الفرنسية؟ هل هو التأدب الفرنسي؟ لم نكن نعرف كيف نعبّر عن ذلك.

في الانتظار، استدار الشاعر نحو السين، ومد يده مشيراً إلى الضفة

المقابلة حيث هضبة الأنفاليد. ثم مس خطابه المقفى نقطة أليمة جداً من الماضي الروسي الفرنسي، حيث نابوليون وموسكو التي تحترق، وبيرزينا. . . وقد عضضنا شفاهنا، ونحن نصغي لصوته في ذلك المكان متعدد الأخطار. أصاب الوجوم وجه القيصر في حين خفضت ألكسندرا ناظريها. ألم يكن من الأليق أن يمر كل ذلك بصمت، وأن يتم التصرف كأن شيئاً لم يكن، وأن يذهب مباشرة من بيير الأكبر إلى الاتفاق الودي؟

بيد أن إيريدا بدا وكأنه يصعّد اللهجة حين قال:

وتحت السماء، في البعيد، حيث هذه الهضبة الفاتنة
تحفظ دوماً أبطال زمن بعيد
حيث الروس والفرنسيون في مباراة من دون كراهية
متطلعين إلى المستقبل، مازجين دماءهم.

لم ننفك، ذاهلين، عن طرح هذا السؤال (لماذا نكره الألمان إلى هذا الحد عند نتذكر الاعتداء التوتوني الذي حدث قبل سبعة قرون تحت حكم ألكسندر نيفسكي، تماماً مثل تذكرنا للحرب الأخيرة؟ ولِمَ لا نستطيع أن ننسى أبداً الاغتصاب البولوني والسويدي الذي يعود إلى ثلاثة قرون ونصف؟ كل هذا من دون الحديث عن التاتار. . . ولمَ لم تلطخ فاجعة سنة ١٨١٢ السمعة الفرنسية في رؤوس الروس؟ ربما يعود ذلك إلى هذه الزخرفة اللفظية في «مباراة من دون كراهية»؟)

غير أن عبارة «لاأعلم ماذا بالفرنسية» بدت كوجود المرأة. وكانت ألكسندرا هناك، جالبة إليها اهتماماً حذراً. ومع أنها كانت تحيى في

كل كلمة تلقى بطريقة أقل تفخيماً من زوجها، غير أنها كانت تتضمّن لطفاً أكثر. وحتى داخل أسوار الأكاديمية الفرنسية حيث رائحة الأثاث القديم والمجلدات الكبيرة المغبرة تكاد تصيبنا بالاختناق، فقد كانت عبارة «لاأعلم ماذا» تمكنها من البقاء امرأة. أجل، كانت كذلك حتى وسط هؤلاء المسنين الذين خمّنا أنهم عابسون، ومتحذلقون ومصابون ببعض الصمم نتيجة للزغَيبات النامية في آذانهم. فقد قام أحدهم، وهو المدير، معلناً بسحنة عابسة عن افتتاح الجلسة. ثم صمت كأنما ليستجمع أفكاره التي، مثلما أحسسنا، جعلت مستمعيه يشعرون سريعاً بصلابة مقاعدهم الخشبية. هز المدير الطاعن في السن رأسه، ثم أضاء عينيه وميض خبث قبل أن يقول:

ـ حضرة السير! سيدتي! منذ حوالي مئتي سنة وصل بيير الأكبر يوماً من دون موعد سابق إلى المكان حيث يجتمع أعضاء الأكاديمية، ثم انخرط في أعمالهم... وجلالتكم اليوم تضيفون شرفاً إلى شرف بعدم مجيئكم وحيدين. (وهنا، توجه بالحديث إلى الإمبراطورة مضيفاً). سيضيف حضوركن سيدتي إلى جلساتنا الجادة شيئاً غير معتاد... السحر.

تبادل نيقولا وألكسندرا نظرة خاطفة، وكأن المتحدث شعر بأن الوقت قد حان لذكر الأهم، وهكذا فقد بالغ في ارتعاشة صوته، وهو يتساءل بطريقة متصنعة جداً:

ـ هل تأذنون لي بالإدلاء بهذه الشهادة، وهي ليست موجهة فقط إلى الأكاديمية لكن إلى لغتنا الوطنية أيضاً... هي ليست لغة غريبة بالنسبة لكم حتى أن المرء ليشعر برغبة لا يعرف مداها للتحاور بحميمية مطلقة بالذوق والروح الفرنسيين...

«لغتنا!» التي ندركها من خلال الصفحات التي تقرأها جدتنا. تبادلنا أنا وأختي النظر، وقد أدهشتنا هذه العبارة: «... والتي هي ليست غريبة بالنسبة لكم...» كان هذا مفتاح الأطلنتيد! اللغة. تلك المادة الغريبة وغير المرئية والحاضرة دوماً والتي تصل بجوهرها المسموع إلى كل زاوية مخبأة في الكون الذي كنا بصدد اكتشافه. كانت تلك اللغة التي تشكل الإنسان وتنحت الأشياء تجري على شكل أبيات، وكانت تهذر في الطرقات التي اجتاحتها الأمواج البشرية جاعلة قيصرة شابة قادمة من أحد أطراف العالم تبتسم... لكنها على الخصوص تخفق مثل طعم أسطوري داخل قلبينا المملوءين بالأوراق والورود، حاملة في ذاتها فاكهة حضارة بأكملها. أجل، كان ذلك الطعم هو اللغة الفرنسية.

ومن خلال ذلك الغصن الناتئ في نفسينا دخلنا مساءً إلى المقصورة المعدّة لاستقبال الزوج الإمبراطوري في المسرح الفرنسي. تصفّحنا البرنامج فإذا به: *«نزوة»* لميسي، وبعض مشاهد *«سيد»*، والفصل الثالث من *«سيدات متحذلقات»*. ولم نكن قد قرأنا شيئاً من هذا من قبل. ومن خلال التغير الطفيف في نبرة شارلوت تمكنا أن من نخمّن أهمية هذه الأسماء بالنسبة لسكان الأطلنتيد.

رُفِع الستار. وكانت الجوقة كلها فوق الخشبة بمعاطف الاحتفال. تقدم عميدهم وتحدث عن بلد لم نتعرف عليه مباشرة:

بلد شاسع، شساعة العالم
حين يبدو الأفق البعيد بلانهاية
بلد بروح خصبة
كبير جداً في الماضي وأكبر في المستقبل

أصهب من السنابل الصهباء، وأبيض من الثلج الأبيض.
أبناؤه قادة أو جنود يمشون واثقي الخطو
ما دام القدر الرحيم يحفظه.
بحصاده من الذهب على أرض عذراء وخالصة.

ولأول مرة في حياتي شرعت أنظر إلى بلدي من الخارج، من البعيد، وكأني لا أنتمي إليه أبداً. ولما كنت قد انتقلت إلى عاصمة أوروبية كبيرة، فقد كنت أستدير لأتأمل شساعة حقول القمح والسهول المكسوّة بالثلوج تحت ضوء القمر. رأيت روسيا بنظرة فرنسية! كنت في الهنالك، خارج حياتي الروسية. و كان ذلك التمزق حاداً جداً، وفي الوقت عينه محمّساً جداً حد أنه توجّب علي إغماض عينيّ. كنت أخشى ألا أتمكن من أن أعود إليّ مجدداً، وأن أظل في ذلك المساء الباريسي. وكنت أتنفس بعمق مُطْبقاً جفوني. وكانت ريح السهوب الليلية الساخنة تتردد بين جوانحي مجدداً.

قررت في ذلك اليوم أن أسرق سحرها. أردت أن أتجاوز شارلوت وأدخل المدينة المحتفلة قبلها، وألتحق بحاشية القيصر من دون أن أنتظر هالة الأباجاور الفيروزية المنوّمة.

كان النهار أخرس وكئيباً. كان نهاراً صيفياً من دون لون وحزين. يوم من تلك الأيام التي ترسخ في الذاكرة بشكل يبعث على الدهشة. وكان الهواء العبق برائحة الأرض المبللة ينفخ في الستائر البيضاء على النافذة المفتوحة. تحركت الستارة ثم زاد حجمها قبل أن تسقط تاركة شخصاً يدخل الغرفة.

ولما كنت سعيداً بوحدتي فقد وضعت خطتي موضع التنفيذ. سحبت الحقيبة السيبيرية على السجادة جوار السرير. كانت أقفالها

تصدر صوتاً مع القرقعة الخفيفة التي كنا نسمعها كل ليلة. نزعت الغطاء الكبير ثم انحنيت على تلك الأوراق القديمة مثل قرصان وقع على كنز داخل صندوق...

تعرفت في طبقتها العليا على بعض الصور. رأيت القيصر والقيصرة أمام مقبرة العظماء، ثم على ضفاف السين. كلا، فما كنت أبحث عنه كان في العمق البعيد وسط تلك الكتلة المتلاحمة التي سوّدتها أحرف الطابعة. وكعالم آثار جعلت أزيل طبقة طبقة حيث ظهر نيقولا وألكسندرا في أماكن لم أكن أعرفها. ثم غابا عن ناظري في طبقة أخرى. وهكذا أبصرت بارجة طويلة فوق سطح بحر راكد، وطائرات بأجنحة قصيرة مثيرة للسخرية، وجنود داخل الخنادق. وفي محاولة مني لإيجاد آثار الزوج الإمبراطوري شرعت في الحفر من دون انتظام مخلّطاً تلك الصفحات المقصوصة. وهكذا ظهر القيصر للحظة على صهوة جواد ممسكاً بيده أيقونة أمام صف من جنود المشاة الجاثين على ركبهم... بدا لي وجهه وقد شاخ واعتراه الكدر. أردته شاباً من جديد، برفقة الجميلة ألكسندرا تحييه الجموع وتمجّده الأناشيد الحماسية.

ألفيت في النهاية آثارهما في قعر الحقيبة. كان العنوان بأحرف بارزة لا يمكن أن يخدع: «**المجد لروسيا!**» فتحت الصفحة المطوية على ركبتي تماماً كما كانت تفعل شارلوت، وبصوت نصف هامس شرعت في تهجئة الأبيات:

آه! كم هو سعيد هذا الخبر يا إلهي
أي سعادة تهز قلوبنا
أن نرى المدينة تغرق
حيث كان العبيد يئنّون ألماً!

أن نرى شعباً يرفع رأسه
والحق يحمل المشعل!
أيا صديق، أليس يوماً عظيماً للاحتفال،
إرفع الأعلام فوق قصورنا!

جعلني وصولي إلى هذا البيت أتوقف، وقد أخذ الشك يجلدني. «المجد لروسيا؟» لكن أين هو ذلك البلد ذو السنابل الأصهب من الصهباء، والثلج الأبيض من البياض؟ أين مضى ذلك البلد ذو الروح الخصبة؟ وما الذي يفعله هنا هذا العبد الذي يئنّ ألماً؟ ومن هو ذلك الطاغية الذي يُحتفى بسقوطه؟

ولما كنت مشوّشاً أخذت أنشد هذا المقطع:

تحية، تحية إليكم
يا شعب وجنود روسيا!
تحية، تحية إليكم
لأنكم تنقذون وطنكم!
تحية ومجداً وشرفاً
إلى الدوما التي تحكم
والتي ستقوم غداً من أجل سعادتكم
بتكسير أغلالكم إلى الأبد.

قفزت عيني فجأة إلى العناوين الكبرى التي مالت على الأبيات حيث: **تنحّي نيقولا الثاني. الثورة. ٨٩ الروسي. روسيا تكتشف الحرية. كيرينسكي ـ دانتون روسيا. السيطرة على سجن بيليروبول. تلك القلعة الروسية. نهاية الحكم الاستبدادي.**

كان أغلب هذه الكلمات لا يعني لي شيئاً، غير أني أدركت الأهم. ذلك أن نيقولا لم يعد قيصراً. وتسبب خبر سقوطه في موجة فرح غامرة من قبل أولئك الذين وقفوا بالأمس فقط يحيّونه متمنّين له حكماً طويلاً وزاهراً. والحقيقة أني أذكر جيداً صوت إيريدا الذي ما زال صداه يتردد في شرفتنا:

أجل أوثق والدك برباط أخوي
فرنسا وروسيا بنفس التطلعات
أيها القيصر أنصت اليوم إلى روسيا وفرنسا
تبارك الاسم الأبوي المقدس واسمك.

بدا لي انقلاب مماثل غير معقول. لم أستطع تصوّر خيانة بمثل تلك الوضاعة، خاصة أنها صدرت عن رئيس الجمهورية!

صُفق باب المنزل، فجمعت كل الأوراق على عجل، ثم أقفلت الحقيبة ودفعتها تحت السرير.

في المساء أضاءت شارلوت مصباحها في الداخل بسبب الأمطار. جلسنا جوارها محاكين سهراتنا في الشرفة. أصغيت إلى وصفها نيقولا وألكسندرا وهما يصفقان في مقصورتهما *لسيد*... تأملت وجهيهما بحزن كاشف للبصيرة. فقد كنت ذلك الشخص الذي اطّلع على المستقبل. وكم أثقلت معرفتي هذه على قلب الطفل الذي كنته.

«أين هي الحقيقة؟» كذاك سألت نفسي وأنا أتتبع الحكاية بشرود حيث (قام العاهلان، واستدار الجمهور لتحيتهما). «هؤلاء المتفرجون سيلعنونهما في القريب. ولن يتبقّى شيء من هذه الأيام القليلة الساحرة! لا شيء...»

بدت لي فجأة تلك النهاية التي حُكم عليّ بمعرفتها مسبقاً سخيفة جداً، وظالمة جداً، خاصة في الاحتفال وسط المسرح الفرنسي. انفجرت منتحباً ودفعت مقعدي الصغير، ثم فررت إلى المطبخ. لم أبكِ أبداً بمثل تلك العفوية. وبعصبيّة دفعتُ يديْ أختي التي حاولت مواساتي (لِمْتُها جداً وهي التي لم تكن تعرف شيئاً بعد!) ومن خلال دموعي اليائسة كنت أصدر صرخات يائسة:

ـ كل شيء زائف! خونة! خونة! هذا الكاذب ذو الشارب... أي رئيس هذا؟ أكاذيب...

لم أعرف إن كانت شارلوت قد خمّنت سبب ضيقي (كانت قد لاحظت من دون شك الفوضى التي أحدثها تفتيشي في الحقيبة السيبيرية حدَّ أنها وقعت ربما على الصفحة المُنبئة). ولما كنت متأثراً دوماً بنوبة البكاء غير المتوقعة تلك جاءت وجلست على سريري، ثم أخذت تنصت لزفراتي المتقطعة قبل أن تقع في الظلمة الحالكة على راحة يدي وتضع حجراً خشناً صغيراً. أحكمت قبضتي عليه. ومن دون أن أفتح عيني، وباللمس فقط، تعرّفت على حجر «فردان». صار ملكي منذ تلك اللحظة.

[٤]

عند نهاية العطلة تركنا جدتنا. وهكذا اختفت الأطلنتيد خلف ضباب الخريف وعواصف الثلوج الأولى، أي خلف حياتنا الروسية.

ذلك أن المدينة التي عدنا إليها لم تكن تشبه في شيء سارنزا الهادئة. كانت تلك المدينة التي تجسّد قوة الإمبراطورية تمتد على ضفّتي الفولكا، بسكانها الذين يبلغون مليوناً ونصف المليون، وبمصانعها للأسلحة، وشوارعها الواسعة حيث العمارات الكبيرة ذات النمط الستاليني. كانت للمدينة محطة كهرمائية ضخمة على سافلة النهر، ومترو في مرحلة التنفيذ، وميناء نهري تدعم في نظر الجميع صورة مواطننا ـ المنتصر على قوى الطبيعة، والذي يحيا باسم مستقبل مشرق من دون أن يشغل باله مطلقاً، في خضمّ جهوده الدؤوبة، بآثار الماضي السخيفة. ثم إن مدينتنا كانت محرّمة على الغرباء بسبب مصانعها. . . أجل، كانت مدينة يشعر فيها المرء جيداً بنبض الإمبراطورية.

ما إن عدنا حتى أخذ النسق يضبط حركاتنا وأفكارنا، وامتزجنا بأنفاس وطننا الثلجية.

وما كان الطعم الفرنسي ليمنعنا، أنا وأختي، أن نعيش حياة مماثلة لتلك التي يعيشها رفاقنا. ذلك أن اللغة الروسية أضحت لغة التداول بيننا. وأخذت المدرسة تشكّلنا على قالب السوفياتيين الشباب

النموذجين. وجعلتنا الألعاب العسكرية الموازية نعتاد على رائحة البارود وانفجارات القنابل اليدوية في التمارين، على خلفية فكرة ذلك العدوّ الغربي الذي لا بدّ من محاربته ذات يوم.

بدت لنا تلك الليالي في شرفة جدتنا وكأنها حلم أطفال فقط. وعندما كان أستاذنا في حصص التاريخ يحدثنا عن «نيقولا الثاني الملقب بنيقولا الدموي» لم نكن نربط بين ذلك الجلاّد الخُرافي وبين العاهل الشاب الذي كان يصفّق *لسيد*. كلا، كانا رجلين لايعرف أحدهما الآخر.

غير أنه في يوم من الأيام حدث ذلك التقارب في عقلي، وبمحض الصدفة. فمن دون أن أُسأل شرعت في الحديث عن نيقولا وألكسندرا وعن رحلتهما إلى باريس. كان تدخلي غير متوقع. وكانت تفاصيل السيرة عفوية جداً حدًّ أنّ الأستاذ بدا مضطرباً وعمّت الفصل موجة استهزاء ذاهلة، إذ إن التلاميذ لم يعرفوا إن كان عليهم أخذ حديثي كفعل استفزازي أو مجرد هذيان، إلا أن الأستاذ عاد للتحكم في الموقف وهو يقول مشدداً على كلماته:

ـ كان القيصر المسؤول عن التزاحم الفظيع في حقل خودينكا والنتيجة أن آلاف الناس دُهِسوا. وكان هو من أمر بإطلاق النار على التظاهرة السلمية في التاسع من شهر كانون الثاني/يناير سنة ١٩٠٥ وكانت النتيجة سقوط مئات الضحايا. واعترف نظامه باقتراف مذابح نهر لينا والنتيجة مئة قتيل وقتيلين! إضافة إلى ذلك كان المراد من اتخاذ لينين العظيم لقبه هذا، أي لينين، التنديد بجرائم القيصرية!

غير أن ما فاجأني أكثر لم يكن النبرة الملتهبة لذلك النقد اللاذع، بل سؤال طارئ تشكل في ذهني أثناء الاستراحة، وبينما كان التلاميذ

الآخرون يحاصرونني: («انظروا! إن لهذا القيصر تاجاً!» كذاك صرخ أحدهم وهو يشدّ شعر رأسي). كان السؤال في الظاهر بسيطاً جداً: «أجل، نعلم أنه كان طاغية دموياً، وهذا مدوّن في مقرّرنا، ولكن ماذا نفعل إذن بذلك الهواء الرطب المفعم برائحة البحر الذي كان يهبّ على نهر السين، وبموسيقية تلك الأبيات التي حملها الهواء، وبصرير المِسجّة الذهبية على الغرانيت؟ ماذا نصنع بذلك اليوم البعيد؟ ذلك أني استشعر جوّه بشدة!»

كلا، لم يكن الأمر يتعلق برد الاعتبار لنيقولا الثاني، ذلك أني كنت أثق بمقرري وبأستاذنا. لكن ما العمل بذلك اليوم البعيد وذلك الجو المشمس. تهت في هذه الأفكار التي لا نهاية لها حيث أنصاف الأفكار وأنصاف الصور. عندما كنت أدفع رفاقي الذين أمسكوا بي صارخين هازئين، كنت أشعر فجأة بغيرة فظيعة اتجاههم: «كم هو جميل ألا تحمل بين جوانحك ذلك اليوم العاصف، وذلك الماضي الكثيف جداً الذي يبدو من دون جدوى. أجل، ألا تكون لك إلا رؤية واحدة للحياة. أن لا ترى مثل ما أرى...»

بدت لي الفكرة الأخيرة مستهجنة جداً حدَّ أني لم أعد أردّ على هجمات المتهكمين، وذلك بأن أستدير إلى النافذة التي تمتد خلفها المدينة الغارقة في الثلوج. بدأت أنظر إلى الأمر في تلك اللحظة بطريقة مختلفة! هل هو شيء إيجابي أم إنه عائق ونقيصة؟ لم أكن أعلم شيئاً. ظننت أن باستطاعتي تفسير هذه الرؤية المزدوجة بلغتيّ... والواقع أني حين كنت أتحدث باللغة الروسية كان طاغية قاس يتمثل أمامي، بينما كلمة «قيصر» باللغة الفرنسية كانت مفعمة بالأنوار والأصوات والريح وأضواء الثريا، وانعكاس الأكتاف النسائية

العارية، وبعطور ممزوجة وبجوّ الأطلنتيد الذي لا مثيل له. فهمت أنه يتعيّن إخفاء تلك النظرة الثابتة إلى الأشياء إذ لا يمكنها أن تجلب إلا سخرية الآخرين.

وظهر مرة أخرى هذا المعنى الخفيّ للكلمات في موقف تراجيدي كوميدي تماماً مثل ما حدث في درسنا في التاريخ.

فقد كنت أقف في طابور طويل جداً عند مدخل متجر البقالة. وكان الأمر يتعلق بسلعة نادرة لفصل الشتاء: الليمون أو التفاح بكل بساطة، لست أذكر جيداً. عبرت العتبة إلى الداخل، وكنت قد تجاوزت الحد السيكولوجي الأهم في انتظاري. وكان المتجر من تلك الأماكن حيث يقف العشرات من الناس متخبطين في الثلج المتراكم. في تلك اللحظة بالذات، التحقت بي أختي، ذلك أنه كان من حقنا معاً الحصول على حصة مضاعفة من السلعة الموزعة.

لم نفهم ما الذي أثار الناس فجأة. ذلك أن الناس الذين كانوا يقفون خلفي اعتقدوا أن أختي أرادت التسلل من دون الوقوف في الطابور، وهو جرم لا يغتفر! انفجرت صيحات فظة. واهتز الطابور. وأحاطت بنا وجوه مهددة. حاولنا أن نشرح أننا أخ وأخت غير أن الناس لم يعترفوا أبداً بخطئهم، في حين ظل الذين لم يتجاوزوا العتبة ساخطين جداً، مطلقين صياحاً ناقماً من دون أن يعرفوا ضد من. وكأي حركة جماعية تبالغ بشكل سخيف في مدى قوتها فقد ألفيت نفسي مطروداً. اهتزت الأفعى وتصلّبت الأكتاف. وبهزة وجدتني خارج الطابور إلى جوار أختي، مباشرة أمام السلسلة المشدودة لتلك الوجوه الحاقدة. حاولت استرجاع مكاني غير أن الأكتاف شكلت صفاً من الدروع. تائهاً وبشفتين مرتعبتين، نظرت إلى أختي. ومن

دون إرادتي، أدركنا أننا كنا ضعيفين جداً. كانت تكبرني بسنتين، وكانت تقارب الخامسة عشرة من العمر. وبالتالي لم يكن لها أي مقوّم من مقوّمات الشابة، كما أنها فقدت ميزات الطفولة التي كان من شأنها أن تلطّف مشاعر تلك الجموع الصلبة. كذاك كان حالي بسني عمري الاثنتي عشرة، حيث لم أكن أستطيع أن أفرض نفسي مثل أولئك الفتيان من ذوي الأربع عشرة سنة أو الخمس عشرة سنة الأقوياء، المُتّسمين بعنف المراهقين غير المسؤول.

انزلقنا على طول طابور الانتظار آملين أن نقبل على الأقل على بعد أمتار من المكان المفقود، غير أن الأجساد كانت تلتحم عند مرورنا. وسرعان ما ألفينا نفسينا في الخارج، في الثلج الذائب، وعلى الرغم من صياح بائعة قائلة: «على الناس المتواجدين بعد الباب ألا ينتظروا، فليس هناك ما يكفي للجميع!» إلا أن الناس ظلوا يتوافدون.

بقينا في آخر الطابور، منومَّين بقوة الحشد المجهولة. كنت خائفاً من أن أرفع عيني، ومن أن أتحرك. وكانت يداي ترتعدان في جيبي. كنت كمن أتى لتوّه من كوكب آخر حين سمعت فجأة صوت أختي. حمل صوتها كلمات صُبِغت بسوداوية باسمة:

ـ هل تذكر *طيور بارتافيل وأورتلون المحمّرة والمحشوّة*.

وضحكت بلطف.

أما أنا فحين نظرت إلى وجهها الشاحب بعينيها اللتين تعكسان سماء شتوية، أحسست برئتيّ تمتلئان بهواء جديد ـ هواء شربورغ ـ وبرائحة الضباب المملح، وبالحصى الرطبة على الشاطئ، وأصوات النوارس في أفق المحيط البعيد. بقيت للحظة لا أرى شيئاً كالأعمى تماماً. كان طابور الانتظار يتقدم ويدفعني ببطء نحو الباب. أذعنت

للأمر من دون أن أتخلى عن لحظة النور تلك التي تمددت بداخلي.

طيور بارتاڤيل وأورتلون... وابتسمت غامزاً لأختي بطرفي. كلا، لم نكن نشعر بأننا أرقى من الناس الذين كانوا يتزاحمون في الطابور. كنا مثلهم، حتى أننا لربما كنا نعيش في مستوى أقل من الكثير منهم. كنا ننتمي جميعاً إلى الطبقة عينها، طبقة الناس الذين يتخبطون في ثلج مداس وسط مدينة صناعية كبيرة، أمام أبواب متجر آملين أن يملأوا أكياسهم بكيلوغرامين من الليمون.

ومع ذلك، ما إن سمعت الكلمات السحرية المأخوذة من وليمة شربورغ حتى أحسستني مختلفاً عنهم. كلا، ليس من أجل معرفتي، (لأني لم أكن أعرف في تلك الفترة شكل *طيور بارتاڤيل وأورتلون* العجيب). لكن بكل بساطة لأن اللحظة التي وِلِدت في داخلي بأنوارها الضبابية، وبروائحها البحرية جعلت كل ما يحيط بنا نسبياً: تلك المدينة وقوتها الستالينية جداً، وذلك الانتظار العصبي وعنف الجموع البليد. وعوضاً عن الغضب من أولئك الناس الذين دفعوني أحسست الآن تعاطفاً مفاجئاً نحوهم. ذلك أنه لم يكن باستطاعتهم عندما يطبقون جفونهم قليلاً أن يقتحموا ذلك اليوم المليء بروائح الطحالب الندية، وأصوات النوارس وحيث الشمس المحجوبة... اجتاحتني رغبة عارمة في أن أقولها للجميع. لكن كيف أقولها؟ كان عليّ اختراع لغة لم يسمعها أحد من قبل، لا أعرف منها حتى تلك اللحظة إلا أول لفظتين وهما: *طيور بارتاڤيل وأورتلون*.

[٥]

بعد وفاة جدي البعيد نوربير أخذ المدى الأبيض اللامحدود يضيق شيئاً فشيئاً على ألبرتين. لا شك في أنها عادت مرتين أو ثلاثاً إلى باريس صاحبة معها شارلوت، غير أن كوكب الثلوج لم يترك أبداً تلك الأرواح المفتونة بمساحاتها الخالية من الشواخص وبوقتها الناعس.

من جهة أخرى، تميّزت الإقامة في باريس بمرارة لم تنجح حكايات جدتي في إخفائها. هل كان ذلك نتيجة لبعض الانشقاقات العائلية التي لم ندرك أسبابها، أم لعلها بسبب برودة أوروبية شديدة في العلاقات بين الأقارب، وهو الشيء الذي لا نقبله نحن الروس نتيجة لتعاوننا الزائد عن الحد؟ أو لعل الأمر يعود بكل بساطة إلى تفهم البسطاء لواحدة من الأخوات الأربع، مغامرة العائلة التي بدل أن تحمل حلماً ذهبياً جميلاً تحمل معها في كل مرة الخوف من بلد متوحش ومن حياتها المنكسرة.

على كل، فكون ألبرتين فضلت العيش في شقة أخيها وليس في بيت العائلة في نويي لم يمر مروراً غير ملاحظ حتى من قبلنا.

وكانت سيبيريا تبدو لها في كل عودة إلى روسيا قدرية وحتمية ومتطابقة مع قدرها. ولم يكن قبر نوربير وحده هو ما يجعلها متعلقة بأرض الجليد تلك، ولكن أيضاً ذلك المعيش الروسي الحالك الذي تشعره به كسُمٍّ مثمل يسري في عروقها.

تحوّلت ألبرتين من زوجة طبيب محترم ومعروف في المدينة كلها إلى أرملة. والأغرب من ذلك أنها فرنسية يبدو أنها لا تستطيع تقرير أمر عودتها إلى ديارها. والأسوأ أنها تعود إلى روسيا كل مرة.

كانت لا تزال شابة جميلة جداً بحيث لا يمكنها أن تتفادى اغتيابها من قِبل غالبية سكان بوايارسك. كانت أغرب من أن تفرض على الآخرين أن يقبلوا بها كما هي. وسرعان ما أضحت فقيرة جداً.

لاحظت شارلوت أنهما تستقران بعد كل رحلة إلى باريس في شقة أصغر. وفي المدرسة التي قبلتها بفضل أحد مرضى والدها القدامى سرعان ما أضحت «تلك اللومونيي». في أحد الأيام جعلتها «سيدة الفصل»، وكان هذا لقب الأستاذة الرئيسية قبل الثورة، تقوم إلى السبورة ـ ولكن ليس من أجل سؤالها... وعندما وقفت شارلوت أمامها لاحظت السيدة قدمي الفتاة لتسأل راسمة على شفتيها ابتسامة مزدرية:

ـ ماذا لديك في قدميك آنسة لومونيي؟

وفي الحين قام التلاميذ الثلاثون من مقاعدهم ومدوا أعناقهم وسرّحوا أعينهم على الأرضية الخشبية الملمعة بشكل جيد، فرأوا علبتين من الصوف. كانا زوج حذاء صنعتهما بنفسها. ولما كانت مسحوقة بفعل كل تلك النظرات، فقد خفضت رأسها، وبطريقة لا إرادية قلّصت أصابع قدميها داخل حذائيها، كما لو أنها أرادت أن تجعل قدميها تختفيان...

آنذاك كانتا تعيشان في إحدى الإسبات القديمة في محيط المدينة. ولم تعد شارلوت تفاجأ لرؤية أمها ممددة بشكل دائم تقريباً، واهنة القوى على سرير قروي عال يوجد خلف ستار. وعندما كانت تقوم

ألبرتين، كانت تتجمع في عينيها، إن كانتا مفتوحتين، ظلال للأحلام السوداء. حتى إنها لم تكن تحاول أن تبتسم لابنتها. وتغترف بمغرفة نحاسية الماء من سطل. وتشرب ببطء قبل أن تنصرف. وكانت شارلوت تعلم مسبقاً بأنهما تعيشان منذ مدة طويلة بفضل لمعان بعض المجوهرات داخل الصندوق ذي الترسبات الصدفية...

كانت تعجبها تلك الإسبة مع أنها أبعد ما تكون عن أنها أجمل أحياء بوايارسك. وكان بؤسهما قلّما يُرى في تلك الأزقة الضيّقة المُتعرّجة الغارقة في الثلج. ثم كان الأمر جميلاً عند عودتها من المدرسة حين تصعد درجات المدخل الخشبية القديمة التي تصدر صريراً مع كل خطوة، وحين تعبر مدخلاً معتماً حيث الجدران المغطاة بقشرة سميكة من الملاح[1]، وحين تدفع الباب الثقيل الذي يستسلم بعد أن يصدر أنيناً خاطفاً بحيوية مطلقة. وهناك داخل الحجرة كان بإمكانها البقاء من دون إشعال المصباح وذلك برؤية النافذة الصغيرة المنحدرة المشبعة بضوء الغسق البنفسجي، مصيخة السمع لضربات الثلج المتواترة على الزجاج، وحين تستند إلى الركن الساخن الواسع المخصص للموقد الكبير. وهكذا تشعر شارلوت بالحرارة تتسلل ببطء من تحت معطفها. ثم حين تضع يديها المرتعدتين على الحجرة الفاترة. وكان الموقد يبدو لها القلب الكبير لتلك الإسبة العتيقة. و كانت الثليجات الأخيرة تذوب تحت نعلي حذائها العالي المصنوع من الجلد.

تكسرت في يوم من الأيام قطعة ثلج تحت قدميها محدثة صوتاً غير مألوف. تفاجأت شارلوت، ذلك أنها كانت قد دخلت قبل نصف

---

(١) الملاح: طبقة خفيفة من الجليد تتكون بتجمد الضباب: المترجم.

ساعة، وبالتالي فقد ذاب كل الثلج الذي كان على معطفها وجفّت الشابكا. لكن تلك الثليجة... انحنت لتجمعها. كانت شظية زجاج في غاية الدقة كانت لقارورة دواء مكسورة...

وهكذا دخلت كلمة مورفين المرعبة حياتها. وفسّرت الصمت خلف الستارة والظلال المجتمعة بعيني أمها. آه من سيبيريا السخيفة تلك والحتمية كالقدر.

ولم يعد لألبرتين ما تخفيه عن ابنتها. وهكذا أضحت شارلوت من تُرى تدخل الصيدلية لتهمس بخجل «من أجل دواء السيدة لومونيي...»

كانت تعود وحيدة دوماً، عابرة أراضيَ بوراً واسعة تفصل ضيعتهم عن آخر شوارع المدينة بمتاجرها وأضوائها. وغالباً ما كانت تضرب عاصفة ثلج تلك المساحات المقفرة. وفي أحد الأماسي تعبت شارلوت من الصراع ضد الريح المحمّلة بندف الثلج وأصمّها صفُيرها، فتوقفت وسط خلاء ثلجي، وظهرها إلى الريح التي تهب بقوة، ونظراتها تائهة في التحليق المدّوخ لندف الثلج. أحست بقوة حياتها، وحرارة جسدها الهزيل المركّز في أنا صغيرة جداً. وشعرت بدغدغة قطرة ماء انزلقت من أذينة شابكتها، وخفقان قلبها. وقرب قلبها تحسست الحضور الهش لتلك القارورات التي اشترتها لتوّها. دوّى داخلها صوت مخنوق قائلاً: «إنها أنا، أنا التي هنا، في زوابع الثلج في أقصى العالم. في سيبيريا هذه. أنا، شارلوت لومونيي التي لا تجمعني قواسم مشتركة مع هذا المكان الموحش أو مع هذه السماء أو مع هذه الأرض المجمدة أو مع هؤلاء الناس. أنا هنا وحيدة وأحمل المورفين لأمي...». خالت أن روحها ترنّحت قبل

أن تسقط في هاوية حيث سيتحول كل ذلك المستحيل المكتشف فجأة إلى شيء طبيعي. رجت نفسها قائلة: كلا، على هذا الخلاء السيبيري أن ينتهي في مكان ما، وقد كانت هنا مدينة بشوارع واسعة محفوفة بأشجار الكستناء والمقاهي المتلألئة وشقة خالها وكل كتبه التي تفتح على كلمات غالية جداً لمظهر حروفها فقط. كانت فرنسا هنا...

تحوّلت المدينة ذات الشوارع المحفوفة بأشجار الكستناء إلى قطعة ذهبية دقيقة تتألق في ناظريها من دون أن ينتبه أحد للأمر، حتى إن شارلوت تبيّنت جيداً ألقها في انعكاس ذلك المشبك لآنسة شابة ذات ابتسامة متقلبة ومتعجرفة. كانت تجلس على كنبة جميلة وسط حجرة ذات أثاث أنيق وستائر حريرية على النوافذ.

رأي الأقوى هو أفضلُ دائماً. كذاك أنشدت الشابة بصوت منقور.

صححت شارلوت برصانة:

ـ هو الأفضل دائماً.

وأخفضت ناظريها لتضيف:

ـ وسيكون أصوب لو نطقت «أفضل»، وليس «أفدل»، هكذا «أ ف ض ل».

كوّرت شفتيها، وضغطت على صوت الضاد لتتبعه بلام مخملية. وأخذت الشابة المنشدة تستظهر بسحنة مقطبة:

ـ أظهرنا لك ذلك منذ قليل...

كانت ابنة حاكم بوايارسك. وكانت شارلوت تعطيها دروساً في اللغة الفرنسية كل يوم أربعاء. وكانت قد أملت في البداية أن تصير صديقة لهذه المراهقة المعتنى بها جيداً، والتي لا تكاد تكبرها سناً.

غير أنها لم تعد تأمل شيئاً في تلك اللحظة، بل إنها أخذت تركّز بكل بساطة على إعطاء درس جيد. وما عادت تتأذى بنظرات الزراية الخاطفة المصوّبة نحوها من قِبل تلميذتها. كانت شارلوت تنصت لها وتتدخل بين الفينة والأخرى، غير أن نظرها يغوص في لمعان مشبك الكهرمان الجميل ذاك. وكانت ابنة الحاكم وحدها من يُسمح لها بوضع فستان منحسر الطوق وبتلك الزينة في الوسط. وكانت شارلوت تقوّم بضمير كل أخطاء التهجئة والنحو. ومن عمق الكهرمان المذهب ظهرت مدينة بأوراق الخريف الجميلة. وكانت تدرك أن عليها أن تتحمل لساعة كاملة تكشيرات وجه تلك الطفلة الكبيرة والبدينة، والتي ترتدي ملابس رائعة. وكان عليها أن تتسلم في ركن المطبخ كيساً به بقايا وجبة من إحدى الخادمات. ثم عليها أن تنتظر في الشارع فرصة مناسبة لتصبح وحيدة مع الصيدلية ولتهمس لها: «دواء السيدة لومونيي، رجاءً». . . وسرعان ما ستُطرد من معطفها نفحةُ الهواء الحارة المسروقة داخل الصيدلية من قِبل لفحة برد قارس تهب من الأراضي البور.

عندما ظهرت ألبرتين على درج المدخل رفع السائس حاجبيه وقام من مقعده. لم يكن يتوقع ذلك أبداً؛ في تلك الإسبة ذات السقف الواهن المكسو بالزبد، ودرج المدخل النخر ذاك، الذي اجتاحه نبات القُرّاص، وعلى الخصوص تلك الضيعة ذات الأزقة المدفونة تحت الرمل الرمادي. . .

فُتح الباب، لتظهر امرأة في إطاره المشوّه. كانت ترتدي فستاناً طويلاً مُفصّلاً بأناقة بالغة، فستاناً لم يرَ السائس مثله إلا على النساء الجميلات عند خروجهن من المسرح ليلاً في مركز بوايارسك. وكان

شعر رأسها قد جمع على شكل كعيكة. تتوّجه قبعة واسعة. وكانت الريح الربيعية تموّج الشال الملقى على الثوب المثنية بأناقة.

ـ سنذهب إلى المحطة!

كذاك خاطبت السائس، ليزداد تفاجؤاً بارتعاشة صوتها، وبغرابته الشديدة.

ـ . . . إلى المحطة.

رددت الفتاة التي نادته قبل قليل من الشارع. وكانت تتحدث الروسية بشكل جيد مع بعض اللكنة السيبيرية. . .

وكانت شارلوت تعلم بأن ظهور ألبرتين عند درج المدخل أعقب مسلسلاً طويلاً وأليماً من الصراع، تتخلّله انتكاسات عديدة، مثل صراع هذا الرجل الذي يتخبّط وسط الثلوج في فجوة سوداء، والذي كانت شارلوت قد رأته في يوم من الأيام عندما كانت تعبر الجسر. كان ممسكاً بغصن طويل دُفِع نحوه، ويزحف على مُنزلق الوادي المنحدر متمدّداً على بطنه فوق تلك الأرض المتجمدة، متقدماً ببطء شديد، ماداً يده التي أضحت حمراء عند ملامستها لأيادي المنقذين. وفجأة، ومن دون معرفة السبب، ترنح جسده وانزلق مجدداً ليضحى وسط الماء الأسود. سحبه التيار إلى البعيد قليلاً. وكان عليه أن يعيد كل شيء من البداية. . . أجل، كانت مثل ذلك الرجل.

ولكن بعد ظهر ذلك اليوم الصيفي المليء بالضوء والاخضرار كانت الرقة وحدها هي إليّ توجّه حركاتها.

صرخت شارلوت عندما جلستا على المقعدين قائلة:

ـ والحقيبة الكبيرة؟

ـ سنتركها، فليس بها سوى أوراق قديمة، وصحف خالك تلك. . . سنعود يوماً لاستعادتها.

عبرتا الجسر، ومرّتا جوار منزل الحاكم. بدت تلك المدينة السيبيرية وكأنها تتمدّد في ماضٍ غريب حيث من السهل على المرء أن يصفح مبتسماً.

أجل، كانت هذه النظرة الخالية من الضغينة هي التي ألقتاها على بوايارسك عند استقرارهما بباريس. وعندما أرادت ألبرتين العودة إلى روسيا في فصل الصيف (من أجل إنهاء المرحلة السيبيرية من حياتها نهائياً، كما كان يظن أقاربها)، بدت شارلوت وكأنها تغار قليلاً من والدتها. ذلك أنها كانت تتمنى أن تقيم هي أيضاً أسبوعاً أو أسبوعين في تلك المدينة التي باتت منذ تلك اللحظة مأهولة بشخصيات منتمية إلى الماضي، وغدت منازلها وإسباتها، من بين أشياء أخرى، أوابد آتية من زمن مضى مدينة لم يعد بوسع أي شيء فيها أن يجرحها.

ـ لا تنسي يا أمي أن تنظري ما إذا كان لا يزال هناك قُرب المدفأة جحر فئران.

قالت لوالدتها التي كانت تقف قرب نافذة المقصورة المنخفضة.

حدث ذلك في شهر تموز من سنة ١٩١٤. وكانت شارلوت حينها تبلغ من العمر إحدى عشرة سنة.

ولم تعرف حياتها توقفاً يذكر. سوى أن تلك الكلمات الأخيرة: (لا تنسي الفئران!)، كانت تبدو مع مرور الوقت أكثر غباء وأكثر طفولية. كان عليها أن تصمت، وأن تتأمل جيداً ذلك الوجه في نافذة المقطورة، وأن تملأ عينيها بملامحه. مرت الشهور والسنوات غير أنه ظل للرد الأخير الصدى نفسه لسعادة تولد. وأضحى الانتظار هو الوقت الوحيد لحياة شارلوت.

كان ذلك الزمن («زمن الحرب»، كما كتبت الجرائد) يشبه فترة ما بعد ظهر يوم رمادي، كانت تبدو كيوم أحد في الشوارع المهجورة لمدينة ريفية: هبة ريح مفاجئة انطلقت من زاوية منزل حاملة زوبعة من الغبار، وخفق مصراع نافذة بصمت، ويتخلّل الرجل بسهولة في ذلك الهواء الذي كان بلا لون، ويختفي من دون سبب.

كذاك اختفى خال شارلوت ـ «سقط في ساحة الشرف»ـ أو«مات من أجل فرنسا»، بحسب صيغة الجرائد. وهذه الصيغة الفعلية جعلت غيابه أكثر مدعاة للحيرة. مثل تلك المبراة على الطاولة التي كان يعمل بها، مع قلم حشر رأسه داخل فتحتها وبعض البراية الدقيقة التي لم تُحَرك منذ مغادرته. هكذا أخذ يفرغ شيئاً فشيئاً بيت نويي. كان هناك نساء ورجال ينحنون ليقبلوا شارلوت قائلين لها بنبرة جادة إن عليها أن تتصرف بشكل جيد.

كان لذلك الزمن الغريب نزواته. فجأة، ومع وتيرة ظهور الأفلام السريعة، إحدى عماتها ارتدت ملابس بيضاء وأحاطت نفسها بالأقارب الذين يتجمعون حولها بنفس سرعة سينما ذلك العهد، ليقصدوا بخطوات نشيطة ومهتزة الكنيسة، حيث تجد نفسها إلى جوار رجل ذي شارب وشعر رأس أملس مُزَيَّت. وعلى الفور تقريباً ـ في ذاكرة شارلوت لم يكن لديهم الوقت لمغادرة الكنيسة ـ تغطّت العروس الشابة بالأسود هذه المرة وما عاد بوسعها أن ترفع عينيها المغرورقتين بالدموع. ولكون التحول تم بسرعة يمكن الاعتقاد بأنها، عند خروجها من الكنيسة، كانت تلبس ثياب الحداد وحيدة، وتحجب عن الشمس عينيها المحمرّتين. ولم يكن اليومان إلا يوماً واحداً ـ بسماء متألقة وبجلبة وبريح صيفية بدت كأنها تسرع أكثر من غدو ورواح المدعوين. وكان

نسيمها الحار يُلصق بوجه الشابة غطاء الرأس الأبيض الخاص بالعروس تارة، وغطاء الرأس الأسود الخاص بالأرملة تارة أُخرى.

أخذ هذا الزمن الغريب وتيرته العادية فيما بعد. وخضع لإيقاع ليال من دون نوم، واستعراض طويل للأجساد المشوّهة. وصارت للساعات أصوات قاعات الدرس الكبرى لثانوية نويي تلك التي تحوّلت إلى مستشفى. كان أول تعرف لها على جسد رجل عند رؤيتها للجسد الذكوري الممزّق والمدمّى... وتكفلت السماء الليلية لتلك السنوات بالوحشية الشاحبة لمنطادين ألمانيين من بين الرواسب الكلسية المضيئة لكشافات النور.

وأخيراً، حل يوم ١٤ تموز/يوليو لسنة ١٩١٩ حيث عبرت صفوف لا تُعدّ ولا تحصى من الجنود نويي، قاصدة العاصمة. وكان الجميع متأنقين للغاية، بنظراتهم المتكبرة، وأحذيتهم العسكرية الملمعة بشكل جيد. وكانت الحرب قد استردت جوها الاستعراضي. هل كان بينهم ذاك المقاتل الذي وضع في يد شارلوت حجراً صغيراً داكن اللون، وشظية القذيفة المكسوّة بالصدأ؟ هل كانا حبيبين؟ هل كانا مخطوبين؟

أما ذلك اللقاء، فلم يغير شيئاً في قرار شارلوت الذي كانت قد اتخذته قبل سنوات عديدة من ذلك. ففي أول فرصة سنحت لها، وهي فرصة خيالية، رحلت إلى روسيا. ولم تكن هناك من رابطة مع ذلك البلد المدمّر بسبب الحرب الأهلية. وكانت بعثة للصليب الأحمر تستعد للسفر إلى منطقة الفولغا سنة ١٩٢١ حيث خلفت المجاعة وراءها مئات الآلاف من الضحايا. وكانت شارلوت قد قُبلت كممرضة. وتم قبول ترشيحها بشكل سريع جداً لأن المتطوعين من أجل تلك البعثة كانوا قلة، وعلى الأخص لأنها تتحدث الروسية.

في ذلك المكان اعتقدت أنها رأت الجحيم. فعن بُعد كان أشبه بالقرى الروسية الهادئة حيث الإسبات والآبار، والسياجات الغارقة في ضباب الوادي الكبير. أما عن قرب فقد كانت تقف بلا حراك أمام الصور التي أخذها مصوّرو البعثة على مدار تلك الأيام، حيث مجموعة من القرويين والقرويات الجامدين أمام كومة من الجثث البشرية ومن الأجساد المقطّعة، وأشلاء الأجساد التي يتعدّد التعرّف على أصحابها. ثم ذلك الطفل الذي يجلس عارياً وسط الثلوج - بشعر رأسه الطويل والمعقود، وبنظرة شيخ نافذة، وبجسد حشرة. وأخيراً، على جليد إحدى الطرقات، تلك الرأس. كانت وحيدة بعينين مفتوحتين. وكانتا أشبه بزجاجتين. غير أن الأسوأ هو أن التقاط تلك الصور لم يُبق الوضع ثابتاً. فما إن يطوي المصوّر حاملة مصوّرته، ويغادر القرويون إطار الصورة، صورة المتوحشين المرعبة تلك، حتى يعودوا إلى الحياة في تلك البساطة المحيرة للحركات اليومية. أجل، كانوا يستمرون في العيش! فكانت امرأة تنحني على طفل لتتعرف فيه على ابنها. وما كانت لتعلم ما تصنع بتلك الحشرة الهرمة، وهي التي اقتاتت، منذ أسابيع، من اللحم البشري. بينما يُسمع عواء ذئبة وقد صعد إلى حلقها. ولم يكن بإمكان أي صورة أن تلتقط تلك الصرخة... وقروي ينظر زافراً إلى عيني رأس ملقاة في الطريق، ثم ينحني عليها، وبيد رعناء يدفعها إلى كيس كبير من النسيج. ليهمهم قائلاً: «سأدفنها، فمهما يكن الأمر، نحن لسنا من التتار...».

وكان ينبغي الدخول إلى إسبات ذلك الجحيم الهادئ لاكتشاف أن تلك العجوز التي ترقب الطريق من خلال الزجاج ليست إلا مومياء

شابة توفيت قبل أسابيع كثيرة. غير أنها ظلت جالسة أمام تلك النافذة مع استحالة الأمل في الخلاص.

ما إن وصلت شارلوت إلى موسكو حتى غادرت البعثة... ومع خروجها من الفندق، غاصت وسط الحشود المجتمعة في الساحة لتختفي. وفي سوق سوخاريفكا حيث للمقايضة اليد العليا، استبدلت خمسة فرنكات من الفضة (ختم البائع القطعة النقدية بناجذته ثم أرنَّها على شفرة فأس برغيفي خبز كانا سيكفيانها في الأيام الأولى لرحلتها. كانت تلبس ما تضعه امرأة روسية. وفي المحطة، لم ينتبه أحد لتلك الشابة التي أعادت تثبيت حقيبتها على ظهرها بعد الهجوم العنيف وغير المنظم على العربات، والتي أخذت تقاوم الاهتزازات المسعورة لذلك المزيج البشري الغريب.

غادرت فرأت كل شيء. واجهت اللامحدود لذلك البلد ومساحته القارة حيث تُدفن الأيام والسنون. ومع ذلك، فقد تقدمت مرتبكة في ذلك الزمن الراكد في القطار، وفي عربة، وراجلة...

ورأت كل شيء. حيث قطيع من جياد مُسرجة، تعدو من دون فرسان على هضبة. تتوقف للحظة، ثم تعاود فزعة سباقها المجنون، سعيدة ومرعوبة لحريتها المستردة. وجلب أحد تلك الجياد الهاربة انتباه الجميع. ذلك أن سيفاً كان يغوص عميقاً في سرجه، وينتصب على ظهره. كان الجواد يعدو فيهتز النصل الطويل المثبت في الجلد السميك برشاقة وهو يلمع تحت شمس خفيضة. وكان الناس يتبعون بأعينهم الانعكاسات القرمزية التي أخذت تتلاشى شيئاً فشيئاً في ضباب الحقول. كانوا يعلمون بأن ذلك السيف ذا القبضة المطعمّة بالرصاص كان قد شطر جسداً إلى نصفين (من الكتف حتى أسفل البطن) قبل أن

يُودع هنالك. أما النصفان فقد سقطا على العشب الذي تدوسه الأقدام. وكان كل نصف في ركن.

رأت الأحصنة الميتة أيضاً التي أُخرجت من الآبار. كما رأت الآبار الجديدة التي حُفرت في الأراضي الخصبة والثقيلة. وكانت رائحة الخشب الندية تنبعث من الأقفاص المصنوعة من جذوع الصنوبر المقشر التي أنزلها القرويون في عمق الفجوة.

رأت مجموعة من القرويين يقودهم رجل ببزّة جلدية سوداء وهم يسحبون حبلاً غليظاً حول قُبّة كنيسة وحول الصليب. وبدا أن الفرقعة المتكررة كانت تؤجّج حماسهم. وفي إحدى القرى، في الصباح الباكر، رأت عجوزاً جاثية أمام قبة كنيسة ألقيت بين قبور مقبرة من دون حدود. مقبرة فتحت على الأصوات الهشة المنبعثة من الحقول.

عبرت قرى خاوية فاضت بساتينها بفواكه فات أوان نضجها وسقطت على العشب، أو جفت في الأغصان. واستقرت في مدينة حيث أقدم أحد التجار يوماً في بعض الأسواق على تشويه جسد طفل حاول سرقة تفاحة منه. وكل الرجال الذين قابلتهم بدوا وكأنهم ينقضّون على هدف مجهول، وهم يلاحقون القطارات، أو يتزاحمون على الأرصفة أو ينتظرون لا أحد يعلم مَن أمام أبواب المتاجر المقفلة، وأمام البوابات التي يحرسها الجنود، وأحياناً على الطريق بكل بساطة.

لم يكن للمكان الذي تواجهه من مركز محدد. فالتكدّس البشري العجيب ترك المكان فجأة للقفر المطلق، حيث جعلت شساعة السماء وعمق الغابات حضور الإنسان شيئاً لا يمكن حتى التفكير فيه. وفتح الفراغ الذي حدث من دون تمهيد المجال لتدافع شرس للقرويين

الذين راحوا يتخبطون في تلك الضفة الطينية لنهر ملأته أمطار الخريف. أجل، رأت شارلوت ذلك أيضاً. رأت قرويين غاضبين يدفعون بعصيّ طويلة طَوْفاً يصدر منه أنين مستمر. وكانت تُرى منه أشباحاً بشرية تمد أياديها الهزيلة باتجاه الضفّة. كانوا مرضى التيفوس الذين هُجّروا والذين كانوا ينجرفون على مقبرتهم العائمة منذ عدة أيام. ومع كل محاولة لبلوغ الضفة كان الناس الذين يقفون عل الضفة يمنعونهم من ذلك. عاد الطوف إلى إبحاره المأتمي، ومات الناس جوعاً أيضاً، إذ سرعان ما تخاذلت قواهم حتى من أجل محاولة الرسو. أما آخر من عاش منهم فقد استفاقوا يوماً على صوت الأمواج القوي والمنتظم، والأفق غير المبالي للبحر الكاسيبي...

رأت عند طرف إحدى الغابات في أحد الصباحات التي تلمع بالملاّح ظلالاً معلقة على الأشجار، والوجوه النحيلة المكشرة للمشنوقين الذين لم يفكر أحد بدفنهم. وفي الأعلى، حيث زرقة السماء المشمسة، كان سرب من الطيور المهاجرة ببطء يخرق الصمت بصدى أصواتها المرتفعة.

لم يعد يرعبها أبداً هبوب الرياح القوية والباعثة على الغثيان لذلك العالم الروسي، ذلك أنها تعلمت كثيراً منذ مغادرتها. أدركت أنه من العملي وضع حقيبة مملوءة بالقش وبعض الحجارة في مؤخرة مقطورة أو عربة، إذ إن اللصوص يأخذونها في هجماتهم الليلية. وكانت تعلم بأن أفضل مكان في سقف مقطورة هو الأقرب لفجوة التهوية. ذلك أنه في تلك الفتحة تُعقد الحبال التي تمكّن من الصعود ومن النزول بسرعة. وعندما يحالفها الحظ، وتجد مكاناً في الممر المكتظ، ما كانت لتفاجأ بوجود طفل مذعور يتناقله الناس المتراصون على

الأرض بينهم في اتجاه المخرج، بينما يفتح من تزاحموا أمام المدخل الباب ويمسكون الطفل من على درجة المدخل لحين قضاء حاجته. ويبدو أن هذا النقل كان يُسلّيهم فكانوا يبتسمون وقد صاروا لطفاء بسبب ذلك الكائن الصغير المستسلم من دون أن ينبس ببنت شفة، وقد تأثروا لرغبته الطبيعية جداً في محيط غير إنساني. . . ولا تُفاجأ أيضاً عندما تسمع من خلال طرطقات سكة الحديد همساً تفهم منه أنهم يتناقلون نبأ طرق خطوط وفاة مسافر اختفى في زحمة الحياة المختلطة.

خلال تلك الرحلة الطويلة التي تحددها المعاناة والدم والأمراض والوحل حدث مرة واحدة فقط أن خالت أنها تستشِفّ قليلاً من الصفاء ومن الحكمة. حدث ذلك في الضفة الأخرى للأورال. فعند الخروج من بلدة أتت النيران على نصفها لمحت بعض الرجال جالسين على منحدر مليء بالأوراق المنثورة. كانت وجوههم الشاحبة تستدير جهة شمس ناعمة لنهاية فصل الخريف، معبرين عن هدوء سعيد جداً. هز القروي الذي يقود العربة رأسه وشرح بصوت منخفض قائلاً: «يا للمساكين. إنهم حوالي اثني عشر شخصاً يتسكعون هناك. لقد شبّ حريق بمستشفاهم. أجل، إنهم مجانين. . .»

كلا، ما كان لشيء أن يفاجئها.

غالباً ما كانت تحلم حُلماً موجزاً ومضيئاً ولا يُصدَّق، فيما تكون محشورة وسط ظلمة مقطورة حيث يغدو التنفس أمراً شاقاً مثل تلك الجمال الضخمة تسير تحت الثلج وهي تدير رؤوسها المزدرية نحو كنيسة يخرج جنود من بابها المفتوح، جارين قساً خلفهم وهو يحثهم على التوبة بصوت منكسر. تلك الجمال المكسوّة حدباتها بالثلج،

وتلك الكنيسة، وذلك الجمع المنتشي... تذكر شارلوت أن تلك الكائنات ذات الحدبات كانت لا تنفص فيما مضى عن النخيل والصحراء والواحات...

إذ ذاك كانت تنبعث من خدرها. كلا، لم يكن حلماً. كانت تقف وسط سوق صاخب في مدينة مجهولة. وكان الثلج الكثيف يغطي أهدابها. وكان المارة يقتربون، ويجسون ميدالية الفضة الصغيرة التي كانت تأمل مقايضتها بالخبز. وكانت الجمال تشرف على تجمهر التجار مثل سفن دراكار غريبة موضوعة على دعامات. وتحت أنظار الجموع المستمتعة، أخذ الجنود يدفعون القس إلى زلاّجة ملأى بالقش.

في الليل، وبعد حلمها الزائف، كانت جولتها عادية جداً وواقعية جداً. فقد عبرت شارعاً ذا بلاط يلمع تحت الوميض المعتم لأحد المصابيح، ودفعت باب مخبز. بدا لها الدفء والنور داخله مألوفاً جداً، وحتى لون الخشب المطلي على طاولة المشرب، وترتيب الحلوى والشوكولاتة على الواجهة الزجاجية. ابتسمت صاحبة المحل بلطف كما لو أنها تفعل ذلك في وجه زبونة دائمة، ومدت لها خبزاً. في الشارع، توقفت شارلوت وقد أخذتها نوبة حيرة، ذلك أنه كان ينبغي عليها أن تشتري خبزاً أكثر! إثنين وثلاثة! بل أربعة أرغفة! كان عليها أيضاً أن تحفظ جيداً اسم الشارع حيث يقع ذلك المخبز الممتاز. دنت من المنزل عند الزاوية ثم رفعت عينيها، غير أن الأحرف كانت على هيئة غريبة، وغير واضحة. كانت متداخلة، وكانت تومض. فكرت فجأة: «لكن ما أغباني! هذا الشارع هو الشارع الذي يقطن فيه خالي...»

استفاقت قافزة. ذلك أن القطار توقف في مكان مقفر، على ضجيج غير واضح، إذ إن عصابة قتلت سائق القطار ثم أخذ أفرادها يطوفون بالعربات، سالبين الناس كل ما يصادفونه في طريقهم. أزالت شارلوت شالها، وغطت به رأسها عاقدة طرفي أسفل ذقنها تماماً كما تفعل القرويات العجائز، وبابتسامة لذكرى حلمها وضعت على ركبتيها كيساً ممتلئ بمناديل مسح قديمة لُفّت على حجرة...

وإذا ما نجحت خلال شهريْ سفرها ذينك فإن شساعة القارة التي عبرتها كانت مروية بالدم. وهكذا فقد الموت لسنوات على الأقل إغواءه، وأضحى مبتذلاً جداً ولا يستحق العناء.

كانت شارلوت تمشي عبر بوايارسك، المدينة السيبيرية التي شهدت طفولتها، ولم تتساءل إن كان ذلك حلماً آخر أو حقيقة. كانت تشعر بأنها أضعف من أن تفكر في الأمر.

عُلّق علم أحمر على منزل الحاكم فوق المدخل. وكان هناك جنديان مسلحان ببندقيتين يدوسان الثلج في ركني الباب... وكانت بعض نوافذ المسرح قد كسرت وأغلقت بحواشي الديكور من الخشب المعاكس لعدم توافر ما هو أفضل. كانت ترى أحياناً أغصاناً مقطوعة مغطاة بأزهار بيضاء من المحتمل أنها تعود *لبُستان الكرز*، وأحياناً واجهة داتشا. وفوق البوابة كان عاملان يقومان بشد ملصق طويل من الكليكوت الأحمر كتب عليه «الجميع في الملتقى الشعبي لجمعية من هم من دون إله!» هذا ما قرأته شارلوت بعد أن أبطأت الخطى قليلاً. أخرج أحد العاملين مسماراً كان يضغط عليه بأسنانه، ودقه بقوة جوار علامة التعجب، وصرخ في رفيقيه قائلاً:

ـ الحمد لله، ها أنت ذا ترى. أنهينا كل شيء قبل حلول الليل!

ابتسمت شارلوت، مضت في طريقها. كلا، لم تكن تحلم.

أوقفها أحد الجنود المرابطين قرب الجسر وأقفل الطريق عليها طالباً منها أن تقدم أوراقها. امتثلت للأمر. أخذ الأوراق، ومن المحتمل جداً أنه لم يكن يعرف القراءة، ذلك أنه قرر أخذها منها، وبدا أنه تفاجأ هو أيضاً من قراره حين قال: «يمكنك استعادتها بعد التدقيقات اللازمة من قبل المجلس الثوري». هكذا أعلن مكرراً على ما يبدو كلمات شخص آخر. ولم تكن لشارلوت القوة لتجادل.

أما في بوايارسك فقد رحل فصل الشتاء منذ فترة طويلة. غير أن الجو كان فاتراً في ذلك اليوم، وكان الجليد أسفل الجسر مغطى ببقع رطبة واسعة، وهي العلامات الأولى على تلطف الجو من جديد. وكانت ندف ثلج كبيرة وكسولة تحلّق في الصمت الأبيض للأرض المتماوجة التي عبرتها كثيراً في طفولتها.

بدت الإسبة وكأنها ترقبها من بعيد بنافذيتها الضيقتين. أجل، كان البيت ينظر إليها وهي تقترب. وعلت واجهته المنخفضة تكشيرة صغيرة غير محسوسة، لسعادة مرّة بلقاء جديد.

ولم تكن شارلوت تأمل شيئاً كبيراً من تلك الزيارة، ذلك أنها اعتادت منذ زمن بعيد على معرفة أخبار لا تبعث على الأمل، حيث الموت والجنون والاختفاء، أو فقط وبكل بساطة غياب غير مبرّر وعادي ولا يفاجئ أحداً. كانت تحرم على نفسها أن تأمل، ومع ذلك فقد كانت تأمل.

كانت منهكة في الأيام الأخيرة حد أنها لم تعد تفكر إلا في حرارة المدفأة الكبيرة، التي استندت إلى جانبها إليه في استرخائها على الأرضية.

لمحت عند درج مدخل الإسبة عجوزاً تحت شجرة تفاح ضامرة، وقد دثرت رأسها بشال أسود. كانت العجوز مقوسة الظهر تجر غصناً كبيراً غارقاً وسط الثلوج. نادتها شارلوت، غير أن العجوز لم تستدر. كان الصوت ضعيفاً يتبدّد سريعاً في الهواء المختنق بالدفء المفاجئ. أحست كأنها لا تستطيع أن تطلق صرخة أخرى.

دفعت الباب بكتفها. رأت عند المدخل المظلم البارد كومة كبيرة من الخشب، ومن الألواح الخشبية، ومن الشرائح الخشبية حتى إنها وقعت على تلة بالأبيض والأسود حيث مفاتيح بيانو. تذكرت شارلوت أن آلات البيانو في بيوت الأثرياء كانت أكثر ما يثير غضب الشعب. وكانت قد رأت من قبل أحدها بارزاً وسط جليد أحد الأودية...

كانت أول حركة قامت بها عند دخولها الحجرة أن مسّت حجر المدفأة. كان فاتراً. أحست شارلوت بدوار عذب. أرادت الجلوس قرب المدفأة عندما لمحت على الطاولة ذات الألواح الخشبية التي صقلتها السنون كتاباً مفتوحاً. كان كتاباً قديماً بأوراق خشنة. مالت لتنظر إلى الصفحتين المفتوحتين مستندة إلى أحد المقاعد. وبغرابة، أخذت الحروف تترنح وتذوب تماماً مثل ما حدث في تلك الليلة في القطار عندما حلمت بالشارع الباريسي حيث يقطن خالها. لم يكن الأمر يتعلق بحلم هذه المرة، ولكن بالدموع. كان كتاباً فرنسياً.

دخلت العجوز ذات الشال الأسود، وبدا أنها لم تفاجأ لرؤية تلك الشابة الهيفاء تقوم من على مقعدها. وكانت تتساقط من الأغصان الجافة التي تحملها تحت ذراعيها ألياف ثلج طويلة على الأرضية. وبدا وجهها الذابل يشبه وجه كل قروية تنتمي إلى تلك المنطقة

السيبيرية. ارتعدت شفتاها اللتان خطتهما التجاعيد مثل زغيبات رقيقة، وتردد صوت ألبرتين في فم وصدر ذلك الكائن المجهول الجاف. كان صوتاً لم تتغير فيه ولو نبرة واحدة.

ـ كنت أخشى شيئاً واحداً طيلة هذه السنين. أن تعودي إلى هنا!

أجل، كانت تلك أولى الكلمات التي وجهتها ألبرتين إلى ابنتها. وفهمت شارلوت ما عاشتاه منذ وداعهما عند الرصيف، قبل ثماني سنوات، وكل الحركات الكثيرة، والوجوه والكلمات والمعاناة والحرمان والآمال والقلق والصراخ والدموع. وكل صخب الحياة الذي يتردد بصدى وحيد يرفض أن يموت. كان لقاءً رُغب فيه بشدة وخُشي منه بشدة أيضاً.

ـ أردت أن أطلب من أحدهم أن يكتب لك، ليخبرك بأني مت، غير أن الحرب منعتني. حدثت الثورة بعد ذلك، ثم الحرب مجدداً. ثم...

ـ ما كنت لأصدق تلك الرسالة...

ـ أجل، ثم إني قلت لنفسي أنه مهما فعلت ما كنت لتصدقي الأمر...

ألقت الأغصان جوار المدفأة ودنت من شارلوت. كانت ابنتها تبلغ من العمر عندما كانت تنظر إليها من النافذة المقفلة للمقطورة في باريس إحدى عشرة سنة. أما الآن فتوشك أن تبلغ العشرين.

همست ألبرتين وقد أشرق وجهها، استدارت إلى المدفأة:

ـ هل تسمعين؟ الفئران، هل تذكرين؟ ما تزال هنا...

وفيما بعد، همست ألبرتين المقرفصة أمام النار المشتعلة خلف الباب الصغير الذي يوشك أن يذوب، وكأنها تحدث نفسها، ومن

دون أن تنظر إلى شارلوت الممدة على المصطبة والتي يبدو أنها نامت:

ـ هكذا هو هذا البلد. يدخله المرء بسهولة لكنه لا يخرج منه أبداً. . .

بدا الماء الساخن كمادة جديدة وغير معروفة. مدت شارلوت يديها إلى الخُييط الذي تسكبه والدتها ببطء على كتفيها وظهرها من مغرفة نحاسية. بدت القطرات الساخنة في عتمة تلك الحجرة التي لا يضيئها سوى وهج نُشارَة مشتعلة، مثل صمغ شجرة صنوبر. وكانت تدغدغ بلذة الجسد الذي كانت شارلوت تحكه بكرة من الصلصال الأزرق. أما الصابون فلم تتبق منه إلا ذكرى مشوّشة.

قالت ألبرتين بصوت منخفض ومتقطع:

ـ هزلت كثيراً.

ابتسمت شارلوت بلطف. وعندما رفعت رأسها بشعرها المبلل رأت دموعاً بلون الكهرمان تلمع في عيني والدتها الكابيتين.

وفي الأيام التي تلت حاولت شارلوت معرفة كيف يمكنها مغادرة سيبيريا (لم تكن تجرؤ على قول: الرحيل إلى فرنسا، تطيّراً). قصدت فنزل الحاكم السابق. ابتسم في وجهها الجنود عند المدخل. هل كانت تلك علامة جيدة؟ جعلتها سكرتيرة حاكم بواريارسك الجديد تنتظر في حجرة صغيرة. فكرت شارلوت في أنها في الحجرة التي كانت تنتظر فيها فيما مضى الطَّرْدَ مع بقايا الطعام. . .

استقبلها الحاكم جالساً خلف مكتبه الثقيل. كانت قد دخلت حين كان ما يزال منهكماً في تسطير خطوط مقطّبا بقلم أحمر على صفحات كرّاسة مُتجهّماً. وكانت على طاولته كدسة من الكتيِّبات متشابهة الوجوه.

قال أخيراً وهو يمد يده:

- صباح الخير أيتها المواطنة!

تحدثنا، وأدركت شارلوت بذهول مشكوك فيه أن ردود الموظف كانت صدى هجيناً للأسئلة التي طرحتها. كانت تتحدث عن اللجنة الفرنسية للإنقاذ، وتسمع كصدى خطاباً مقتضباً عن النوايا الإمبرايالية للغرب تحت ذريعة حماية البورجوازيين. وتأتي على ذكر نيتها في التوجه إلى موسكو، ومنها إلى ... ليقاطعها الصدى بأن القوى الخارجية المتدخلة، إضافة إلى أعداء الداخل، يهدمون البناء داخل جمهورية السوفيات الشابة...

بعد ربع ساعة من الحديث على ذلك المنوال اجتاحت شارلوت رغبة بأن تصرخ قائلة: «أريد أن أرحل! هذا كل شيء!»، غير أن منطق ذلك الحديث السخيف منعها من ذلك.

- قطار إلى موسكو...

- تخريب المتخصصين البورجوازيين في السكك الحديدية...

- الحالة الصحية السيئة لوالدتي...

- الإرث الاقتصادي والثقافي المرعب الذي تركته القيصرية...

وأخيراً، قالت بوهن منهكة:

- إسمعني، رجاءً أعيدوا لي أوراقي...

بدا أن صوت الحاكم يصطدم بحاجز، وعلت وجهه تكشيرة سريعة، ليخرج من مكتبه دون أن يقول شيئاً. ألقت شارلوت نظرة خاطفة على صفحة كراسته مستغلة غيابه. ألقى بها العنوان إلى قلق كبير: «*من أجل إنهاء التساهل الجنسي في خلايا الحزب (توصيات)*.» ما هي إذن تلك التوصيات التي كان الحاكم يسطرها بقلم أحمر.

قال عند دخوله:

ـ لم نجد أوراقك؟

أصرّت شارلوت. وما حدث كان غير متوقع ومنطقياً في الآن ذاته. ذلك أن الحاكم ألقى بوابل من الشتائم والأقسام حد أنها بعد شهرين من ذلك أمضتهما في القطارات المزدحمة ظلت مندهشة. كان ما يزال يعنّفها عندما أمسكت مقبض الباب، ثم قرّب وجهه من وجهها وصرخ قائلاً:

ـ بإمكاني اعتقالك، وإعدامك رمياً بالرصاص هنا في الساحة خلف المراحيض! هل فهمت أيتها الجاسوسة؟

في طريق عودتها وسط الحقول المثلجة أخذت شارلوت تحدث نفسها بأن هناك لغة جديدة أخذت تولد في البلد. لغة لم تكن تعرفها. ولأجل ذلك السبب بدا لها الحوار الذي دار في مكتب الحاكم السابق لا يُصدّق. كلا، فقد كان لكل شيء معنى. تلك الخطبة الثورية القصيرة، التي تحولت فجأة إلى لغة كريهة، وتلك «المواطنة، الجاسوسة»، والكراسة المنظمة للحياة الجنسية لأعضاء الحزب. أجل، كان هناك نظام جديد للأشياء يوضع. فكل ذلك العالم، على الرغم من أنها كانت قد ألفته، كان يأخذ اسماً آخر. وسيطبق على كل شيء، وعلى كل كائن سمة مغايرة.

فكرت: «وهذا الثلج البطيء، وهذه الندف الناعسة لهذا الجو اللطيف في سماء المساء خبازية اللون؟» تذكرت أنها كانت سعيدة وهي بعد طفلة، عند خروجها إلى الشارع عندما تصادف الثلج بعد درسها مع ابنة الحاكم. وقالت وهي تتنفس بعمق: «تماماً مثل هذا اليوم...»

تجمدت الحياة بعد أيام من ذلك. ففي ليلة رائقة حيث أخذ البرد القطبي يتساقط من السماء تحوّل العالم إلى بلّور من الجليد، وتغطت بالملاّح الأشجار المقشرة والأعمدة البيضاء الثابتة فوق المداخن، والخط الفضي لتيغة[١] في الأفق، وحيث أحيطت الشمس بهالة لمّاعة، ولم يعد للصوت البشري أي مدى، وكان بخاره يتجمد على الشفاه.

لم تعودا تفكران كل يوم إلا في البقاء على قيد الحياة، وذلك بالمحافظة على منطقة صغيرة من الحرارة حول جسديهما.

وكانت الإسبة من أنقذهما بصفة خاصة. فقد كان كل شيء قد أُعِدّ بها لمقاومة الشتاءات اللامنتهية، والليالي من دون قرار، حتى أن جذوع أشجار الصنوبر الضخمة تلك كانت تختزل التجربة القاسية للعديد من الأجيال السيبيرية. وكانت ألبرتين قد خمّنت التنفس السريّ لذلك المسكن العتيق. فقد تعلمت كيف تتعايش في انصهار ضيق مع البطء الحار للمدفأة الكبيرة التي تحتل نصف الحجرة، ومع الصمت الحي جداً. وكانت شارلوت تقول دوماً مبتسمة وهي تلاحظ حركات أمها اليومية «إنها سيبيرية حقيقية!». منذ أول يوم لاحظت عند المدخل ربطات من الأعشاب الجافة، التي تذكرها بالأزهار التي يستعملها الروس عند استحمامهم. وتذكرت مع آخر قضمة خبز أكلتها الاستعمال الحقيقي لتلك الحُزم، ذلك أن ألبرتين نقعت إحداها في المياه الساخنة، وفي الليل أكلت ما أطلقتا عليه مازحتين اسم «ثريدة سيبيرية»، وقد كانت مزيجاً من الأعشاب والحبوب والجذور. قالت ألبرتين وهي تفرغ الحساء في صحنيهما: «صرت أعرف نباتات

---

(١) تيغة: غابة صنوبر بسبخة: المترجم.

التيغة عن ظهر قلب، وأتساءل لماذا لا يستغلها الناس هنا إلا قليلاً. . .»

والذي ساعد في إنقاذهما أيضاً تلك الطفلة. تلك الغجرية الصغيرة التي وجدتاها نصف مجمّدة على درج مدخل البيت. كانت تحك خشب الباب الصلب بأظافرها المخدرة التي غدت بنفسجية اللون بفعل البرد. . . ومن أجل إطعامها قامت شارلوت بأشياء ما كانت لتفعلها حتى لإطعام نفسها، ذلك أنها شوهدت في السوق تتسوّل بصلة وبعض البطاطا المجمدة وقطعة شمنزيز[١]، ونقّبت في سطل الزبالة الخشبي قرب مطعم الحزب غير بعيد عن المكان الذي هددها فيه الحاكم بإعدامها رمياً بالرصاص. وحدث أنها أفرغت مقطورات من أجل الحصول على رغيف خبز. أما الطفلة الهزيلة جداً في البداية فقد أخذت تترنح لبضعة أيام في الحدود الهشة بين النور والعدم. ثم عادت ببطء، وبتفاجؤ مربك، لتنزلق من جديد في دفق الأيام العجيب، وفي الأحاديث والروائح التي يتفق الجميع على تلقيبها بالحياة.

وفي يوم مشمس من شهر آذار/ مارس، وحيث أخذ الثلج يصرّ عند أقدام المارة، ظهرت امرأة كانت تبحث عنها. هل كانت أمها أم أختها؟ ومن دون أن تشرح شيئاً أخذتها معها. لحقت بها شارلوت عند مدخل الضيعة ومدت للطفلة الدمية الكبيرة ذات الخدين المثلومين التي كانت الغجرية الصغيرة تلعب بها في ليالي الشتاء الطويلة. . . كانت تلك الدمية قد جُلبت قبل فترة طويلة من باريس،

---

(١) شمنزير: شحم الخنزير. المترجم.

وبقيت إضافة إلى الصحف القديمة «للحقيبة السيبيرية» كآخر آثار حياتهما القديمة.

كانت ألبرتين تعلم بأن المجاعة الحقيقية ستكون في فصل الربيع... ذلك أنه لم تعد هناك أية رزمة أعشاب على جدران المدخل، وصار السوق قفراً. وفي شهر أيار/مايو، فرتا من الإسبة من دون أن تعرفا حقاً أين تتجها. سارتا في طريق كان ما يزال ثقيلاً بفعل الرطوبة الربيعية. وأخذتا تنحنيان بين الفينة والأخرى لجمع ما نما من نبات الحميضة الرقيقة.

استقبلهما كولاك[1] للعمل كمياوميتين في مزرعته. كان رجلاً سيبيرياً قوياً وخشناً، بوجه نصف مخفي ذي لحية تصدر عبرها بضع كلمات نادرة وقصيرة وحاسمة. قال من دون مواربة:

ـ لن أدفع لكما شيئاً. المأكل والمبيت فقط. وإذا ما قبلتكما فليس من أجل جمال عيونكما ولكن لأني أحتاج إلى عمال.

وما كانتا تملكان خياراً. في الأيام الأولى كانت شارلوت تهوي عند عودتها كالميتة على سريرها الحقير، ويداها متورمتان من القوارير المكسرة، في حين كانت تقوم ألبرتين، التي تزجي سحابة يومها في خياطة الأكياس للمحصول القادم، بأفضل ما لديها لمعالجتها. ووصل التعب بشارلوت حد أنها في إحدى الليالي، وعند مقابلتها لمالك المزرعة، شرعت في التحدّث إليه بالفرنسية. انتصبت لحية القروي في حركة عنيقة، وتمددت عيناه. كان الرجل يبتسم قبل أن يقول:

ـ حسناً. يمكنك أن ترتاحي غداً. وإذا ما أرادت أمك الذهاب إلى المدينة، اذهبا...

---

(١) كولاك: فلاح روسي. المترجم.

تحرك بضع خطوات قبل أن يستدير مستدركاً:

ـ هل تعلمين أن شباب القرية يرقصون كل ليلة؟ اذهبي لرؤيتهم إن كنت مهتمة. . .

وكما كان متفقاً عليه لم يدفع لهما القروي أي شيء. وعندما كانتا تستعدان لتقصدا المدينة أشار إلى عربة كانت حمولتها مغطاة بغطاء من تنسيج مِسح جديد. ثم قال موجهاً بصره إلى قروي طاعن في السن يجلس على الكرسي:

ـ هو من سيقود.

شكرته ألبرتين وشارلوت، وتسلقتا العربة المملوءة بسلل القصب وبالأكياس والرزم.

وسألت شارلوت لملء فراغ الدقائق الأخيرة المزعج:

ـ هل ترسل كل هذا إلى السوق؟

ـ كلا. هذا ما ربحتماه.

لم تملكا وقتاً لتردا، ذلك أن السائس سحب العنان واهتزت العربة، وأخذت في التحرك وسط الغبار الحار لطريق الحقول. اكتشفت شارلوت ووالدتها تحت الغطاء ثلاثة أكياس من البطاطس، وكيس قمح، وبرميل من العسل، وأربع يقطينات كبيرة، والعديد من سلل القصب المملوءة بالخضر والفول والتفاح. وفي إحدى الزوايا لمحتا نصف دستة من الدجاج موثوقة القوائم، وديك في الوسط ينظر بغضب وغيظ.

قالت ألبرتين وقد نجحت أخيراً في رفع ناظريها عن ذلك الكنز:

ـ ومع ذلك، أريد تجفيف بعض رزم الأعشاب. من يدري. . .

ماتت بعد سنتين من ذلك. حدث ذلك في ليلة من ليالي شهر

آب/ أغسطس. كانت ليلة هادئة وشفافة. وكانت شارلوت عائدة من المكتبة حيث كلفت بالبحث في جبال الكتب التي جمعت من إقامات الإسرافيات المخربة. . . كانت أمها جالسة على مقعد صغير وقد استندت إلى جدار الإسبة مولية رأسها إلى الخشب الأملس لجذوع الصنوبر المقشرة. كانت مغمضة العينين. بدا أنها نامت وماتت في سُباتها. كانت هبة نسمة خفيفة آتية من التيغة تهز أوراق الكتاب المفتوح على فخذيها. كان الكتاب الفرنسي الصغير عينه بحافته الذهبة المطفأة.

تزوّجا في فصل الربيع من السنة التالية. كان يتحدر من قرية على ساحل البحر الأبيض، على بعد عشرة آلاف كيلومتر من تلك المدينة السيبيرية حيث ألقته الحرب الأهلية. لحظت شارلوت سريعاً أن كبرياءه كقاض كانت تمتزج بانزعاج غامض لم يكن يستطيع في تلك الفترة شرح سببه. وفي عشاء حفل الزفاف اقترح أحد المدعوين بصوت خفيض تكريم موت لينين، وذلك بتخصيص دقيقة صمت له، فقام الجميع. . . بعد ثلاثة أشهر على الزواج عُيّن في الطرف الآخر من الإمبراطورية في بُخارى. أرادت شارلوت بشدة أن تحمل الحقيبة الكبيرة المملوءة بالجرائد الفرنسية القديمة ولم يمانع زوجها، ولكن في القطار أفهمها أن حداً فاصلاً كجبل يتعذر تجاوزه صار منذ تلك اللحظة يفصل بين حياتها الفرنسية وحياتهما. كان يبحث عن كلمات ما سيصير في ما بعد طبيعياً: ستار الحديد.

[٦]

كانت الجمال تقف تحت عاصفة ثلجية، والصقيع يجمّد نسغ الأشجار، ويهشم جذوعها. وكانت يدا شارلوت ترتعدان وهي تتناول حطبات طويلة تُلقى من أعلى عربة قطار...

هكذا يعود إلى الحياة، داخل مطبخنا الذي سوّدته الأدخنة، هذا الماضي الخرافي خلال سهراتنا الشتوية. وكانت تمتد من خلف النافذة التي غطتها الثلوج واحدة من أكبر المدن الروسية وسهل الفولغا الرمادي حيث تقوم البنايات والحصون على النمط الهندسي الستاليني. وهناك، في قلب فوضى عشاء لا ينتهي، وغيمات أضفى التبغ على لونها لمعاناً صدفياً، يظهر ظل تلك الفرنسية الغامضة والتائهة تحت السماء السيبيرية. وكان التلفزيون يصب أخبار ذلك اليوم ناقلاً جلسات مؤتمر الحزب الأخير، غير أن ذلك الصوت في الخلفية لم يكن له أي صدى على انعكاسات مدعوّينا.

مختف في ركن بذلك المطبخ المزدحم، وواضعاً كتفي على الرف الجداري الذي يتربع التلفاز عليه، كنت أنصت إليهم بلهفة محاولاً أن أبدو غير مرئي. وكنت أعلم أنه سرعان ما سيظهر وجه شخص راشد من الضبابة الزرقاء، وسأسمع صراخاً ساخطاً ظريفاً حين يقول:

ـ انظروا إلى هذا المتربّص الصغير! تجاوز الوقت منتصف الليل

ولم يذهب إلى الفراش بعد. هيا. اذهب بسرعة! سندعوك عندما تنبت لك لحية...

ولم أكن أستطيع النوم على الفور عندما أطرد من المطبخ، وتتملكني الحيرة متمثلة في السؤال الذي يعود دوماً إلى طرق رأسي الصغير:

ـ لماذا يتحدثون عن شارلوت إلى هذا الحد؟

اعتقدت في البداية أنني أفهم أن تلك الفرنسية كانت بالنسبة إلى والدي وضيوفهما موضوع حديث مثالي. والواقع أنه كان يكفيهم التطرق إلى ذكريات آخر حرب حتى يندلع شجار. وكان والدي الذي أمضى أربعة أعوام في صفوف المشاة الأمامية يرجع النصر لجنوده الذين تورطوا في الأرض التي، بحسب تعبيره، سقوها بدمائهم من ستالينغراد حتى برلين. ويلقي شقيقه بملاحظة من دون أن يريد إحراجه قائلاً: «مثلما يعلم الجميع فالمدفعية كانت إلهة الحرب الحديثة». وتلتهب المناقشة. وشيئاً فشيئاً يرى المِدفعيون أنفسهم يُنعتون بالمختبئين. أما المشاة، وبسبب الوحل على طرقات الحرب، فيصيرون «العدوى». وفي تلك اللحظة يتدخل الصديق الحميم وهو ربّان طائرة مطاردة مستعملاً حججه. وهكذا يأخذ الحديث منحى خطيراً جداً. كل ذلك قبل أن يتطرقوا إلى الحديث عن جدارة انقضاض جبهة كل منهم على حدة ، ودور ستالين خلال الحرب...

كنت أشعر أن ذلك الشجار يؤلمهم كثيراً. ذلك أنه ومهما كان نصيبهم في النصر فقد حُسِم الأمر وأُبيد جيلهم ومُزّق وكانوا على وشك الاختفاء جميعهم، جندي المشاة والمدفعي والطيار، وحتى أمي التي سبقتهم ولقيت مصير مواليد العشرينيات عينه. فعند بلوغي

الخامس عشرة بقيت وحدي رفقة أختي. وكان في جدالهم شيء مثل سَبْق الإدراك بذلك المستقبل القريب جداً... كنت أفكر بأن حياة شارلوت كانت تشكل عزاءً لهم، مانحة إياهم أرضاً محايدة.

ولكنْ مع تقدمي في السن أخذت أدرك سبباً آخر لتفضيلهم الفرنسي ذاك في جدالاتهم التي لا تنتهي، وهو أن شارلوت انبعثت تحت السماء الروسية مثل كائن فضائي. لم تبال بالتاريخ الوحشي لتلك الإمبراطورية الكبيرة حيث المجاعات والثورات والحروب الأهلية... أما نحن الروس فلم نكن نملك خياراً. أما هي؟ فقد كانت تبصر بلداً غير معروف من خلال نظرتها، لأن الحكم من قبل غريبة ساذجة غالباً ما يكون بنفاذ بصيرة أكثر منهم. وكان ينعكس في عيني شارلوت عالم مقلق ومليء بالحقائق العفوية، وروسيا غريبة كان عليهم اكتشافها.

كنت أنصت لهم، وأكتشف أنا أيضاً مصير شارلوت الروسي، لكن بطريقتي. وكانت بعض التفاصيل التي تكاد لا تذكر تكبر في رأسي مشكلة عالماً سرّياً، بينما كانت تمر بعض الأحداث التي يعيرها أولئك الراشدون أهمية كبرى، بشكل عابر.

وهكذا، بشكل غريب فعلاً، لم تؤثر في نفسي الصور المرعبة للوحشية التي تعرّض لها الفولكا إلا قليلاً. وكنت قد قرأت منذ فترة قريبة *روبنسن كروزو*، ولفحتني مجانسات الجمعة بطقوسهم المرحة في أكل لحم البشر بشكل خيالي أكثر من كل الفظاعات الواقعية.

ولم يكن العمل الشاق في المزرعة هو أشد ما أثار انتباهي في الماضي القروي لشارلوت. كلا، ذلك أني احتفظت خصوصاً بزيارتها لشباب القرية. فقد قصدتهم تلك الليلة وألفتهم منخرطين في حوار ميتافيزيقي.

كان الأمر يتعلق بالميتة التي ستلحق بمن ستسوّل له نفسه أن يذهب إلى المقبرة عند منتصف الليل تماماً. وزعمت شارلوت نفسها مبتسمة أنها قادرة على مواجهة كل قوى الطبيعة الخارقة. كانت وسائل التسلية قليلة. ولما كان الشباب يأملون سراً إيجاد حل لتلك العقدة المتعلقة بالأموات فقد حيّوا شجاعتها بحماسة صاخبة. ولم يبق سوى إيجاد شيء ستتركه تلك الفرنسية الطائشة على أحد أضرحة مقبرة القرية. ولم يكن ذلك سهلاً، إذ إن كل ما تم اقتراحه كان يمكن تعويضه بشبيه له مثل شال، أو حجرة، أو قطعة نقدية. . . أجل، كان بإمكان تلك الماكرة الغريبة أن تحضر بكل سهولة فجراً وتعلق شالها بينما يكون الجميع نياماً. كلا، كان ينبغي اختيار شيء لاشبيه له. . . وفي صباح الغد وجدت لجنة مكتملة العدد في الزاوية الأكثر ظلمة في المقبرة «حقيبة بون نوف الصغيرة» معلقة على صليب أحد القبور. . .

بدأت أستشعر قدر الأشياء العجيب عند تصوري لتلك الحقيبة النسوية وسط الصلبان وتحت السماء السيبيرية. كانت الأشياء تسافر مكدسة على الصفحات العادية لمراحل حياتنا رابطة بين لحظات متباعدة جداً.

أما بخصوص زواج جدتي من قاضي الشعب فلا شك في أني لم أنتبه لكل ما يمكن أن يجده الراشدون فيه من رواية مثيرة. فحب شارلوت، ومغازلة جدي لها، والزوج الخارج عن المألوف الذي شكلا، في تلك المنطقة السيبيرية لم أحفظ منها إلا نزراً يسيراً، فهذا فيوديور الذي يرتدي سترة مكوية بشكل جيد، وحذاء عالياً ملمعاً، يقصد مكان موعدهما الحاسم. وعلى بعد خطوات خلفه كان هناك كاتب المحكمة، وهو شاب ابن كاهن أرثوذكسي. ولما كان شاعراً

بخطورة اللحظة فقد كان يمشي ببطء حاملاً باقة كبيرة من الورود، ذلك أن قاضي الشعب، حتى ولو كان مغرماً، ما كان ينبغي له أن يبدو مثل عاشق سخيف في مسرحية غنائية. لمحتهما شارلوت من بعيد ففهمت القصد من وراء ذلك السيناريو، وبابتسامة ماكرة قبلت باقة الورود التي أخذها فيوديور من بين يدي كاتب المحكمة، الذي اعتراه الخجل والفضول واختفى متقهقراً.

أو ربما هذا المقطع أيضاً، الذي يخصّ صورة حفل الزفاف الوحيدة (ذلك أن كل الصور الأخرى التي يظهر فيها الجد صودِرت عند اعتقاله): كانا يميلان بوجهيهما أحدهما باتجاه الآخر، وعلى شفتي شارلوت الشابة الجميلة بشكل لا يعقل كان يتألق ظل ابتسامة «التفاحة الصغيرة». . .

إلى ذلك، وخلال حكايتها الليلية الطويلة، لم يكن كل شيء واضحاً في أذنيّ الطفل الذي كنته. قلق والد شارلوت على سبيل المثال. . . ذلك الرجل المحترم، والطبيب الثري الذي علم يوماً من أحد مرضاه الذي يشغل منصباً كبيراً في الشرطة بأن مظاهرة العمال الكبيرة التي ستتدفق بين لحظة وأخرى إلى الساحة الرئيسية ببوايارسك ستستقبل عند أحد مفترقات الطرق بطلقات البنادق الرشاشة. فما إن غادر المريض حتى نزع الدكتور لومونيي بلوزته البيضاء، ومن دون أن ينادي حوذيّه، قفز إلى عربته، وانطلق عبر الطرقات لتحذير العمال.

وهكذا تم تفادي المذبحة. . . تساءلت دوماً لماذا تصرّف ذاك «البورجوازي»، وذاك الموسر بتلك الطريقة. كنا معتادين على رؤية العالم بالأبيض والأسود، حيث الأثرياء والفقراء، المستغِلون والمستغَلين، وبكلمة واحدة: أعداء الطبقية والعادلون. أذهلني

تصرّف والد شارلوت. فوسط التكتل البشري المشطور نصفين جليّين ينبعث الرجل بحريته غير المتوقعة.

ولم أفهم أيضاً ما حدث في بُخارى. خمّنت فقط بأن الحدث كان شنيعاً. أكان من قبيل الصدفة أن يشير الراشدون إلى تلك الواقعة بعبارات مُطمَرة مصحوبة بهزات رأس إيجابية؟ كان نوعاً من المحظور الذي تدور حوله الأحاديث واصفة المشهد على هذا النحو. رأيت أولاً، نهراً يجري على حصبات ملساء، ثم طريقاً تمتد إلى ما لا نهاية له من الصحراء. وأخذت الشمس ترجح عيني شارلوت. والتهب خدّاها من حرقة الرمال. وترددت في السماء أصداء صهيل... وانطفأ المشهد الذي لم أفهم معناه، غير أني خرقت كثافته المادية. يتنهّد الراشدون، ويغيّرون دفة الحديث، ويسكبون كأس فودكا آخرى.

انتهيت إلى التخمين بأن ذلك الحدث الذي وقع وسط رمال آسيا الوسطى قد طبع إلى الأبد، طريقة غريبة وحميمية، تاريخ عائلتنا. ولاحظت أيضاً أنه لا يتم التطرق إليه عندما يكون ابن شارلوت أو العم سيرغاي من بين المدعوين.

والواقع أني إذا ما كنت أتجسس من أجل تلك الأسرار الليلية فما ذلك إلاّ لأكتشف ماضي جدتي الفرنسي. أما الجانب الروسي من حياتها فلم يكن يعنيني كثيراً. كنت مثل الباحث الذي يفحص نيزكاً، يوجّه اهتمامه بالأساس إلى بلّوراته المتألقة المرصّعة في واجهته البازلتية. وكما لو أني أحلم برحلة بعيدة مجهولة الهدف حتى تلك اللحظة أخذت أحلم بشرفة شارلوت، وبأطلنتيدها، التي اعتقدت أني تركت في الصيف الماضي قطعة مني فيها.

الفصل الثاني

[١]

تملّكني في ذلك الصيف خوف شديد من مقابلة القيصر مرة أخرى. . . أجل، أن أعاود رؤية ذاك الإمبراطور الشاب وزوجه في شوارع باريس، مثلما تخشى مقابلة صديق علمت من طبيبه أنه على وشك أن يموت، صديق يعيش في جهله السعيد ويُسرّ لك بمشاريعه المستقبيلة.

أنّى لي القدرة على تتبع نيقولا وألكسندرا، وأنا أعلم أن دمهما مهدور؟ أنّى لي ذلك وأنا أعلم أن ابنتهما الصغيرة أولغا لن تنجو أيضاً؟ وأين أجد الشجاعة وأنا أعلم أنه حتى الأولاد الآخرون الذين لم تضعهم ألكسندرا بعد في هذه الدنيا سيلقون المصير المأسوي نفسه؟

لمحت بسعادة خفية في تلك الليلة ديوان شِعر صغير، كانت جدتي الجالسة وسط ورود شرفتها تقلّب صفحاته على فخذيها. هل أحست بارتباكي مُستعيدة حادث الصيف الماضي، أم أنها أرادت بكل بساطة أن تقرأ لنا أحد أشعارها المفضلة؟

جلست جوارها مباشرة على الأرض مستنداً إلى رأس كاهنة

باخوس الحجرية، وجلست أختي في الجهة الأخرى مستندة إلى الدرابزين، ونظرها شارد في ضباب السُّهوب الحار.

كان صوت شارلوت رخيماً تماماً مثلما تقتضيه هذه الأبيات:

هناك لحن من أجله أمنح
كل روسّيني، وكل موزارت، وكل ويبير
لحن عتيق جداً، وذابل، وجنائزي
أراه وحدي فقط بسحر خفيّ.

جعل سحر هذا الشعر لينرفال قصراً من عهد لويس الثالث عشر ينبثق وسط ظلام الليل، وسيدة القصر «الصهباء بعينيها السوداوين وثيابها العتيقة...»

ثم أتى صوت أختي لينتزعني من تأملي االشاعري حين سألت:

ـ وماذا حل بفليكس فور؟

كانت تبقى هناك دوماً في زاوية الشرفة منحنية قليلاً على الدرابزين، وكانت بين الفينة والأخرى تنزع وردة أرجوانية ذابلة بحركات شاردة وتلقي بها متتبعة دورانها في الهواء الليلي. ولما كانت غارقة في أحلامها كشابة فإنها لم تنصت للشعر المقروء. كان ذلك صيف سنتها الخامسة عشرة... لماذا فكرتْ في الرئيس؟ لعلّ ذلك الرجل الوسيم، صاحب الحضور القوي، بشاربه الأنيق، وعينيه الكبيرتين الهادئتين، جسّد فجأة، عبر نزوة غرامية، الحضور الذكوري الذي رسمته من قبل، وسألت بالروسية، كما لو أنها تُعبِّر بشكل أفضل عن الغموض المقلق للحضور الذي ترغب فيه بشكل خفيّ. «ماذا حل بفليكس فور؟»

رمقتني شارلوت بنظرة خاطفة زيّنتها ابتسامة، وأغلقت الكتاب الذي كانت تضعه على فخذيها، وزفرت بهدوء، ثم نظرت إلى البعيد، إلى الأفق حيث رأينا الأطلنتيد تنبثق قبل سنة.

ـ توفي الرئيس بعد سنوات على زيارة نيقولا الثاني إلى باريس. . .

ثم كان هناك تردد قصير، توقف لا إرادي زاد من شدّ انتباهنا، لتضيف:

ـ توفي فجأة في الإليزيه، بين ذراعي عشيقته مارغريت ستاينهيل. . .

كانت هذه هي الجملة التي أثارت الحزن في طفولتي «توفي بين ذراعي عشيقته. . .»

رجّ الجمال التراجيدي لتلك الكلمات القليلة كياني، وتكسّر فوق رأسي عالم جديد.

زد على ذلك أني صُعقت بمنظر ذلك البوح قبل كل شيء آخر. فمشهد الحب القاتل ذاك حدث في الإليزيه! وفي القصر الجمهوري! في قمة هرم السلطة ذاك، والمجد والشهرة الاجتماعية. . . تخيّلت المكان باذخاً، بسجاد باريسي، ومذهبات، وصفوف المرايا. ووسط كل تلك الروعة هناك رجل (رئيس الجمهورية!) وامرأة متحاضنان بشكل محموم. . .

ولدهشتي أخذت من دون وعي أجعل ذلك المشهد الفرنسي مشهداً روسياً. بمعنى أن أبدّل بطليه الفرنسيين بمثيليهما المحليين. وهكذا أخذت سلسلة من الأشباح الغارقة حتى الرقاب في بذلاتها السوداء تبدو أمام ناظري، من أمناء سر المكتب السياسي، وسادة الكرملن: لينين وستالين وخروتشيف وبريجنيف. أربعة أشخاص بطباع مختلفة،

يحبهم أو يكرههم الشعب، وكل واحد منهم طبع عهداً بأكمله من تاريخ الإمبراطورية. ومع ذلك كانت لديهم ميزة مشتركة. حيث لم يكن إلى جوار أحدهم أي حضور نسوي. وذلك ما جعل فكرة وجود عشيقة أمراً لايمكن حتى التفكير فيه. وكان الأيسر بالنسبة لنا تصوّر ستالين رفقة تشرشل في إيطاليا مثلاً، أو ماو في موسكو، من أن نفترض أنه مع أم أبنائه...

«توفي الرئيس في الإليزيه، بين ذراعي عشيقته مارغريت ستاينهيل...» كانت هذه الجملة أشبه برسالة مشفرة آتية من كوكب آخر.

غادرت شارلوت لتبحث في الحقيبة السيبيرية عن بعض صحف تلك الفترة آملة أن تتمكن من أن ترينا صورة السيدة ستاينهيل. أما أنا، ولما كنت مشوّشاً بترجمتي الغرامية الفرنسية الروسية، فقد تذكرت ما سمعته في إحدى الليالي على لسان كسول متمايل هو رفيقي في الصف. كنا نمشي في أروقة المدرسة المظلمة بعد تمرين رفع الأثقال الرياضة الوحيدة التي يتقنها. عند مرورنا قرب صورة لينين صفر رفيقي بطريقة غير محترمة، ثم قال:

- هيه. لينين؟ لم يكن لديه أبناء، والسبب بكل بساطة أنه لم يكن يعرف كيف يمارس الجنس...

استعمل فعلاً فظاً للإشارة إلى ذلك النشاط الجنسي، الذي كان لينين بحسبه يفتقر إليه. فِعلٌ ما كنت لأجرؤ على استعماله وإذا ما انطبق على فلاديمير إيليتش أضحى فحشاً وحشياً. بذهول سمعت صدى ذلك الفعل المخالف للتقاليد يتردد على طول الممرات الخالية...

«فليكس فور... رئيس الجمهورية... بين ذراعي عشيقته...»
بدت لي أطلنتيد الفرنسية أكثر من أي وقت مضى *كأرض مجهولة*، حيث مفاهيمنا الروسية لم تعد رائجة.

جعلني موت فليكس فور أدرك عمري. كنت في الثالثه عشرة. وخمّنت ما يعنيه «أن يموت المرء بين ذراعي امرأة». وصار بالإمكان أن أحاور في مواضيع مماثلة. إضافة إلى ذلك أوضحت شجاعة قصص شارلوت والغياب الكلي للنفاق كل ما كنت أعلمه من قبل. ذلك أنها لم تكن جدة مثل باقي الجدات. كلا، لم تكن بابوشكا من تلك البابوشكات الروسيات لتنخرط في حديث مماثل مع حفيدها. استشعرت في حرية التعبير تلك نظرةً غريبة للجسد وللحب، وللعلاقات بين الرجل والمرأة. استشعرت «نظرة فرنسية» غامضة.

قصدت السهب صباحاً لأحلم وحيداً في التغيير العجيب الذي طرأ على حياتي عن طريق علمي بوفاة الرئيس. وكم كانت مفاجأتي كبيرة لما أعدت رؤية المشهد بالروسية لأجد أنه لم يكن جيداً التعبير عنه. بل كان ذلك مستحيلاً! ذلك أن رقابة مورست عليّ فجأة من قِبل حشمة كلمات غير مُفسّرة، وشُطبت فجأة بأخلاق صادمة. ثم قيلت الكلمة أخيراً، وبدت مترددة بين الفحش المرضي، والتورية التي حوّلت زوج العاشقين ذاك إلى شخصيّتي رواية عاطفية سيّئة الترجمة.

حدثت نفسي ممدداً على العشب المتموج بفعل الريح الساخنة:
«كلا، لايمكن أن يموت بين ذراعي مارغريت ستاينهيل إلا في اللغة الفرنسية...»

بفضل عاشقيْ الإليزيه فهمت ما كان غامضاً في تلك الخادمة الشابة

التي فوجئت في المغطس من قِبل سيّدها فمنحته نفسها برعب وحمّى حلم يتحقق أخيراً. أجل، فمن قبل كان الثلاثي الغريب المكتشف في إحدى روايات موباسان والتي قرأتها في فصل الربيع، حيث كان هناك غندور باريسي يسعى في طول الرواية وعرضها في إرضاء اشتهائه في حب غير ممكن لأنثى شكّلها اللطف المنحط، ويسعى إلى اقتحام قلب تلك المومس المخيفة واللامبالية، والشبيهة بسحلبية هشة، والتي تتركه دوماً يأمل عبثاً. وإلى جوارهما الخادمة المستحمة ذات الجسد القوي والسليم. لم أميّز عند قراءتي الأولى إلا هذا الثالوث الذي بدا لي مصطنعاً، ومن دون فاعلية. والحقيقة أن المرأتين ما كان بإمكانهما قط أن تعتبرا نفسيهما متنافستين...

وهكذا صرت أحمل نظرة جديدة إلى الثلاثي الباريسي. ذلك أنهم أضحوا واقعيين وشهوانيين يمكن لمسهم. كانوا أحياءً! فهمت الآن ذلك الخوف السعيد الذي ارتعدت به فرائص الخادمة الشابة وهي تُنتزع من المغطس وتُحمل مبللة إلى سرير. أحس دغدغة القطرات التي تتدلّى في منعرجات صدرها، وثقل ردفيها على ذراعي الرجل، حتى أني أستطيع رؤية اهتزاز الماء في المغطس الذي انتُزِع منه جسدها تواً. وأخذ الماء يهدأ شيئاً فشيئاً... والأخرى، سيدة المجتمع التي يشق الوصول إليها والتي ذكرتني من قبل بوردة جفت بين صفحات كتاب، بدت بحساسية ديماسية كثيفة. وكان جسدها يحبس حرارة معطرة، وعبيراً مضطرباً شكل من نبضات دمها ولمعان بشرتها ومن البطء المغري في كلماتها.

أعاد ذلك الحب القاتل الذي فجّر قلب الرئيس تشكيل فرنسا التي كنت أحملها بداخلي، والتي كانت وهمية بالأساس، حيث بدت

شخوصها الأدبية التي تلتقي بمحاذاة بعضها البعض في الشوارع تستيقظ في ذلك المساء المشهود بعد طول سُبات. كان الرجل منهم يستلّ سيفه فيما سبق، ويتسلق سلالم من الحبال، ويتجرع الزرنيخ، ويعلن حبه، ويسافر في عربة بأربعة جياد وهو ممسك برأس عشيقته المقطوع على فخذه. غير أنهم ما كانوا ليتركوا عالمهم الخيالي. كانوا غريبين جداً ولامعين، ولربما مضحكين، غير أنهم لم يكونوا يؤثرون في مثل ذلك الكاهن عند فلوبير، ذلك الراهب القادم من الضواحي الذي تُسِرّ له إيما بعذاباتها. ولم أكن أفهم أيضاً تلك المرأة «لكن ما الذي كانت ترغب فيه أكثر مما لديها؟ فهي في منزل جميل ومع زوج يعمل بكد وتحظى باحترام الجيران...»

ساعدني عاشقا الإليزيه على فهم *مدام بوفاري*. التقطت ذلك التفصيل بحس سريع جداً. أصابع الحلاّق التي تمشط وتُلَمّس بمهارة شعر إيما في ذلك الصالون الضيّق، حيث الهواء ثقيل وأضواء الشموع التي تطرد ظل المساء الضبابي. تلك المرأة الجالسة أمام المرآة تركت لتوّها عشيقها الشاب وتستعد في تلك اللحظة للعودة إلى بيتها. أجل، خمنت ما يمكن أن تشعر به امرأة تخون زوجها مساءً عند الحلاق وهي بين آخر قبلة من موعد في الفندق، والكلمات الأولى العادية جداً التي يجب أن توجّهها إلى زوجها... ومن دون أن أتمكن من تفسير ذلك أنا أيضاً سمعت شيئاً مثل حبل يرتعش في روح تلك المرأة. تردد صدى متناغم في قلبي. «أنا إيما بوفاري!» كذاك همس لي صوت قادم من نصوص شارلوت.

كان للوقت الذي يتدفق في أطلنتيدنا قوانينه الخاصة. لم يكن يتدفق بالتحديد، ولكنه يتموّج حول كل حادثة تذكرها شارلوت.

وكل واقعة حتى ولو كانت عرضية تلتصق إلى الأبد باليومي الذي يخص ذلك البلد. فسماؤه الليلية يعبرها دائماً مذنب، مع أن جدتنا تحدِّد لنا، استناداً إلى قصاصة من جريدة، التاريخ المضبوط لذلك الظهور في السماء وهو ١٧ شهر تشرين الأول/ أكتوبر سنة ١٨٨٢. وما عدنا نستطيع تصور برج إيفل من دون رؤية ذلك النمساوي المعتوه الذي قفز من المقعد المسنن، وقد خانته مظلته فهوى وسط حشد من المتسكعين. أما مقبرة الأب لاشيز فلم تكن بالنسبة لنا مقبرة هادئة، تجوس فيها همسات موقرة لبعض السياح. كلا، فبين قبورها كان الناس المسلحون يعدون في كل الاتجاهات متبادلين إطلاق النار، ويختبئون خلف النصب الجنائزية. ومنذ أن حُدِّثنا مرة عن ذلك القتال بين القرويين والفيرساويين ارتبط ذلك في أذهاننا باسم «الأب لاشيز». زد على ذلك أننا سمعنا صدى تراشق إطلاق النار في سراديب الأموات بباريس. ذلك بحسب شارلوت، كانوا يتقاتلون في متاهاتها. وكان الرصاص يهشم جماجم أموات توفوا قبل قرون طويلة. وإذا ما كنت سماء الأطلنتيد الليلية قد أضيئت بواسطة المذنب، وبواسطة المناطيد الألمانية، فإن السماء اللازوردية الندية كانت تمتلئ بصرير منتظم لطائرة أحادية السطح، إذ إن شخصاً يدعى لويس بليريو كان يعبر المانش.

وكان اختيار الأحداث ذاتياً شيئاً ما. وكان تسلسلها يخضع بصفة خاصة لرغبتنا المحمومة في المعرفة، ولأسئلتنا غير المرتبة. لكن مهما كانت أهميتها فإنها لم تكن أبداً تحيد عن القاعدة العامة، حيث الثريا التي سقطت من السقف عند عرض مسرحية *«فاوست»* في الأوبرا انتشر في الحين انفجارها البلّوري في كل القاعات الباريسية.

فمن المفترض في المسرح الحقيقي بالنسبة لنا أن يتوفر على ذلك الرنين الخافت لعنقود الزجاج الهائل، الذي نضج لينفصل عن السقف بفعل إضافة موسيقية أو مقطوعة إسكندرية[١]. . . أما بخصوص السيرك الباريسي الحقيقي فقد كنا نعلم أن المروِّض كانت تمزقه الوحوش دائماً مثل ذلك «الزنجي الملقب بديلمونيكو» الذي هاجمته لبوءاته السبع.

وكانت شارلوت تغترف معارفها تارة من الحقيبة السيبيرية وتارة أخرى من ذكريات طفولتها. وكانت حكاياتها في الغالب تعود إلى زمن بعيد جداً، رواها خالها أو ألبرتين اللذان ورثاها أيضاً عن والديهما.

أما نحن فلم يكن يعنينا تاريخ الأحداث الفعلي! فزمن الأطلنتيد لم يكن يعرف إلا التزامن العجيب للحاضر. وكانت آلة الباريتون الموسيقية المرتعشة في «فاوست» تصدح في القاعة: «دعني، دعني أتأمل وجهك. . .» ووقعت الثريا، وارتمت اللبوءات على سيء الحظ ديلمونيكو، وعبر المذنّب السماء الليلية، وطار المظلي من برج أيفل، واستغل لصّان اللامبالاة الصيفية ليغادرا اللوفر المظلم حاملين *الجوكندا*، وكان الأمير بورغيز ينفخ صدره مفتخراً بفوزه بأول سباق سيارات طويل ربط بين بكين وباريس عبر موسكو. . . وفي مكان ما، في ظل صالون سرّي في الإليزيه، كان رجل بشارب أبيض جميل يعانق عشيقته، ويختنق مع آخر قبلة.

كان ذلك الحاضر، ذاك الزمن الذي تتكرر فيه الحركات إلى ما لا

---

(١) من البحر الإسكندري، وهو بحر شعري من اثني عشر مقطعاً صوتياً. المترجم.

نهاية خدعة بصرية طبعاً. غير أنه بفضل تلك الرؤية الخادعة استطعنا اكتشاف بعض ملامح السلوكات الضرورية لدى سكان أطلنتيدنا. حيث كانت الشوارع الباريسية في حكاياتنا تهتز دوماً بانفجار القنابل. وكان عدد الثوار الذين يلقونها أكبر من الشابات المرحات أو من السوّاس على عرباتها. واقترنت في ذاكرتي لمدة طويلة أسماء بعض أعداء النظام الاجتماعي بفرقعة انفجار أو دويّ الأسلحة: مثل راڤاشول أو سانطو كازيريو...

أجل، ففي أحد تلك الشوارع التي بدت وكأن الرعد أصابها دويّ ظهرت لنا إحدى خصائص ذلك الشعب الذي كان ما يزال مستمراً في مطالبه وغير سعيد *بالوضع القائم* الذي حصل عليه، ومستعداً في أي لحظة أن يتدفق في الشوارع الرئيسية لمدينته من أجل أن يخلع حاكمه، وأن يرج، وأن يطلب. وكان لأولئك الفرنسيين أمام الهدوء الاجتماعي المثالي لوطننا ملامح الثوار بالفطرة، والمعارضين عن قناعة والمحتجّين المحترفين. وكانت الحقيبة السيبيرية التي تضم الجرائد التي تتحدث عن الإضرابات ومحاولات الاغتيال والقتال عند الحواجز تشبه هي أيضاً قنبلة كبيرة وسط نُعاس سارنزا الهادئ.

وعلى بعد شوارع من الانفجارات، ودوماً في ذلك الحاضر الذي لم يمضي، وقعنا من ثمّ على تلك الحانة الصغيرة الهادئة، التي قرأت لنا شارلوت من ذكرياتها باسمة «*أُوداتافيا دو نويلي*». وكانت تضيف محدّدة: «كان صاحب المطعم يقدّم شراب راتافيا الحكولي هذا في صدفات فضية...»

كان الناس في أطلنتيدنا إذن قادرين على الإحساس بارتباط عاطفي اتجاه مقهى، وأن يحبوا اسمه، وأن يميزوا جواً خاصاً به، وأن

يحفظوا على امتداد حياتهم ذكرى راتافيا تشرب في صدف فضية، هناك، عند زاوية شارع. أجل، لم يكن يشرب في أقداح من زجاج ماسيّ، أو في كؤوس، ولكن في صدفات رقيقة. كان ذلك اكتشافنا الجديد. ذلك الفن الساحر الذي يجمع بين مكان الأكل، وطقس الوجبة وانطباعها النفسي. كنا نتساءل: «هل كانت لحاناتهم المفضلة أرواحاً بالنسبة لهم أو على الأقل ملمحاً شخصياً؟». وكان في سارنزا مقهى وحيد. وعلى الرغم من اسمها الجميل *نديفة الثلج* لم تكن لتثير فينا أي إحساس خاص، تماماً مثل محل الأثاث المجاور لها، أو صندوق الادّخار المقابل. وكانت تقفل عند الساعة الثامنة مساءً. وكان داخلها المظلم، مع العين الزرقاء لقنديل، هو ما يثير فضولنا. أما بخصوص المطاعم الخمسة أو الستة في المدينة الواقعة على الڤولكا حيث تقطن عائلتنا. فقد كانت تتشابه جميعها. فعند الساعة السابعة تماماً كان البوّاب يفتح الأبواب أمام حشد بدأ يفقد صبره، لتدوّي الموسيقى الصاخبة ممزوجة برائحة الطعام في الشارع. وعند تمام الحادية عشرة كان الحشد نفسه المرتخي ينزل درجات المدخل الذي تقف قربه سيارة مُنارة تابعة للشرطة، مضيفة بعض الخيال لذلك الإيقاع الثابت... رددنا في صمت «صدفات الفضة في *راتافيا دو نويي*».

شرحت لنا شارلوت مكوّنات ذلك المشروب الغريب. وكانت الحكاية تتطرق بشكل طبيعي جداً لعالم الخمور. مكننا ذلك مفتونين بالدفق الملوّن من الأسماء والنكهات وعصفات الخمر من التعرف على كل تلك الكائنات العجيبة التي كان بإمكان القصر تمييز كل تلك الفوارق الدقيقة بينها. وكان الأمر يتعلق دوماً بصانعي الثورات الأهلية

أنفسهم! وتذكرنا بطاقات بعض القناني المعروضة في أروقة *نديفة الثلج*. ووصلنا إلى حتمية أنها كانت أسماء فرنسية «شامبانسكوي»، و«كونياك»، و«سيلفانير»، و«أليغوتي»، و«موسكا»، و«كاغور». . .

أجل، كان هذا التناقض على الأخص هو ما يجعلنا حائرين. ذلك أن محدثي الفوضى أولئك عرفوا كيف يحضروا نظام مشروبات متلاحم بقدر ما هو مركّب. أضف إلى ذلك، أن كل تلك الأعداد غير المحصورة من الخمور كانت تشكل بحسب شارلوت توافقاً غير محدود مع الأجبان! و كوّنت هذه الأخيرة بدورها موسوعة حقيقية من المذاقات والألوان المحلية، وتقريباً الأمزجة الشخصية. . . لم يكذب إذن رابولي الذي كان يلازم دوماً ليالينا في السهوب.

اكتشفنا أن الأكل، أجل، مجرّد ابتلاع الطعام، كان يمكن أن يكون إخراجاً مسرحياً طقساً وفناً. مثل *المقهى الإنجليزي*، في شارع الإيطاليين ذاك، حيث كان خال شارلوت يتناول عشاءه دوماً رفقة أصدقائه. وكان هو من روى لابنة أخته حكاية العشرة آلاف فرنك من أجل مئة. . . ضفدع! كان يتحدث متذكراً: «كان البرد قارساً، وكانت كل الأنهار مغطاة بالجليد. وكان يلزم المناداة على خمسين عاملاً لكي يشقوا ذلك الجليد لإيجاد الضفادع. . .». لم أعرف ما الذي فاجأني أكثر: الطبق غير المتخيل والذي يخالف مفاهيمنا فيما يتعلق بالطعام، أو كتيبة الموجيك (تخيّلنا أنهم فلاحون روس)، وهم يحاولون إذابة قطع الثلج الكبيرة في نهر السين المتجمد.

والحقيقة أننا بدأنا نفقد صوابنا. فهناك اللوفر و«*سيد*» في المسرح الفرنسي، والثورات الأهلية، وتبادل إطلاق النار في الشوارع الرئيسية، والأكاديمية، والنواب على متن زورق، والمذنّب،

والثريات التي أخذت تتساقط الواحدة في أثر الأخرى، وشلالات النبيذ الأشبه بتلك في النياغارا، وقبلة الرئيس الأخيرة... ثم تلك الضفادع التي أزعجت خلال سُباتها الشتوي! كنا أمام شعب بتعددية عجيبة من المشاعر والسلوكات والرؤى وطريقة الكلام والإبداع والحب.

ثم كان هناك، كما أخبرتنا شارلوت، ذلك الطاهي المشهور المدعوّ إيربان ديبوا الذي أهدى سارة برنار ثريدة بالقريدس والهليون. وكان علينا تخيّل بورتش (حساء الملفوف والزبدة الروسي) مهدى إلى أحدهم مثل كتاب... تبعنا يوماً أحد المتأنقين في شوارع الأطلنتيد وهو يدخل مقهى *ويبر*، وهو مقهى من الطراز الحديث جداً، بحسب خال شارلوت، ثم طلب ما يطلبه عادة: عنقود عنب وكأس ماء. كان الرجل هو مارسيل بروست. راقبنا العنقود والماء منبهرين وهما يتحولان إلى طبق أنيق لا يُضاهى. ليس المهم إذن تنوّع الخمور أو الوفرة الرابلية للمأكولات، ولكن...

عدنا لنفكر مجدداً في تلك الروح الفرنسية التي بذلنا جهدنا لفك لُغزها. أما شارلوت فكانت، كما لو أنها أرادت أن تزيد من شغفنا في البحث، تتحدث عن مطعم *بايار* على جادة أنتان، حيث اختطفت الأميرة كارامان شيماي في ليلة من الليالي من قِبل عازف الكمان تسيغان ريغو...

تساءلت في صمت من دون أن أجرؤ على تصديق ذلك: أليس الحب أصل ذلك الجوهر الفرنسي، الذي بحثنا عنه طويلاً؟ ذلك أن كل طرق أطلنتيد تلتقي في بلاد الرقة.

وكانت سارنزا غارقة في ليل السهوب العاطر. وكانت عطورها

تمتزج بالرائحة التي تعبق من ذلك الجسد الأنثوي المغطى بالجواهر وبفرو القاقُم. وكانت شارلوت تحكي عن عبث الإلهة أوتيرو. وبذهول لا يصدق رحت أتأمل تلك العاهرة الكبيرة الأخيرة، المنحنية على كنبتها ذات الأشكال المتموجة. ولم تكن حياتها المسرفة منذورة إلا للحب. وكان الرجال يضطربون حول عرشها. كان بعضهم يعدّون النابليونات الهزيلة[1] لثروتهم الفانية، وبعضهم يدنون ببطء فوّهة مسدساتهم من أصداغهم. وحتى في تلك الحركة الأخيرة كانوا يبرهنون بجدارة عن أناقةً جديرة بعنقود العنب الخاص ببروست. وقد انتحر أحد أولئك العشاق المساكين في المكان عينه الذي ظهرت له فيه كارولين أوتيرو أول مرة!

من جانب آخر لم يكن طقس الحب يعرف في ذلك البلد الغريب حدوداً اجتماعية. فبعيداً عن الصالونات التي كانت تفيض بذخاً، وفي الضواحي الشعبية، رأينا عصابتين متنافستين في بيلفيل تقتتلان بسبب امرأة. والفارق الوحيد هو أن شعر رأس الجميلة أوتيرو كان يلمع كجناح غُراب طنف، بينما كان شعر رأس المتنازع عليها يلمع مثل سنابل القمح الناضجة عند المغيب، وكان قطّاع طرق في بلڤيل يسمّونها خوذة الذهب.

وكان الحس النقدي يثور داخلنا في تلك اللحظة، ذلك أننا كنا على استعداد لتصديق وجود أكلة الضفادع، لكن لا أن نتخيل قطّاع طرق يذبح بعضهم بعضاً من أجل جمال امرأة!

والظاهر أن الأمر لم يكن مفاجئاً في أطلنتيدنا. ألم نرَ خال شارلوت يخرج مترنّحاً من عربة الجياد بعين مضطربة وبذراع مضمّدة

---

(١) نابوليون: عملة فرنسية. المترجم.

بمنديل بلّه الدم ـ كان قادماً من مواجهة ثنائية في غابة مارلي دفاعاً عن شرف إحدى السيدات. . . ثم ذاك الجنرال بولونجي، ألم يفجّر رأسه على قبر حبيبته؟

فوجئنا يوماً عند عودتنا من إحدى النزهات نحن الثلاثة بوابل من المطر. . . كنا نمشي في شوارع سارنزا العتيقة، المكوّنة أساساً من إسبات كبيرة سوّدها القِدم. ووجدنا مخبأ لنا تحت إفريز إحداها. والشارع الذي كان مختنقاً بالحرارة قبل دقيقة غرق في شفق بارد، وقد كسحته زخّات من البرد. كان مبلّطاً على النمط القديم بحجارة كبيرة ومستديرة من الغرانيت. وجعلت الأمطار رائحة أحجار مبللة تصعد منها. وكانت رؤية المنازل تختفي خلف ستار من ماء. وبفضل تلك الرائحة، كان يمكن للمرء أن يظن ليلاً أنه في مدينة كبيرة تحت أمطار خريفية. وكان صوت شارلوت الذي لا يكاد يتجاوز صوت القطرات أشبه بصدى أخرسته موجات المطر.

جعلني المطر أكتشف أيضاً الكتابة المحفورة على حائط رطب لأحد المنازل في ممر القذافين في باريس. كنا مختبئين أنا ووالدتي تحت سقيفة بيت منتظرين أن يهدأ المطر. ولم يكن أمام ناظرينا إلا شعار الشرف التذكاري. وقد حفظت كلماته عن ظهر قلب: «*في هذا الممر، اغتيل دوق أورليانز شقيق الملك شارل السادس عند خروجه من فندق باربيت على يد جون سان بير، دوق بورغونيا، في ليلة الثالث والعشرين إلى الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٤٠٧*». . . كان خارجاً من عند الملكة إيزابو دو بافيير. . .

صمتت جدتنا بيد أننا بقينا نسمع دوماً ومن خلال وشوشات القطرات تلك الأسماء العجيبة المحاكة في مشبكة تراجيدية من الحب والموت

حيث لويس السادس من أورليانز، إيزابو دو بافيير جان صان بير[١]. . .

فجأة، ومن دون أعرف السبب، تذكرت الرئيس. كانت فكرة واضحة جداً، وبسيطة جداً وبديهية. ذلك أنه خلال المراسم المرافقة للزوج الإمبراطوري، أجل، خلال موكب ساحة الإليزيه، وأمام قبر نابوليون، وفي الأوبرا، لم يتوقف عن الحلم بها، بعشيقته. مارغاريت ستاينهيل. كان يتحدث إلى القيصر، ويلقي الخطب، ويرد على القيصرة، ويتبادل النظرات مع زوجته. لكنها كانت حاضرة خلال كل ذلك الوقت.

كان المطر يجري على السقف المطحلب للإسبة العتيقة التي احتمينا عند درجات مدخلها. نسيت أين كنت، وتجسدت أمام ناظري المدينة التي زرتها من قبل رفقة القيصر. رأيته الآن بنظرة الرئيس العاشق.

كنت أشعر في تلك المرة التي كنت أترك فيها سارنزا بانطباع أني أعود من رحلة استكشاف. كنت أحمل معي كمّاً من المعارف، ولمحة عن العادات والتقاليد، ووصفاً ما تزال فيه فجوات للحضارة الغامضة التي تعود للحياة كل ليلة في عمق السهب.

كل مراهق هو مصنِّف بالضرورة، وهو رد فعل دفاعي أمام عالم الراشدين المركب الذي يمتص عتبة الطفولة. لربما كنت كذلك أكثر من الآخرين. ذلك أن البلد الذي اكتشفته لم يعد موجوداً، وكان عليّ إعادة تركيب طبوغرافية أماكنه المشرقة، وأماكنه المقدسة عبر ضباب الماضي الكثيف.

---

(١) هو جان (من دون خوف) بالترجمة إذا شئنا ترجمة اسمه العائلي.

كنت أفخر على وجه الخصوص بمعرض يخص الناس كنت أملكه في مجموعتي. فإضافة إلى الرئيس العاشق، والنواب على الزورق، والمتأنق بعنقود العنب، كانت هناك شخوص أخرى. وحتى لو أنها كانت أكثر تواضعاً فهي لا تقل غرابة. أولئك الأطفال، على سبيل المثال، عمال المناجم الصغار جداً بابتساماتهم المحاطة بالسواد، وبائع الجرائد الصارخ (لم نتمكن من تصوّر مجنون يستطيع العدو في الشوارع صارخاً: *«لابرافدا! لابرافدا!»*)، وجزّاز الكلاب الذي كان يزاول مهنته في الأرصفة، وناطور بطبله، ومتحلقين حول «حساء شيوعي»، وحتى بائع براز الكلاب. كنت فخوراً جداً بأن أعلم أن هذه البضاعة الغريبة كانت تستعمل في تلك الفترة لتليين الجلود...

غير أن تدريبي الكبير لذلك الصيف كان معرفة كيفية أن يصير المرء فرنسياً. تشكلت الأوجه العديدة لتلك الهويّة الفارة في شيء حيّ. كانت طريقة منظمة جداً للوجود على الرغم من جوانبها الشاذّة.

لم تعد فرنسا بالنسبة لي غرفة مستقلة حوت أشياء أثارت فضولي أضحت كائناً حسّاساً ووازناً تَطعَّم داخلي يوماً بجزء منه.

[٢]

ـ كلا. ما لا أستطيع فهمه هو لماذا أرادت أن تُدفَن في سارنزا، وكان بإمكانها أن تعيش بشكل جيد هنا، قربكم. . .

كدت أقفز من الكرسي العالي قرب جهاز التلفاز، ذلك أني فهمت جيداً السبب الذي جعل شارلوت تتشبّث بمدينة الضاحية الصغيرة تلك. كان من السهل عليّ تفسير اختيارها كل الراشدين المجتمعين داخل مطبخنا. كنت لأتطرّق إلى هواء السهب الكبير الجاف الذي يقطر الماضي في شفافيته الخرساء. وكنت لأتحدّث عن تلك الشوارع المغبرة التي لا تؤدي إلى أي مكان، وتفتح جميعها مسلكاً إلى السهل اللامنتهي. في تلك المدينة التي يحفل تاريخها بشذب رؤوس الكنائس، ونزع الزوائد المعمارية، وهو ما طرد كل مفهوم للوقت. مدينة تعني حياة المرء فيها إعادة إحياء ماضيه من دون توقف، وذلك بالاستمرار في تأدية الحركات اليومية بصورة آليّة.

لم أقل شيئاً. كنت أخشى أن أراني أطرد من المطبخ. وكنت قد لحظت منذ فترة أن الراشدين بدأوا يتسامحون بكل سهولة مع وجودي. كنت قد بلغت الرابعة عشرة من العمر، والواضح أني حصلت على الحق في حضور أحاديثهم التي كانت تتم في وقت متأخر، لكن على شرط أن أبقى غير مرئي. ولما كنت سعيداً بهذا

التحول لم أشأ على الخصوص أن أجازف بهذا الامتياز.

وصار اسم شارلوت يعود باستمرار في سهرات فصل الشتاء تلك مثلما كان يحدث من قبل. أجل، كانت حياة جدتي تمنح مدعوينا، تماماً مثلما كان يحدث من قبل، مادة للحديث تصون اعتداد كل منهم بنفسه.

ثم إن تلك الفرنسية كانت تتميّز بأنها جمعت في حياتها اللحظات الحاسمة لتاريخ بلدنا. فقد عاشت تحت حكم القيصر. واستطاعت أن تنجو من عمليات التطهير الستالينية. وتجاوزت الحرب. وعايشت سقوط العديد من الرموز. وكانت حياتها المنسوخة عن القرن الأكثر دموية للإمبراطورية تكتسب في أعينهم بُعداً ملحمياً.

كانت، وهي الفرنسية المولودة في الطرف القصي الآخر من العالم، تتابع بعينين فارغتين تموّج الرمال خلف باب عربة القطار المفتوح. (لكن أي شيطان أقحمها في تلك الصحراء الشنيعة؟، كذاك قال صديق والدي الطيار في أحد الأيام متعجباً). و جوارها كان زوجها فيودور يجلس بلا حراك أيضاً. وكان الهواء الذي يدخل المقصورة لا يحمل أي طراوة على الرغم من السرعة التي كان يتحرك بها القطار. وبقيا لفترة طويلة في كوّة النور والحرارة تلك. وكان الهواء يضرب جبهتيهما مثل ورق الزجاج. وكانت الشمس تكسّر المنظر إلى عشرة آلاف شظية، غير أنهما لم يتحركا. كانا كما لو أنهما أرادا أن يُمحى ماض قاس بذلك الاحتكاك وتلك الحرقة. كانا قد تركا بخارى لتوّهما.

كانت تُمضي الساعات الطوال بعد عودتهما إلى سيبيريا أمام نافذة سوداء وتنفخ بين الفينة والأخرى على طبقة الملاّح الكثيفة لتحفظ

دائرة صغيرة مذابة. وكانت تنظر إلى الشارع الليلي الأبيض عبر منظار الباب المائي. وفي بعض الأحيان كانت تنزلق سيارة ببطء مقتربة من البيت، وتغادر بعد فترة تردد. كانت الساعة تدق الثالثة صباحاً. وبعد دقائق كانت تسمع الصرير الحاد للثلج على درجات المدخل. وكانت تغلق عينيها للحظة قبل أن تقوم لتفتح الباب. كان زوجها يعود إلى البيت في تلك الساعة دوماً... وكان الناس يختفون أحياناً في العمل، وأحياناً أخرى في عزّ الليل. أما عندهم فكان يحدث ذلك دوماً بعد مرور سيارة سوداء في شوارع غمرتها الثلوج. وكانت على يقين بأنه لن يُصاب بمكروه ما دامت تنتظره أمام النافذة، نافخة على الملاّح. كان يستيقظ عند الساعة الثالثة ثم يرتب الملفات على مكتبه قبل أن يغادر تماماً مثل كل المواطنين في كل ربوع الإمبراطورية الذين يعلمون أن سيد البلد ينهي يوم عمله في الكرملن في الساعة الثالثة. وكان الجميع يسارعون من دون تفكير إلى تقليد ساعات عمله، حتى أن أحداً لم يفكر في أنه بسبب فارق التوقيت بين موسكو وسيبيريا، فإن «الساعة الثالثة صباحاً» تلك لم تكن تطابق شيئاً، وأن ستالين كان يستيقظ من فراشه في تلك اللحظة وقد حشا غليونه الأول لذلك اليوم. أما في مدينة سيبيرية، حيث الليل قد حل، فكان رعاياه الأوفياء يصارعون النوم على مقاعدهم التي تتحوّل إلى أدوات تعذيب. وبدا أن السيد يفرض من الكرملن تقييمه لتدفق الوقت حتى على الشمس. فعندما كان يذهب لينام كانت كل ساعات الكون تشير إلى الساعة الثالثة صباحاً. هذا ما كان يعتقده الجميع في تلك الفترة على الأقل.

في أحد الأيام، ولما أصاب الإرهاق شارلوت من تلك الانتظارات

الليلية، غفت بعض الوقت قبل حلول تلك الساعة الكونية. وبعد لحظة استفاقت قافزة، ذلك أنها سمعت خطوات زوجها في غرفة الأطفال. دخلت ورأته منحنياً فوق سرير طفلهما، ذاك الطفل ذو الشعر الأسود والأملس الذي لم يكن يشبه أحداً من العائلة. . .

لم يُعتقل فيودور في مكتبه نهاراً، ولم يُجرّ في بداية الصباح، من نومه بطرْق سلطوي على الباب. كلا، حدث ذلك في ليلة رأس السنة. كان يرتدي بغرابة المعطف الأحمر لبابا نويل، وكان وجهه يذهل الأطفال خلف لحيته الطويلة التي جعلتهم لايتعرفون عليه. وكان ذلك الطفل ذو الثانية عشرة من العمر وأخته الأكبر سناً، أمي. كانت شارلوت تسوّي الشابكا على رأس زوجها عندما اقتحموا الشقة. دخلوا دون أن يضطروا إلى طرق الباب، إذ إن الباب كان مفتوحاً لأنهم ينتظرون المدعوين.

مشهد الاعتقال ذاك الذي تكرر ملايين المرّات في عشرية واحدة من حياة ذلك البلد كان تلك الليلة بديكور شجرة عيد الميلاد، وبذينك الطفلين، بقناعيهما الكرتونيين. هو كأرنب وهي كسنجاب. وفي وسط تلك الحجرة كان بابا نويل مسمّراً في مكانه ومخمّناً جيداً ما سيعقب ذلك. وكان شبه سعيد بأن الطفلين لن يلحظا شحوب خدّيه خلف اللحية القطنية. خاطبت شارلوت بصوت هادئ جداً الأرنب والسنجاب اللذين كانا يراقبان الدخيلين من دون أن ينزعا قناعيهما:

ـ هيا فلنذهب جانباً. ستوقظان نيران المشاعل.

تحدثت بالفرنسية، فتبادل العميلان نظرة خفية لشيء مضمر. . .

نجا فيودور بالشيء الذي كان سيفقده بشكل منطقي، وهو جنسية

زوجته. . . فعندما بدأ الناس سنوات قبل ذلك يُفقدون، عائلة في أثر عائلة، وبيتاً وراء بيت، فكر في ذلك مباشرة. وكانت شارلوت تحمل عيبين خطيرين عادة ما ألصقا بـ«أعداء الشعب» وهما أصولها «البورجوازية»، والعلاقة مع الخارج. ولما كان متزوجاً «عنصراً بورجوارزياً» وفرنسية المولد، فقد رأى نفسه متهماً بشكل طبيعي بأن يكون «جاسوساً يُدفَع له من قبل الإمبرياليين الفرنسيين والبريطانيين». وهي الصيغة التي أضحت اعتيادية منذ فترة.

غير أن حتمية الأمر الكاملة تلك هي ما عطلت آلة القمع المصقولة بشكل جيد. فقد جرت العادة، عند إعداد قضية ما، أن يُلفوا أنفسهم مجبرين على إظهار أن المتهم أخفى، بمهارة ولسنوات طويلة، علاقاته مع الخارج. وعندما يتعلق الأمر بسيبيري لا يتحدث إلا لغته الأم، ولم يغادر قط موطنه أو يلتقي ممثلاً عن العالم الرأسمالي، فإن تقديم دليل مماثل، وإن كان مزوّراً بالكامل، كان يتطلب بعض المهارة.

ولم يكن فيودور، على العكس من ذلك، يخفي شيئاً. ذلك أن جواز سفر شارلوت يشير حبراً على ورق إلى جنسيتها الفرنسية، وإلى مسقط رأسها مدينة نويي سير سين، وهو ما يثبت أنها غريبة في السجلات الروسية. وكانت أسفارها إلى فرنسا، وأقاربها «البورجوازيون» الذين يعيشون دوماً هناك، وولداها اللذان يتحدثان الفرنسية تماماً مثلما يتحدثان الروسية، كل ذلك كان واضحاً تماماً، فالاعترافات الملفقة التي كانت تنتزع عادة تحت التعذيب بعد أسابيع من الاستنطاق كانت متوفرة. وفي تلك المرة حلت الرعاية منذ البداية، ولم تبرح الآلة مكانها السابق، إذ أودع فيودور السجن. ولما

أضحى وضعه يسبب ضيقاً مع مرور الوقت تم نقله إلى الطرف القصيّ من الإمبراطورية في مدينة ملحقة ببولونيا.

كانا قد أمضيا أسبوعاً معاً، أي كل فترة الرحلة عبر البلد، ويوماً طويلاً وغير منظم من أجل توضيب الأغراض. وقصد فيودور موسكو في اليوم الموالي من أجل إعادة إدماجه بالحزب الذي طرد منه على وجه السرعة. قال محدثاً شارلوت التي رافقته إلى محطة القطار: «سيتطلب الأمر يومين». وعند عودتها إلى البيت لاحظت أنه نسي علبة سيجاره على الطاولة. سيضرب جبهته ويصيح متعجباً «يا لي من غبيّ! لقد بحثت عنها في كل مكان...» أجل، ستكون تلك الصبيحة من شهر حزيران/ يونيو أول أيام دفق طويل من الأيام السعيدة...

التقيا بعد أربع سنوات، ولم يجد فيودور أبداً علبة سيجاره. ذلك أن شارلوت قايضتها خلال الحرب بقرص خبز أسود.

كان الراشدون يتحدثون. وكان جهاز التلفاز يشعل خلفية ضوئية هادئة بأخباره المتألقة، وأصداء إنجازات الصناعة الوطنية، وحفلات البلشوي. وكانت الفودكا تلامس الماضي حد المرارة. وأحسست أن مدعوينا، حتى حديثو العهد منهم، أحبوا جميعاً هذه الفرنسية التي قبلت من دون تردد مصير بلادهم.

مدتني تلك النصوص بالكثير من المعلومات. خمّنت لماذا كانت احتفالات رأس السنة في عائلتنا تشكل صدى قلقاً يشبه هيئة متكتّمة لتيار هواء ماكر يصفق أبواب بيت خال عند الغسق. وعلى الرغم من الهدايا، ومن أصوات المفرقعات، وتلألؤ شجرة عيد الميلاد، فأن ذلك الكدر غير المحسوس كان حاضراً دوماً. كان الأمر كما لو أننا،

في غمرة الأنخاب وطقطقة السدّادات والضحكات، كنا ننتظر قدوم أحدهم. حتى أني أعتقد أن والديّ كانا يستقبلان الهدوء الثلجي المعتاد في الأيام الأولى لشهر كانون الثاني/يناير، بنوع من الارتياح، وإن كانا لا يظهران ذلك. على كل حال، كنا أنا وأختي، نفّضل الأيام التي تأتي بعد الأعياد أكثر من الأعياد نفسها...

وكانت لأيام جدتي في روسيا ـ تلك الأيام التي أضحت في وقت من الأوقات حياتها بكل بساطة وليست «مرحلة روسية»، قبل عودتها إلى فرنسا نغميّة سرّية لم يتمكن الآخرون من تمييزها كنفحة غير مرئية تحملها شارلوت عبر ذلك الماضي الذي عاد للظهور في مطبخنا الذي يملأه الدخان. حدّثت نفسي بانبهار: «هذه المرأة التي كانت تنتظر لشهور وشهور دقات الساعة الثالثة صباحاً المشهودة أمام النافذة التي يكسوها الجليد، هذه المرأة كانت الشخص الغامض نفسه والقريب جداً الذي رأى في يوم من الأيام صدفات الفضة في مقهى بنوبي!»

لم يَفتْهُم أبداً في حديثهم عن شارلوت أن يمرّوا على تلك الصبيحة...

استيقظ ابنها فجأة في جوف الليل. قفز من سريره الذي يطوى. قصد النافذة بقدمين عاريتين وذراعين ممدودتين إلى الأمام. وعندما كان يعبر الغرفة الغارقة في الظلمة اصطدم بسرير أخته. ولم تكن شارلوت نائمة أيضاً. كانت مستلقية بعينين مشرعتين في الظلمة محاولة فهم مصدر ذلك الصوت المركز والرتيب الذي بدا أنه أشبع الجدران باهتزازات خرساء. أحسّت جسدها. كان رأسها يهتز لذلك الضجيج البطيء واللزج. استيقظ الطفلان وجريا نحو النافذة. وسمعت شارلوت صرخة ابنتها المندهشة:

ـ آه! يا لكل هذه النجوم! لكنها تتحرك. . .

لحقت بهما شارلوت من دون أن تشعل النور وعند مرورها رأت شيئاً يلمع على الطاولة. كان انعكاساً معدنياً غامضاً. وكان لعلبة سيجار فيودور. كان من المقرر أن يعود من موسكو صباح الغد. ثم رأت صفاً من النقاط المتلألئة التي أخذت تنزلق ببطء في السماء الليلية.

قال الفتى بصوت هادئ من دون أن يغيّر أبداً من نبرته:

ـ طائرات. أسراب كاملة منها. . .

زفرت الفتاة، وقد فتحت عينيها الثقيلتين نعاساً:

ـ لكن أين تذهب جميعها؟

وضعت شارلوت يديها على كتفيهما، وهي تقول:

ـ اذهبا للنوم! لا شك أنها عمليات تخص جيشنا. أنتم تعلمون أن الحدود قريبة جداً. هذه العمليات أو التدريبات من أجل عرض جوي. . .

سعل الإبن وقال بهدوء كما لو أنه يحدّث نفسه محتفظاً دوماً بنبرة الحزن الهادئة التي كانت تدعو للدهشة لدى ذلك المراهق:

ـ أو لعلها حرب. . .

ردت عليه شارلوت:

ـ لا تتفوّه بالحماقات يا سيرغي. اذهبا إلى فراشيكما فوراً، فغداً سنذهب لاستقبال والدكما في محطة القطار.

عندما أضاءت مصباح السرير نظرت إلى ساعتها: «الثانية والنصف، إذن سنقوم بذلك اليوم. . .»

ولم يكن لديهم الوقت ليناموا. فقد أخذت القنابل الأولى تمزّق

سكون الليل. كانت أسراب الطائرات التي حلّقت قبل ساعة فوق المدينة تستهدف مناطق منزوية في عمق البلد. وبدا هجومها أشبه بزلزال. لم يشرع الألمان في قصف الشريط الحدودي إلا عند الساعة الثالثة والنصف مخلين الطريق لقواتهم البرية. وأَلْفَتْ تلك المراهقة التي غلبها النعاس، والدتي، والمنبهرة بكوكبة النجوم المتلألئة بغرابة والمنظمة جداً، ألفت نفسها في الواقع في لحظة خاطئة معترضة بين السلام والحرب.

أضحى ترك البيت شيئاً مستحيلاً تقريباً. كانت الأرض ترج. وأخذ القرميد ينزلق صفاً في أثر صف من السقف، وينكسر محدثاً صوتاً جافاً على درجات المدخل. وغلّف صوت الانفجارات الحركات والأقوال بصمم كثيف.

وأخيراً نجحت شارلوت في دفع الطفلين خارجاً. وخرجت حاملة حقيبة أثقلت ذراعيها. ولم يعد هناك من زجاج في البنايات المقابلة. وأخذ ستار يتموّج بفعل ريح استفاقت لتوّها. واحتفظ لون الثوب الفاتح في حركته بكل رقة صباحات السلام.

وكان الشارع المؤدي إلى محطة القطار مملوءاً بقطع الزجاج المنثورة والأغصان المكسرة. وفي بعض الأحيان كانت شجرة مشطورة نصفين تقفل الطريق. وكان عليهم في إحدى اللحظات أن يتجنبوا حفرة لغم كبيرة. وصارت جموع الفارين أكبر عند تلك النقطة تحديداً. وعندما كان الناس الحاملين حقائبهم يبتعدون عن الحفرة كانوا يتدافعون. وفجأة، عندما ميّز بعضهم بعضاً، وحاولوا أن يتحدثوا، حدثت موجة الصدمة التائهة بين المنازل، فأخرستهم بصدى أصم. كانوا يحركون أذرعهم بقلة حيلة، ويتابعون فرارهم.

عندما لمحت شارلوت محطة القطار عند نهاية الشارع أحسّت بأن حياتها بالأمس مندفع في ماض بلا رجعة. وحده جدار الواجهة بقي صامداً وكان بالإمكان رؤية سماء الصباح الشاحبة عبر إطارات النوافذ الفارغة...

أخيراً اخترق الخبر الذي رددته مئات الأفواه ضجيج القنابل. كان القطار الأخير المتوجه إلى الشرق قد غادر قبل وقت قصير محترماً بدقة غير معقولة مواقيته الاعتيادية. وتزاحمت الجموع عند أنقاض محطة القطار لتتوقف عن الحركة قبل أن يسحقها زعيق طائرة، لتجبر على الاختفاء في الشوارع القريبة، وتحت أشجار إحدى الحدائق العامة.

أخذت شارلوت تقلب ناظريها بحيرة حولها. كانت هناك لافتة ملقية عند قدميها وقد كتب عليها «لا تعبروا السكة الحديدية! خطر!» غير أن السكة الحديدية المنزوعة بفعل الانفجارت لم تعد إلا خطوط سكة معوجّة ومتيبّسة على رافعة خرسانية لأحد الجسور. كانت باتجاه السماء وأضحت عارضتاها أشبه بسلّم خارق يقود مباشرة إلى السحاب.

فجأة سمعت صوت ابنها الهادئ والذي همس كما لو أصابه الملل: «هناك قطار بضائع يستعد للمغادرة».

ورأت في البعيد موكباً من عربات كبيرة داكنة تهتز حولها تماثيل بشرية صغيرة. أمسكت شارلوت قبضة حقيبتها، وحمل الطفلان حقيبتيهما.

عندما وصلوا إلى العربة الأخيرة ارتج القطار. وسمعت زفرة سعادة فزعة تحيي انطلاقته تلك. ثم ظهرت كومة متراصّة من الناس

المذعورين بين الحواجز المنزلقة. ولما أحست شارلوت ببطء حركاتها المثيرة لليأس دفعت ابنها داخل الفرجة التي أخذت تبتعد ببطء. قفز ابنها وتناول الحقيبة، أما أخته فقد أخذت تسرع خطوها لتمسك باليد التي مدها لها الفتى. أمسكت شارلوت الفتاة من خاصرتيها ثم رفعتها ونجحت في وضعها على طرف العربة المكتظة. وصار لزاماً عليها الآن أن تعدو محاولة في الوقت عينه أن تتشبث بسُقاطة الباب الحديدية. لم يستمر المشهد إلا ثانية غير أنها كافية لترى وجوه الناجين المجمدة، ودموع ابنتها، ولتلاحظ وضوح خارق للعادة، الخشب المتصدع لحاجز العربة...

تعثرت، وسقطت على ركبتيها. أما البقية فقد حدثت بسرعة حد أنها ظنت أنها لم تلامس حصباء الردم البيضاء. ضغطت يدان بقوة على أضلاعها، وأخذت السماء تتموّج بشدة، ثم أحست نفسها تُدفع داخل العربة. وفي إشراقة خاطفة رأت قبعة أحد عمال السكة الحديد، وجسد رجل ارتسم جانباً في لحظة خاطفة في الضوء المعاكس للنهار الذي يعبر الحواجز المشرعة.

عند منتصف النهار كان الموكب يعبر مينسك. وكانت الشمس تبدو حمراء من خلال الدخان الكثيف كما لو أنها لكوكب آخر. وكانت تحلّق بعض الفراشات الجنائزية ويتطاير الرماد المخملي. ولم يستطع أحد أن يفهم كيف تمكنت المدينة من أن تتحول في بضع ساعات حرب إلى كل تلك الصفوف من الهياكل السوداء.

وكان القطار يتقدم ببطء متلمّساً ذلك الشفق المتفحم، تحت أشعة شمس ما عادت تؤذي. وكانت السماء مملوءة بهدير الطائرات، وبذلك الصفير الثاقب فوق المقطورة المتبوع بزخات رشاش فوق سطحها.

عند مغادرتهم لمدينة المحترقة رأوا بقايا قطار دمّرته القنابل. كان هناك العديد من العربات التي انقلبت على الردْم، في حين وقع بعضها الآخر، أو تداخلت نتيجة لاصطدام رهيب محدثة حاجزاً بالسكة الحديد. وكان هناك بعض الممرضين الغارقين في خدر عجزهم أمام عدد الأجساد الممددة. وكان بعض الممرضين يتنقلون على امتداد الموكب. وكانت هناك دوائر بشرية في تلك الحفر السوداء، وأحياناً ذراع معلقة في نافذة مكسرة. وكانت الأرضية مغطاة بالأمتعة المنثورة. وما كان يثير الدهشة أكثر هو عدد الدمى التي كانت مطروحة في معابر السكك الحديد وعلى العشب. إحدى تلك العربات التي بقيت على السكة الحديد كانت تحمل لافتة مكّنت من التعرف على وجهة القطار. أدركت شارلوت أن الأمر يتعلق بالقطار الذي لم تتمكن من ركوبه في الصباح عينه. أجل، القطار الأخير الذي يقصد الشرق والذي احترم مواقيته لفترة ما قبل الحرب.

مع حلول الليل زادت سرعة القطار. أحست شارلوت بابنتها تستند إلى كتفها وقد تملكتها قشعريرة. وهكذا قامت لتترك الحقيبة الكبيرة التي كانت تجلس عليها. وكان لزاماً الاستعداد لليل، وإخراج الثياب الساخنة، وكيسي بيسكويت. فتحت شارلوت السدّادة وأدخلت يدها قبل أن تتجمد في مكانها. لم تتمكن من منع صرخة خاطفة أيقظت من حولها.

كانت الحقيبة ملأى بالجرائد البالية! في غمرة هلع ذلك الصباح حملت معها الحقيبة السيبيرية...

ولما كانت غير مصدقة عينيها أخرجت ورقة صفراء واستطاعت القراءة على ضوء الشفق: «رد النواب وأعضاء مجلس الشيوخ على

عجل ومن دون تمييز للرأي على الدعوة الموجهة إليهم من قِبل السيدان لوبي وبريسون... واجتمع كبار ممثلي أجهزة الدولة في صالة ميرا...»

أغلقت شارلوت الحقيبة بحركة مُسرنِم، ثم طفقت تنظر حولها هازة رأسها هزات خفيفة كما لوأنها كانت تريد إنكار أمر بديهي.

ـ توجد في حقيبتي سترة قديمة، ثم إني جمعت الخبز من المطبخ عندما كنا نغادر...

تعرفت إلى صوت ابنها. بدا كأنه خمّن اضطرابها.

في الليل نامت شارلوت مدة حلم سريع. كان عبارة عن خليط من أصوات وألوان الماضي... أيقظها أحدهم عندما قصد المخرج. كان القطار قد توقف وسط الحقول. ولم يكن الهواء الليلي بمثل السواد الكثيف في المدينة التي فروا منها. وبدا السهل الممتد أمام المستطيل الشاحب للباب المشرع يحفظ دوماً اللون الرمادي لليالي الشمال. وكانت الأعين عندما تألف الظلمة يمكنها أن تميّز جوار خط السكة الحديد، وفي ظل أجمة، محيط إسبة نائمة. وإلى الأمام، في مرج يحاذي الردْم رأت حصاناً. كان الصمت عميقاً حد أنه يمكن سماع صرير تويجات النبات المنزوعة ووقع الخطى الليّن للنعال على الأرض الرطبة. وبصفاء مر فاجأها أنصتت شارلوت لهذه الفكرة الشفافة وهي تولد ويتردد صداها في روحها: «كان هناك ذلك الجحيم من المدن المحترقة. وبعد ساعات ـ هذا الحصان الذي يرعى العشب المليء بالندى في طراوة الليل. هذا البلد أكبر من أن يتمكّنوا من هزمه. سيقاوم صمت هذا السهل اللامتناهي قنابلهم...»

لم تحس أبداً نفسها قريبة جداً من تلك الأرض مثلها اليوم.

في أشهر الحرب الأولى تخلل نومها عرض دائم للأجساد المبتورة التي كانت تجالسها في عملها الذي يمتد أربع عشرة ساعة في اليوم. كان الجرحى يجلبون في مواكب كاملة إلى تلك المدينة التي تبعد عن خط الجبهة حوالي مئة كيلومتر. وعادة ما كانت ترافق شارلوت الطبيب الذي يقصد محطة القطار لاستقبال تلك القطارات الملأى بالأجساد البشرية المشوّهة. وبالتالي كان يحدث أن ترى في خط السكة الحديد المقابل قطاراً آخر مليء بجنود استدعوا حديثاً يسلكون الاتجاه المعاكس قاصدين الجبهة.

وكانت رؤية حركة الأجساد المشوّهة لا تتوقف أبداً، حتى في نومها. كانت تعبر أحلامها وتتجمع عند حدود لياليها تنتظرها. تماماً مثل جندي المشاة ذاك الذي انتُزع فكه السفلي والذي يتدلى لسانه على ضمادة قذرة. وآخر فقد عينيه ووجهه... لكن على الخصوص أولئك الذين فقدوا أذرعاً أو أرجلاً وباتوا بجذوع فظيعة من دون أعضاء، وبنظرات أعماها الألم واليأس، وهم كثر.

أجل، كانت تلك الأعين على الخصوص هي ما يمزق الحجاب الهش لأحلامها. كانت تشكل كوكبة متلألئة في الحلكة، وتتعقبها حيثما توجهت، متحدثة إليها في صمت.

في إحدى الليالي (وكانت أرتال من الدبابات تعبر المدينة)، كان نومها هشاً أكثر من أي وقت مضى ـ سلسلة من لحظات النسيان الخاطفة، ومن يقظات وسط ضحكات المجنزرات المعدنية. بدأت شارلوت تتعرف فجأة في خلفية إحدى مناماتها على كل تلك الكوكبة من الأعين. أجل، كانت قد رأتها من قبل في أحد الأيام في مدينة أخرى، وفي حياة أخرى. استفاقت متفاجئة أنها لم تعد تسمع أدنى

صوت. كانت الدبابات قد غادرت الشوارع. وكان الصمت يصيب بالصمم. وفي ذلك الظلام الكثيف الأخرس عادت شارلوت لترى من جديد عيون جرحى الحرب الكبرى. و فجأة أخذ زمن مستشفى نويي يدنو. فكرت شارلوت: «كان ذلك بالأمس فقط».

قامت وقصدت النافذة لتقفل كوّة فيها. توقفت حركتها عند نصف المسافة. كانت العاصفة البيضاء تغطي المكان بضربات متواترة (ثلج أول شتاء في هذه الحرب) على الأرض التي كانت ما تزال سوداء. سحبت السماء المملوءة بأمواج الثلوج نظرها إلى أعماق متحركة. فكرت في حياة الناس وفي موتهم، وفي وجود كائنات من دون أذرع أو أرجل وبأعين مشرعة في الليل، في مكان ما تحت تلك السماء الصاخبة.

هكذا بدت الحياة كتتمة مملة للحروب ورتق دائم للجروح المفتوحة دوماً، وفرقعة الحديد على البلاطات الرطبة... أحست نديفة ثلج تقع على ذراعها. أجل، هذه الحروب التي لا تنتهي، وتلك الجراح، وفي عمرة الانتظارات السرية في قلبها، كانت لحظة الثلجة الأولى هذه.

اختفت نظرات معطوبي الحرب من أحلامها مرتين فقط خلال الحرب. بداية عندما مرضت ابنتها بالتيفوس، وكان لزاماً عليها أن تجد خبزاً وحليباً مهما كلفها الأمر. (كانوا يأكلون منذ عدة أشهر قشارة البطاطس.) وفي المرة الثانية عندما تسلمت من الجبهة إعلان وفاة... كانت قد وصلت من المستشفى صباحاً وبقيت هنالك الليل كله، آملة أن يهدها الإرهاق، مخافة أن تعود إلى بيتها، وأن ترى ابنيها، وأن تكون مجبرة على الحديث إليهما. جلست حوالي

منتصف الليل أمام المدفأة، مسندة رأسها إلى الحائط. أغمضت عينيها فألفت نفسها على الفور في أحد الشوارع... سمعت أصوات الأرصفة الصباحية، وتنفست الهواء المضيء لشمس شاحبة مائلة. وعندما كانت تمشي في تلك المدينة التي كانت ما تزال تغفو تعرفت في كل خطوة من خطواتها على طبوغرافيتها الساذجة، حيث مقهى المحطة والكنيسة وساحة السوق... أحست ببهجة غريبة في قراءة أسماء الشوارع، وفي رؤية انعكاس النوافذ، وأوراق الأشجار في الحديقة العامة خلف الكنيسة. سألها من كان يمشي جوارها بأن تترجم له أحد تلك الأسماء. وهكذا خمنت الشيء الذي يجعل تلك النزهة الصباحية في المدينة يثير سعادتها...

خرجت شارلوت من إغفاءتها محتفظة في حركة شفتيها بآخر ما قالته هناك. ولما فهمت أن حلمها كان شيئاً مستبعداً ـ كانت هي وفيودور في تلك المدينة الفرنسية في صباح خريفي مضيء ـ عندما أقحمت الوهمية المطلقة لتلك النزهة مع أنها كانت بسيطة. أخرجت من جيبها ورقة مستطيلة صغيرة وأعادت للمرة المئة قراءة نبأ الوفاة المطبوع بحروف مضبّبة وباسم زوجها الذي كتِب بخط اليد بمداد بنفسجي. كان أحدهم قد بدأ يناديها من طرف الممر، ذلك أن موكب الجرحى الجديد كان على وشك الوصول.

«سماوريون[1]!»، كذاك كان والدي وأصدقاؤه يلقبون أحياناً في أحاديثهم الليلية أولئك الجنود من دون أذرع أو أرجل. تلك الجذوع الحية ذوات العيون التي جمعت كل يأس العالم. أجل، كانوا

(١) سماور: غلاية روسية. المترجم.

سماوريين. وكانوا بأطراف أفخاذ تشبه أرجل ذلك الوعاء النحاسي وبجذعات أكتاف مماثلة لمقبضيه.

كان مدعوونا يتحدثون عنهم بوقاحة طريفة مُزجت بسخرية ومرارة. وكان «الساماور» الساخر والوحشي يعني أن الحرب كانت بعيدة، وأنها منسيّة من قِبل البعض، أو من دون مصالح بالنسبة للبعض الآخر، لنا نحن الذين رأينا النور بعد عشر سنوات من انتصارهم. وكنت أفكر أنهم كانوا يذكرون ماضي تلك الوقاحة التي كانت محتقرة بعض الشيء حتى لا يبدوا مثيرين للحزن، من دون الإيمان بالربّ أو بالشيطان بحسب مثل روسي. كُشِف لي فيما بعد السر الحقيقي لتلك النبرة المقززة. فـ«الساماور» كان روحاً منهوشة من قِبل قطعة لحم مبتورة، ودماغاً فصِل عن الجسد، ونظرة من دون قوة دبقة في العجينة الإسفنجية للحياة. كان الناس يلقبون الروح الممزقة «سماور».

روايتهم لحياة شارلوت كان بالنسبة لهم أيضاً طريقة لعدم بسط جروحهم وآلامهم. ثم إن المستشفى الذي كانت تعمل فيه لما كان يخلط بين المئات من الجنود القادمين من كل الجبهات، فقد كان يكشف عدداً لا يحصى من الأقدار، ويراكم مثله من الحكايات الشخصية.

ذاك الجندي على سبيل المثال الذي أذهلني دوماً بساقه المحشوّة بـ. . . الخشب. كانت شظية قد التصقت أسفل فخذه قد سحقت ملعقة خشبية، وهو يحملها مزروعة على طول ساق حذائه العالي. لم تكن الإصابة خطيرة غير أنه كان يلزم إزالة كل البقايا. «كل الشوكات» بحسب شارلوت.

وكان جريح آخر يئنّ على امتداد النهار مؤكداً أن ساقه تسبّب له الحكة تحت الجبص حد «انتزاع أحشائه». كان يتلوّى ويحكّ القوقعة البيضاء كما لوأن أظافره يمكنها أن تصل إلى جرحه. وكان يصيح مستعطفاً: «انزعوها، إنها تقرضني. انزعوها وإلا كسرتها بنفسي بواسطة سكين!». أما الطبيب الرئيسي الذي لم يكن يترك مِبضعه لاثنتي عشرة ساعة فلم يكن يودّ سماع شيء. ذلك أنه كان يعتقد أنه إزاء نحّاب. وكان يخاطب نفسه قائلاً: «أما الساماوريون فلا يشتكون أبداً». وكانت شارلوت هي من أقنعته بإجراء عملية جراحية في فتحة صغيرة للجبيرة، وهي أيضاً التي نزعت بواسطة ملقط صغير دودات قز من اللحم المدمى وطهرت الجرح.

عند سماعي تلك القصة ثار كل شيء في داخلي. واهتز جسدي أمام تلك الصورة من التفكك. أحسست الموت يلامس جسدي ملامسة مادية. وبعينين جاحظتين أخذت أنظر إلى الراشدين الذين تسلّيهم تلك المشاهد المتشابهة بالنسبة إليهم، حيث قطع من الخشب في الجروح والدود...

ثم كان ذلك الجرح الذي لم يشأ أن يلتئم على الرغم من أنه كان يندمل بشكل جيد. فقد كان ذلك الجندي الهادئ والجدي قد بقي راقداً على عكس الآخرين الذين أُجريت لهم عملية لتوّهم والذين يمشون في الممرات. انحنى الطبيب على تلك الساق ثم هز رأسه. ذلك أنه تحت الضمادة كان الجرح الذي شدّ بالأمس ببرنيق رقيق في الجلد ينزف مجدداً، وكانت جوانبه المعتمة أشبه بدانتلا ممزقة. قال الطبيب متفاجئاً: «غريب!» غير أنه لم يكن يستطيع أن يتأخر أكثر من ذلك. قال للمرضة المداومة وهو يتسلل بين الأسرة التي التصق

بعضها ببعض: «أعدّي له ضمادة أخرى!»... وفي الليلة الموالية اكتشفت شارلوت الجريح من دون إرادة مسبقة منها. فقد كانت الممرضات كافة يضعن أحذية بكعوب عالية تملأ الممرات بطرقات عجلى. وكانت شارلوت وحدها التي تتحرك من دون أن تصدر صوتاً، بحذائها ذي الساقين العاليتين من اللبد. وهكذا لم يسمعها حين دخولها. دخلت تلك القاعة المظلمة ووقفت أمام الباب. وكان جسد الجندي يبدو بشكل واضح من خلال زجاج النوافذ الذي أضاءته الثلوج. وكانت شارلوت تحتاج لثوان لتخمن ما كان يحدث. فقد كان الجندي يحك جرحه بطرف حدوة. وكانت على وسادته الضمادة التي انتزعها لتوّه ملفوفة... وفي الصباح أخبرت الطبيب الرئيسي بالأمر، فأخذ يحملق فيها كما لو أنه يراها خلف الضباب وهو الذي لم ينم الليلة الماضية، من دون أن يفهم شيئاً. ولما تخلص من خدره قال بصوت أجش:

ـ ما الذي تريدينا أن نفعل؟ هل أحدثهم في الهاتف ليأخذوه الآن؟ هذا يُسمّى تشويهاً ذاتياً...

ـ سيمر في مجلس الحرب...

ـ وماذا بعد؟ ألا يستحق ذلك؟ في الوقت الذي يموت فيه الآخرون في الخنادق... يفر هو من الجندية!

وكانت هناك لحظة صمت. جلس الطبيب وأخذ يدعك وجهه براحتي يديه الملطختين بصبغ اليود.

قالت شارلوت:

ـ ماذا لو وضعنا له الجبص؟

وظهر وجه الطبيب من خلف راحتي يديه وقد علاه الغضب. كان يهم

بفتح فمه غير أنه عدل عن ذلك، ثم تحركت عيناه الحمراوان، وابتسم قائلاً:

- حكاياتك نفسها دوماً بخصوص الجبص. نكسرها لأحدهم لأنها تثير الحكة لديه، ونضعها لآخر لأنه يحك نفسه. مفاجآتك لا تنتهي يا شارلوتا نوربيرتوفنا!

وعند مروره على المريض فحص الجرح. وبنبرة عادية جداً قال للممرضة:

- ينبغي وضع جبيرة له. طبقة واحدة منها تكفي. ستقوم شارلوتا بذلك قبل مغادرتها.

وعاد الأمل بعد سنة ونصف من تلقيها إعلان الوفاة الأول، حين تسلمت إعلاناً آخر. ما كان لفيودور أن يُقتل مرة ثانية. كذاك فكرت، وإذن لعلّه ما زال على قيد الحياة. وهكذا فقد صار ذلك الموت المزدوج وعداً بالحياة. ومن دون أن تخبر شارلوت أحداً بأي شيء أخذت تنتظر.

وهكذا عاد. غير أنه لم يأت من الغرب في بداية فصل الصيف مثل أغلب الجنود، ولكنه ظهر من الشرق الأقصى وفي بداية شهر أيلول/ سبتمبر بعد هزيمة اليابان...

تحولت سارنزا من مدينة مجاورة للجبهة إلى مكان هادئ. وعادت لسُبات سهوبها خلف الفولكا. وكانت شارلوت تعيش هناك وحيدة، ذلك أن ابنها (خالي سيرغي) كان قد التحق بمدرسة عسكرية في حين أن ابنتها (أمي) كانت قد رحلت إلى مدينة مجاورة، شأنها في ذلك شأن كل الطلاب الراغبين في إتمام دراستهم.

خرجت في مساء فاتر من مساءات شهر أيلول من المنزل، وأخذت تمشي في الشارع الخالي. كانت تريد أن تجني بعض سيقان الشبت البرية من أجل القديد قبل أن يجن الليل في ضواحي السهب. وهكذا رأته في طريق عودتها... كانت تحمل باقة من النباتات الطويلة علتها خُييمات صفراء. وكان فستانها وجسدها قد غُمرا بصفاء الحقول الصامتة، وبنور الغروب. وكانت أصابعها تحتفظ بعبق الشبت القوي والأعشاب الجافة. وعلى الرغم من ألمها كانت تدرك مسبقاً، أن هذه الحياة يمكن أن تعاش، ويتوجب عبورها ببطء مروراً بغروب الشمس ذاك إلى رائحة تلك السيقان النفاذة، ومن الهدوء غير المنتهي للسهل إلى زقزقة عصفور شارد في السماء. أجل، مروراً بتلك السماء إلى انعكاسها العميق الذي استشعرته بصدرها مثل حضور لطيف وحي. أجل، حد الإحساس بفتور الغبار على تلك الطريق الصغيرة المؤدية إلى سارنزا...

رفعت رأسها ورأته. كانت تمشي في اتجاهه، وكان ما يزال بعيداً، في أقصى الطريق. ولو أن شارلوت استقبلته على عتبة الغرفة، ولو أنها فتحت الباب ودخل مثلما تخيلت ذلك قبل وقت طويل جداً، تماماً مثلما يفعل الجنود عند عودتهم من الحرب في الحياة كما في الأفلام على السواء، لكانت من دون شك أطلقت صرخة، ولألقت بنفسها عليه ولتشبثت بحميلته، ولكانت بكت...

غير أنه ظهر لها بعيداً، سامحاً لها بأن تتعرف عليه شيئاً فشيئاً، وتاركاً لزوجته الوقت الكافي لتستأنس بتلك الطريق التي تغيرت بفعل حضور طيف ذلك الرجل الذي بدأت تلحظ ابتسامته المترددة. لم يجريا، ولم يتبادلا أي كلمة، ولم يتعانقا. اعتقدا أنهما سارا أحدهما

في اتجاه الآخر منذ الأزل. كانت الطريق خالية، وكان ضوء الليل ينعكس على أوراق الأشحار الذهبية بشفافية غير معقولة. ولما وقفت أمامه هزّت الباقة التي كانت تحملها برفق. هز رأسه كما لو أنه يقول: «أجل، أجل. لقد فهمت». لم يكن بحميلة وإنما بحزام بإبزيم نحاسي كامد لا غير. وكان حذاءاه العاليان صهباوين بفعل الغبار.

كانت شارلوت تسكن الطبقة السفلى لبيت عتيق من الخشب. وسنة بعد سنة، ومنذ قرن من الزمان، أخذت الأرض ترتفع خفية، وبدأ المنزل ينخفض حد أن نافذة غرفتها أوشكت أن تحاذي الرصيف. . . دخلا في صمت، ووضع فيوديور حزامه على كرسي عال. أراد أن يتحدث غير أنه لم يقل شيئاً. سعل فقط رافعاً أصابعه إلى شفتيه. وأخذت شارلوت تُهيِّئ الطعام.

تفاجأت لما ألفت نفسها تجيب عن أسئلته، إذ كانت تجيب من دون أن تفكر فيها. (كانا يتحدثان عن الخبز، وعن تذاكر التموين، وعن الحياة في سارنزا). وتفاجأت أيضاً أنها اقترحت عليه تناول الشاي، وأنها ابتسمت عندما قال إنه يلزم «شحذ كل السكاكين في هذا المنزل»، غير أنها كانت شاردة عندما كانت تشارك في ذلك الحديث. كانت في غيبة عميقة حيث تتردد أقوال شديدة الاختلاف، وفكرت قائلة في نفسها: «هذا الرجل بشعر رأسه القصير، وبلونه الذي يبدو كما لو نثر عليه الطبشور، هو زوجي. لم أره منذ أربع سنوات. كان قد دُفِن مرتين. في البداية، في معركة موسكو، ثم في أوكرانيا. والآن ها هو هذا. لقد عاد. عليّ أن أبكي سعادة، وعليّ. . . له شعر رمادي جداً. . .» خمّنت أنه هو أيضاً كان بعيداً

عن حديثهما عن تذاكر التموين. كان قد عاد بعد أن خبت نيران النصر منذ مدة طويلة. واستعادت الحياة مجراها الطبيعي. لقد تأخر في العودة، كما لو أنه رجل غير مبال استدعيَ إلى الغداء فحضر ساعة العشاء، مفاجئاً صاحبة البيت وهي تودّع آخر الضيوف المتأخرين. فجأة فكرت شارلوت قائلة: «لا شك أني أبدو له عجوزاً جداً». وحتى تلك الفكرة لم تفلح في فك الشعور الغريب لانعدام الإحساس في قلبها، واللامبالاة التي تركتها حائرة.

بكت فقط حين رأت جسده. كانت قد غلت الماء بعد الطعام. وأحضرت حوضاً من الزنك، (مغطس الأطفال) ووضعته وسط الحجرة. تقلص فيودور في ذلك الوعاء الرمادي الذي ارتخى قعره تحت قدمه إذ أخذ يهتز. ولما كانت شارلوت تسكب خيطاً من الماء الساخن على جسد زوجها الذي أخذ يدعك كتفيه وظهره برعونة، أخذت تبكي. وعبرت الدموع وجهها الذي بقي جامد الملامح، ثم سقطت ممتزجة بالماء الصابوني في الحوض.

كان الجسد لرجل لا تعرفه. كان جسداً أحدثت فيه الندوب والشجات العميقة ثقوباً بجوانب مُلحمة أحياناً كشفاه نهمة غليظة، وأحياناً بواجهة ملساء لامعة تماماً مثل أثر حلزون. و حُفر في إحدى عظمتي كتفيه تجويف. وكانت شارلوت تعلم أي نوع من الشظايا الصغيرة الخادشة تصنع مثل ذلك. ورأت آثار تقطيب وردية تحيط بأحد كتفيه لتبسط حتى صدره...

وكانت تنظر إلى الغرفة من خلف دموعها، فبدت كما لو أنها تراها لأول مرة. كانت بنافذة في الطبقة الأرضية، وباقة الشبت القادمة من زمن آخر من عمرها، وحزام عسكري على مقعد عال قرب المدخل،

وحذائين عاليين غطاهما غبار أصهب. وتحت لمبة عارية وباهتة، ووسط تلك الغرفة التي يغوص نصفها في الأرض، كان ذلك الجسد المجهول. كان كما لو أن دواليب آلة مزقته. وتكونت بداخلها كلمات مفاجئة من دون علمها: «أنا، شارلوت لومونيي. أنا هنا، في هذه الإسبة المدفونة تحت أحراش السهوب مع هذا الرجل. هذا الجندي ذو الجسد المثخن بالجراح، والد ابناي. الرجل الذي أحبه كثيراً. . . أنا، شارلوت لومونيي. . .»

وكان أحد حاجبي فيودور يحمل شجة بيضاء واسعة. ولما كان قد أصابه الهزال فقد كانت تحجب جبهته. وبدت نظرته متفاجئة على الدوام، كما لو أنه لم يستطع أن يتعود على حياة ما بعد الحرب تلك.

عاش أقل من سنة. . . وكانا قد انتقلا في فصل الشتاء إلى الشقة التي كنا نحضر إليها لرؤية شارلوت كل صيف. ولم يكن لديهما وقت حتى لاقتناء الأواني المنزلية الجديدة وأدوات المنزل. وكان فيودور يقطع الخبز بالسكين التي جلبها من الجبهة والتي صُنِعت من حربة. . .

هكذا كنت أتخيل جدي وأنا أنصت إلى أحاديث الراشدين خلال أيام عودته القصيرة بشكل غير معقول. كجندي يصعد سلالم مدخل الإسبة، ونظره غارق في نظر زوجته. وكان لديه الوقت ليقول فقط: «لقد عدت. هل رأيت. . .» قبل أن يسقط ويموت جرّاء جراحه.

[٣]

سجنتني فرنسا تلك السنة في وحدة عميقة ومُجِدّة. ففي نهاية فصل الصيف عدت من سارنزا كمكتشف شاب بألف شيء مُكتشف في حقائبي. من عنقود عنب بروست إلى شعار الشرف الشاهد على الوفاة المأسوية لدوق أورليانز. وفي فصل الخريف، وعلى الخصوص في فصل الشتاء، تحولت إلى ممسوس بالتبحر، وإلى مختص بالأرشيفات، جامعاً بهوس كل المعلومات حول البلد الذي لم ينجح إلا في تلمُّس غموضه، من خلال رحلته الصيفية القصيرة.

قرأت كل ما حوته مكتبة مدرستنا من كتب ذات قيمة عن فرنسا، وغصت في تخطيطات أوسع من تلك لمدينتنا. أردت أن أضع خطة لدراسة منهجية من خلال حكايات شارلوت الانطباعية المدققة، متقدماً من قرن إلى قرن ومن لويس إلى لويس آخر تلاه، ومن روائي إلى زملائه وتلامذته.

وكانت تلك الأيام الطويلة تمضي في المتاهات المغبّرة المحمّلة بالكتب، تشبه من دون شك نزعة رهبانية يحسها الجميع في مثل تلك السن، حيث يبحث المرء عن وسيلة للفرار قبل أن يؤخذ في دوّامة حياة الراشدين، وحيث يبقى المرء وحيداً يختلق المغامرات العاطفية التي ستحدث مستقبلاً. وسرعان ما يتحول ذلك الانتظار، وحياة

الانطواء تلك إلى شيء مُضن. وذاك ما يتسبب في إنتاج التجمعات الحاشدة، وظهور القبلية لدى المراهقين، والمحاولة المحمومة للعب كل سيناريوهات المجتمع الراشد قبل الآوان. فقلة فقط ممن تكون أعمارهم في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة يدركون سُبل مقاومة لعبة قلب الأدوار منفردين ومتأملين كل وحشية أطفال الأمس وتعصُّبهم.

وبفضل بحثي الفرنسي عرفت كيف أحافظ على مراهقتي في وحدة يقظة.

وكان مجتمع زملائي المصغر يعاملني تارة بتنازل غافل (ذلك أني كنت «غير ناضج»، فأنا لا أدخن، ولا أروي حكايات فاحشة، حيث تصير الأعضاء التناسلية شخوصاً قائمة الذات)، وتارة أخرى بعدوانية. حيث كان يتركني العنف الجماعي لاهثاً. ولما لم أكن أشعر بأني مختلف عن الآخرين إلا قليلاً فلم أكن أعتقد بأني أستحق كل ذلك العداء. صحيح أني لم أكن أنتشي بالأفلام التي كان مجتمعهم المصغر يعلق عليها في فترات الإستراحة، كما أني لم أكن أميز فرق كرة القدم التي كانوا يعتبرون مشجعين لها بشغف. وكان جهلي يهينهم لأنهم كانوا يعتبرونه تحدياً. وهكذا كنت أُهاجم بسخرياتهم وبقبضاتهم. وخلال ذلك الصيف بدأت أميّز حقيقة محيّرة وهي أن حمل ذلك الماضي البعيد في داخلي، وترك روحي في تلك الأطلنتيد الخرافية، لم يكن بريئاً. أجل، لقد كان تحدياً فعلياً واستفزازاً في نظر أولئك الذين يعيشون في الحاضر. ولما أتعبني تحاملهم تظاهرت يوماً باهتمامي بنتيجة إحدى المباريات. انخرطت في حديثهم، وأخذت أردد أسماء لاعبي كرة كنت قد حفظتها في الليلة الماضية. ثم توقف الحديث وتفرق المجتمع المصغر. وكان لي

الحق في بعض النظرات شبه الرحيمة. أحسستني أقل قيمة مما كنت عليه من قبل.

بعد تلك المحاولة التي تدعو للرثاء عدت لأغوص أعمق من ذي قبل في أبحاثي ومطالعاتي. وهكذا لم تعد تكفيني الانعكاسات العابرة للأطلنتيد على امتداد الزمان، فقد صرت شغوفاً بمعرفة الأشياء الحميمية من تاريخها. وهكذا حاولت أن أفسر من خلال تسكعي في كهوف مكتبتنا القديمة سببَ بهرجة حفل زفاف هنري الأول والأميرة الروسية آنا. وأردت أن أعرف ما يمكن لوالدها الشهير لاروسلاڤ لوساج أن يرسله كمهر. وكيف أمكنه إرسال الكثير من الأحصنة من كييف إلى صهره الفرنسي المهاجم من قبل النورمنديين الشرسين، وكيف كانت آنا لاروسلاڤا تُزجي سحابة يومها في قصور قروسطية مظلمة حيث تتحسر على غياب الحمامات الروسية... لم أعد أكتفي بالنصوص الحزينة لموت دوق أورليانز أسفل نوافذ الجميلة إيزابو. كلا، صرت ألاحق قاتله جون صان بير وكان عليَّ أن أعود إلى سلالته، وأتحقق من إنجازاته الحربية، وأعيد تشكيل لباسه، وأسحلته، وأحدد مناطق نفوذه... وعلمت سبب تأخر كتائب المارشال غروشي تلك الساعات الإضافية، التي كانت قاتلة بالنسبة لنابوليون في واترلو...

ولما كانت المكتبة أسيرة للإيديولوجيا فإنها لم تكن مزوّدة بشكل كاف طبعاً. وهكذا، لم أجد فيها إلا كتاباً واحداً لفترة لويس الرابع عشر، بينما يمنح الرف المجاور حوالي عشرين مجلداً مكرّساً لبلدية باريس، وحوالي اثني عشر حول ولادة الحزب الشيوعي الفرنسي. غير أني لما كنت متلهفاً إلى المعرفة فقد أحبطت هذا التلاعب التاريخي. وهكذا التفتّ إلى الأدب. ذلك أن روائع الأدب

الكلاسيكي الفرنسي كانت هناك. وباستثناء بعض المحظوريين المشهورين مثل جامح بروتون وساد وجيد فقد نجت الروائع في مجملها من الرقابة.

جعلني صغر سني وتجربتي متولّها بالقراءة. فقد أخذت أجمع أكثر مما يمكنني إدراكه من مظاهر تلك الفترات التاريخية. وهكذا فقد شرعت في البحث على الخصوص عن الحكايات الشبيهة بتلك التي يرويها الدليل للسياح أمام آثار أحد الأماكن. وقد كان في قائمة المجموعة التي جمعتها صدرية تيوفيل غوتييه الحمراء التي ارتداها في العرض الأول لا *يرناني*، وقصبات بالزاك، ونرجلية جورج ساند، ومشهد خيانتها بين حضني الطبيب الذي كان من المفترض أن يعالج ميسي. واعجبت بالأناقة التي منحت بها عشيقها موضوع *لورينزاسيو*. ولم أكف عن إعادة رؤية مشاهد ملآى بالصور التي اختزنتها ذاكرتي في فوضى كبيرة، مثل صورة فيكتور هيغو كأب أشيب وكئيب يقابل الكونت دولسيل تحت ظلة إحدى الحدائق. سأل الأب قائلاً: «هل تعلم فيمَ كنت أفكر؟» وأمام حرج مخاطبه أعلن بفصاحة «كنت أفكر في ما سأقوله للرب، عندما سألتحق ربما بمملكته في القريب...» .وهنا أكد الكونت دولسيل بسخرية وباحترام في الآن ذاته، وبقناعة: «آه، ستقول له: زميلي العزيز...».

والغريب أن شخصاً لم يكن يعرف شيئاً عن فرنسا، ولم يسبق له أن قرأ لأي كاتب فرنسي، وهو شخص لا يستطيع، وأنا على ثقة من ذلك، أن يحدد مكان هذا البلد على الكرة الأرضية، أجل كان ذلك الشخص هو من ساعدني بطريقة لا إرادية على الخروج من مجموعة حكاياتي، وذلك بتوجيه بحثي نحو اتجاه جديد تماماً. كان ذلك

الكسول الذي أعلمني ذات يوم أنه إذا لم يكن للينين أطفال فلأنه لم يكن يعرف ممارسة الحب. . .

وقد كان أفراد مجتمع فصلنا المصغر يحفظون له القدر نفسه من الاحتقار الذي أحمله ل هولكن لأسباب أخرى، كانوا يكرهونه لأنه كان يعكس لهم صورة كريهة للراشد. ولما كان أكبر منا بسنتين فقد كان في سن يجعل التلاميذ يتلذذون قبل الآوان بطعم الحرية بينما صديقي الكسول لم يكن يستمتع بذلك أبداً. فقد كان باشكا كما يناديه الجميع، يعيش حياة الموجيك الغريبين، الذين يحتفظون بداخلهم، وحتى مماتهم، بجزء من الطفولة يتناقض كثيراً مع أجسادهم الفظة والرجولية. وكانوا يفرون من المدينة ومن المجتمع ومن الراحة بعناد ليغوصوا في الغابة. وكانوا ينهون أيامهم بها كصيادين أو مشردين.

كان بوشكا يحمل إلى الفصل رائحة السمك والثلج، ورائحة الصلصال عند الذوبان، ذلك أنه كان يمضي أياماً بأكملها متخبطاً في زوارق لڤولكا الضيقة. وإذا ما كان يحضر إلى المدرسة فلئلا يحزن أمه. . . وقد كان يحضر دوماً متأخراً، من دون أن ينتبه إلى نظرات الاحتقار التي يصبها عليه راشدو المستقبل. وكان يعبر الفصل وينزلق خلف قمطره في الخلف. وكان التلاميذ يشخرون بتباه عند مروره. وكانت المدرسة تزفر رافعة رأسها إلى السماء، وتملأ رائحة الثلج والأرض الرطبة القاعة ببطء.

انتهى بنا وضعنا كمنبوذين من مجتمع فصلنا إلى توحيدنا. لاحظنا وحدتينا من دون أن نصير صديقين بالمعنى الذي تحمله الكلمة. ورأينا فيهما علامة على الامتنان. وهكذا صار بإمكاني أن أرافق

باشكا بين الفينة والأخرى في رحلته للصيد على ضفاف الڤولكا المثلجة. كان يُحدِث ثقباً في الجليد بمِثقاب قوي، ثم يلقي في الفتحة خيطاً ذا صنارة، ويقف من دون حراك فوق تلك الفتحة الدائرية التي يظهر من خلالها العمق الأخضر للجليد. تخيلت سمكة عند طرف القناة الضيقة، التي يبلغ طولها أحياناً متراً، تدنو بحذر من الطعم... وكانت أعداد من سمك الفرخ ذات الظهر المنمّر، والزنجور المبقعة، والشبوط ذات الذيول الحمراء الفاقعة، تظهر من الحفرة وتسقط على الثلج ملتصقة بالصنارة. وبعد عدة رجفات تتوقف أجسادها عن الحركة وقد جمدتها الريح الجليدية. وكانت أصلابها تغطى بالبلور مثل تيجان. كنا نتحدث قليلاً، ذلك أن سكون السهوب الثلجية الشديد، واللون الفضي للسماء، وسبات النهر الكبير، كانت تجعل الكلام غير مُجد.

أحياناً كان باشكا في بحثه عن مكان تكثر فيه الأسماك وبشكل خطير جداً من صفائح الثلج المظلمة والرطبة التي تنشط فيها المنابع... وكنت أستدير عندما أسمع فرقعة لأرى رفيقي يصارع داخل الماء، غارزاً أصابعه في الثلج المحبَّب، فأعدو نحوه على بعد أمتار فقط من الفتحة، ثم أتمدد على بطني وأمد له طرف وشاحي. وكان باستطاعة باشكا أن يخرج قبل تدخلي، فقد كان ينتشل نفسه من الماء مثل خنزير البحر، ويسقط وصدره إلى الثلج، ويزحف راسماً خطاً مبللاً طويلاً، لكنه في بعض الأحيان، وإرضاءً لرغبتي من دون شك، كان يمسك الوشاح ويترك نفسه يُنقذ.

بعد سباحة مماثلة كنا نقصد إحدى تلك المركبات العتيقة التي نجدها متفرقة وسط أكوام الثلج. وكنا نعمد إلى إشعال نار كبيرة من الأعشاب

في دواخلها المسودة. وكان باشكا ينزع حذائيه العاليين من الجلد، وسرواله من القطن المندوف، ويضعها جميعاً قرب النار، ثم يشرع في طهي السمك، وقد وضع رجليه العاريتين على أحد الألواح.

كنا نصبح ذلقي اللسان حول نيران الخشب تلك. فقد كان يحكي لي عن مغامرات صيده العجيبة (سمكة أكبر من أن تمر من الحفرة التي حفرها المثقاب!) وعن تقصف الجليد الذي يأخذ المراكب في مساره عند التدفق المصمّ للجليد، وعن الأشجار التي تُقلع، وحتى الإسبات مع قطط تتسلق أسطحها... أما أنا فقد كنت أحدثه عن دورات الفروسية (كنت قد عرفت لتوّي أن المحاربين القدامى عندما كانوا ينزعون خوذاتهم بعد مبارزة، كانت وجوههم تبدو مطلية بالصدأ، بسبب الحديد ثم العرق، وكانت هذه النقطة تثيرني أكثر من المبارزة ذاتها...) أجل، كنت أحدثه عن ملامح الوجوه الذكورية تلك المتميزة بشقرة مشربة، وذلك الشاب الشجاع الذي ينفخ ثلاث مرات في قرنه طلباً للمساندة. كنت أعلم أن باشكا الذي يشق ضفاف الفولكا في فصل الصيف كما في فصل الشتاء كان يحلم سراً بالامتدادت البحرية. وهكذا فقد سعدت كثيراً أني ألفيت في مجموعتي الفرنسية ذلك القتال الرهيب بين بحار وأخطبوط كبير. ولما كانت معرفتي تنهل أساساً من الحكايات فقد حكيت له إحداها، وكانت على علاقة وطيدة بشغفه ووقوفنا في هيكل قارب عتيق. ففي أحد البحار الخطيرة في الزمن الماضي، مرت سفينة حربية إنجليزية قرب سفينة فرنسية، وقبل أن ينخرط طاقماهما في قتال شرس خاطب القبطان الإنجليزي أعداءه الدائمين، وقد جعل يديه على فمه كمكبّر صوت قائلاً: «أيها الفرنسيون، أنتم تقاتلون من أجل المال. أما

نحن، رعايا الملكة، فإننا نقاتل من أجل الشرف!» ثم سمع من السفينة الفرنسية صوتاً حمله هواء مالح يقول: «كلٌّ يقاتل من أجل شيء لا يملكه أيها السير!»

وكان على وشك أن يغرق فعلاً في أحد الأيام. فقد كان يقف على قطعة من الجليد، وذلك في فترة ذوبان الثلوج، فكسرت تحت قدميه، وخرج رأسه وحده من الماء، ثم ذراع يبحث عن شيء لم يكن موجوداً ليدعمه. وبتجهد عنيف ألقى صدره على الجليد، غير أن السطح ذا المسام تكسر تحت ثقل وزنه. وكان التيار قد بدأ يجر قدميه بحذائيه المملوئين ماءً. ولم يكن لديّ وقت لأمدّ له لثامي فتمددت على الثلج، وأخذت أزحف، ثم مددت له يدي. وفي تلك اللحظة رأيت بريق هلع يعبر عينيه... كنت أعتقد أنه كان يمكن أن ينجو من دون مساعدتي، فقد كان متمرساً ووثيق الصلة بالقوى الطبيعية حد أنه ما كان ليسمح لنفسه بأن يخدع من قبلها. غير أنه، في هذه المرة، قبل يدي من دون ابتسامته المعتادة.

بعد بضع دقائق كانت النار مشتعلة، وكان باشكا يمد ساقيه العاريتين وجسده المغطى فقط بقميص طويل أعرته إياه حتى تجف ملابسه يرتعش على لوح يلعقه اللهب. أخذ يعجن كرة من الصلصال بيديه الحمراوين المسلوخين ليغلف السمكة قبل أن يضعها على الجمر... وكان حولنا خلاء الفولكا الشتوي الأبيض، وأشجار الصفصاف بأغصانها الرقيقة والبريّدة التي كانت تشكل أجمة شفافة على امتداد الضفة، وذلك المركب نصف المدمر، الغارق تحت الثلوج، والذي يغذي قفصه نارنا الخشبية المتوحشة، وجعل رقص النار الغسق يبدو كثيفاً، وشعور الارتياح العابر أكثر تأثيراً.

لماذا حكيت له ذلك اليوم تلك الحكاية دون غيرها؟ لا شك أن هناك سبباً لذلك. فمقدمة الحديث هي التي أوحت لي بذلك الموضوع... كان لإحدى قصائد هيغو التي سردتها عليّ شارلوت قبل فترة طويلة حتى أني ما عدت أذكر عنوانها... ففي مكان ما قرب الحواجز المحطمة، كان الجنود يطلقون النار على الثائرين في قلب باريس الثائرة حيث كان للأرصفة القدرة العجيبة على أن تتحول فجأة إلى متاريس، وحيث كان هناك قتل نمطي ووحشي وقاس، وحيث كان الرجال يولون ظهورهم الجدار، ويركزون نظراتهم لفترة على فوّهات البنادق المصوّبة إلى صدورهم، ثم يرفعون أعينهم إلى السماء مراقبين المرور العابر للسحب. ثم يهوون، ليأخذ رفاقهم أماكنهم في مواجهة الجنود... وكان أحد المتهمين يدعى غافروش، الذي كان بإمكان عمره أن يوحي ببعض التسامح. للأسف، لا! فقد أمره الضابط بأن يأخذ مكاناً في صف الانتظار المميت. وكان للطفل حق الموت نفسه كما للراشدين. قال رئيس الجلادين متذمراً: «سنطلق الرصاص عليك أنت أيضاً!» غير أن الطفل عدا، قبل أن يقصد الجدار، في اتجاه الضابط وقال مستعطفاً: «هل تسمحون بأن أحمل هذه الساعة إلى والدتي؟ إنها تقطن بالجوار، قرب النافورة، وسأعود. أقسم لكم بذلك!». أثرت تلك الحيلة الطفولية حتى على قلوب العسكر المتحجرة. فقهقهوا، ذلك أن الحيلة كانت بالفعل ساذجة جداً. قال الضابط المقهقه بدوره: «هيا، اجر. اهرب أيها النذل الصغير!». واستمروا في الضحك وهم يلقّمون بنادقهم. وفجأة، توقفت أصواتهم تماماً، ذلك أن الطفل ظهر مجدداً، ووقف قرب الجدار جوار الراشدين، ثم قال: «ها أنذا!»

على امتداد حكايتي بدا أن باشكا لا يكاد يتابعني. فقد بقي جامداً، منحنياً على النار. وكان وجهه يختفي تحت المقدمة المطوية للشابكا الكبيرة من الفرو التي كان يضعها على رأسه. غير أني عندما وصلت إلى المشهد الأخير حيث عاد الطفل بوجه شاحب وحزين، ثم وقف متسمراً أمام الجنود. أجل، عندما نطقت آخر كلماته «ها أنا ذا!» اهتز جسد باشكا، ثم قام... بعدها حدث ما لم يكن متوقعاً، فقد تخطى حدود المركب وطفق يمشي على الثلج بقدميه العاريتين، وسمعت صوتاً أشبه بأنين مخنوق سرعان ما بعثرته الريح الرطبة فوق السهل الأبيض.

توقف بعد بضع خطوات، وغاص في جرف حتى ركبتيه. بقيت ذاهلاً للحظة من دون حراك، أنظر من المركب إلى ذلك الفتى الكبير الذي يضع قميصاً طويلاً أخذت الريح تنفخ فيه كما لو أنه فستان صوفي قصير. وأخذت أذينتا قبعته الشابكا تتمايلان ببطء في ذلك الهبوب البارد. فتنتني ساقاه العاريتان الغائصتان في الثلج. ومن دون أن أفهم سبباً لذلك قفزت من المركب ولحقت به. وعندما سمع وقع خطواتي استدار نحوي فجأة. كانت مسحة كدر تعلو وجهه. وكانت شعلة نارنا الخشبية تنعكس في عينيه بسلاسة غير اعتيادية، ثم سارع إلى مسح تلك الانعكاسات بكم القميص، ليدمدم خافقاً بجفنيه «آه! يا لهذا الدخان!» ومن دون أن ينظر إليّ عاد إلى المركب.

هناك، وعندما كان يدفع قدميه المثلجتين نحو الجمر، سألني بإصرار غاضب:

ـ ماذا حدث بعد ذلك؟ قتلوا الفتى، أليس كذلك؟

فوجئت، ولما لم أجد في ذاكرتي أي إضاءة لهذه النقطة تلعثمت متردداً:

ـ أي. . . الحقيقة أني لا أعرف. . .

ـ كيف لا تعرف؟ لكنك حكيت كل شيء!

ـ كلا، في القصيدة. . .

ـ ما شأني بالقصيدة؟ في الحياة، هل قتل أم لا؟

اتقدت نظرته المصوبة نحوي خلف اللهب ببريق مجنون بعض الشيء. وبدا صوته فظاً ومتوسلاً في آن. أخذت نفساً كما لو أني أردت أن أعتذر لهيغو، ثم بنبرة حاسمة وصافية أعلنت:

ـ كلا، لم يعدم. . . ذلك أن رقيباً متقدماً في السن صرخ بعد أن تذكر ابنه الذي خلّفه وراءه في قريته: «من سيمس هذا الصبي بأذى سأتكفل به!» وكان على الضابط أن يطلق سراحه. . .

أحنى باشكا وجهه، وطفق يخرج السمكة المقولبة في الطين معالجاً الجمر بأحد الأغصان. كسرنا صامتين الطين المطهوة التي كانت تنقلع مع قشر السمكة، ثم أكلنا اللحم الطازج والملتهب بعد أن ذررنا عليه الكثير من الملح.

وصمتنا أيضاً أثناء عودتنا ليلاً إلى المدينة. كنت ما أزال تحت خدر السحر الذي وقع قبل قليل، تلك المعجزة التي أظهرتها لي القوة الخارقة للكلمات الشعرية. خمنت بأن الأمر لا يتعلق بالأفعال المزخرفة أو تجميع الكلمات ببراعة. كلا! لأن كل ذلك تغير من قبل في قصة شارلوت البعيدة، ثم أثناء سردي المختصر لها. إذن فقد تمت خيانتها بطريقة مزدوجة. . . ومع ذلك فقد نجح صدى هذه الحكاية البسيطة جداً في الواقع، والتي سُردت على بعد آلاف الكيلومترات عن موطن ولادتها، في أن تنتزع الدموع من شاب همجي وتدفعه عارياً إلى الثلج! أحسست بزهو سرّي لأني جعلت

شرارة من الإشعاع الذي يشع به بلد شارلوت تتألق.

ثم إني فهمت في تلك الليلة أنه لا يتعين عليَّ البحث عن القصص أو كلمات منظمة بشكل جميل على صفحة كتاب، ولكن عن شيء أكثر عمقاً، وأكثر عفوية، في الوقت نفسه، عن انسجام نفاذ للمرئي الذي ما إن يفصح عنه الشاعر حتى يصبح أبدياً. ومن دون أن أنجح في إيجاد اسم له شرعت منذ ذلك الوقت في البحث عنه من كتاب إلى آخر. عرفت اسمه فيما بعد: الأسلوب. ولم أستطع قط أن أقبل تحت هذه التسمية تمارين تافهة لشعراء متلاعبين بالكلمات. ذلك أني رأيت ساقي باشكا الزرقاوين غائصتين في جرف في ضفة الڤولكا، والانعكاسات السلسة للهيب في عينيه... أجل، لقد كان متأثراً أكثر بمصير الفتى الثائر منه بغرقه الذي نجا منه بأعجوبة ساعة قبل ذلك!

عندما كنا على وشك الافتراق عند أحد مفاق الطرق بالضاحية حيث يقطن باشكا، مد لي نصيبي من السمكة، وكانت عبارة عن قواقع طويلة من الطين، ثم سأل بنبرة خشنة متفادياً النظر إلي:

ـ وأين يمكننا العثور على قصيدة المعدمين هذه؟

ـ سأحضرها لك غداً في المدرسة. لا بد أنها لديّ في البيت، منسوخة...

كذاك قلت دفعة واحدة، من دون أن أنجح في التحكم في سعادتي. كان ذلك أسعد أيام مراهقتي.

[٤]

«لم يعد لدى شارلوت ما تعلمني إياه!»

عبرت هذه الفكرة المخيبة خاطري صبيحة وصولي إلى سارنزا. قفزت من المقطورة أمام المحطة الصغيرة، وكنت النازل الوحيد هناك. وعند طرف الرصيف الآخر رأيت جدتي. رأتني فهزت يدها قليلاً ثم أتت لاستقبالي. وفي اللحظة التي كنت أمشي اتجاهها خالجني هذا الحدس وهو أنه لم يعد لديها ما تعلمني إياه عن فرنسا. فقد حكت لي كل شيء. وبفضل قراءاتي جمعت كماً من المعرفة لربما كان أكثر مما تعرفه هي... عندما قبّلتها أحسستني خجلاً من هذه الفكرة التي فاجأتني أنا أيضاً. رأيت فيها خيانة غير مقصودة.

زد على ذلك أني منذ عدة أشهر بدأت أشعر بقلق غريب. قلق أني تعلمت أكثر مما يجب... كنت أشبه برجل مقتصد يأمل في أن يرى حجم مدّخراته وقد بلغ حدّا سيمنحه قريباً طريقة عيش مختلفة، وسيفتح له أفقاً معجزاً، وسيغير نظرته إلى الأشياء، وحتى طريقته في الكلام والتنفس والحديث إلى النساء. وما فتئ حجم الادخار يكبر غير أن التحول الجذري تأخر في الوصول.

كذلك كان الأمر بالنسبة لرصيد معارفي في الفرنسية. كلا، لم أكن أرغب في أن أُحصّل من ذلك ربحاً. فالاهتمام الذي أبداه رفيقي الكسول لحكاياتي كان يغبطني أكثر من حاجتي. غير أني

كنت آمل أن يحدث صوت فصال غامض، تماماً مثل ذلك الذي يُسمع لنابض في صندوق موسيقى، وطقطقة تعلن بداية ثلاثية، سترقصها التماثيل الصغيرة على منصته. وأملت أن يتحول كل ذلك الركام من التواريخ والأسماء والأحداث والشخوص إلى مادة حية لم يسبق لأحد أن رآها من قبل، وأن يتبلور إلى عالم جديد للغاية. أردت أن تجعلني فرنسا المطعمة في قلبي والتي درستها واكتشفتها وحفظتها شخصاً آخر.

غير أن التغير الوحيد لبداية الصيف ذاك، كان غياب أختي التي رحلت إلى موسكو لإتمام دراستها. خشيت أن أصارح نفسي بأن رحيلها لربما يجعل سهراتنا في الشرفة مستحيلة.

وفي الليلة الأولى، وكما لو أني رغبت في تأكيد مخاوفي، رحت أسأل جدتي عن فرنسا في أيام شبابها. وكانت ترد عليّ بطيب خاطر مقدرة أن فضولي كان صادقاً. وفي أثناء حديثها كانت شارلوت تواصل رتق ياقة مُسنّنة لأحد القمصان. فكانت تعمل الإبرة بمهارة أشبه بتلك التي تميّز سيدة تعمل وتتحدث في الآن نفسه مع ضيف تعتقد أنه مهتم بكلامها.

وكنت أنصت لها مستنداً بمرفقي إلى درابزين الشرفة الصغيرة. وكانت أسئلتي تعيد لي بطريقة آلية صدى مشاهد من الماضي تأملتها ألف مرة في طفولتي، وصوراً مألوفة، وكائنات معهودة مثل جزّاز الكلاب ذاك على رصيف السين، والموكب الإمبراطوري الذي يعبر الشانزيليزيه، والجميلة أوتيرو، والرئيس الذي يعانق عشيقته في قبلة قاتلة... أدركت في تلك اللحظة أن شارلوت أعادت سرد كل تلك القصص، كل صيف، مستسلمة لرغبتنا في سماع القصة التي

نفضلها. أجل، لم يكن ذلك إلا قصصاً تسعد سنوات فتوّتنا. ومثل كل قصة حقيقية لم تكن لتصيبنا بالملل أبداً.

كنت قد بلغت الرابعة عشرة في ذلك الصيف. وفهمت جيداً أن الزمن لن يعود. فقد تعلمت كثيراً حد أني ما كنت لأنتشي بسرمندتها[١] الملوّنة. وبشكل غريب، وعوض أن أبتهج بتلك العلامة الحتمية على نضجي، ندمت بشدة في تلك الليلة على ثقتي الماضية الساذجة. ذلك أن معرفتي الجديدة بدت، على عكس انتظاري، بدت تعتم مصوّرتي الفرنسية. وما إن وددت العودة إلى أطلنتيد طفولتنا حتى تدخل صوت العلامة لأرى صفحات الكتب والتواريخ بحروف بارزة، وبدأ الصوت في التعليق والمقارنة والسرد. أحسستني مصاباً بنوع غريب من العمى...

توقف حديثنا في إحدى اللحظات. كنت غير مبال حد أني لم أسمع آخر كلمات شارلوت. ولا شك أنها كانت سؤالاً. ورحت أتأمل وجه شارلوت الذي رفعته نحوي حائراً. ترددت في أذني نغمة الجملة التي نطقتْها لتوّها. وكانت نبرتها هي ما ساعدني على ترميم المعنى. أجل، كانت النبرة التي يستعملها السارد حين يقول: «كلا، لكن هذه القصة سبق أن سمعتَها من دون شك. لن أصيبك بالملل بحكاياتي القديمة...». وهو يأمل سراً أن يشجعه مستمعوه مؤكدين جهلهم قصته أو أنهم نسوها... أخذت أهز رأسي كتشكّكاً:

ـ كلا، كلا، لا أعرف. لكن هل أنت متأكدة من أنك قصصتها عليّ من قبل؟

رأيت ابتسامة تضيء وجه جدتي، وتابعت حكايتها. أنصتّ إليها

---

(١) السرمندة: رقصة قديمة. المترجم.

تلك المرة بانتباه. وللمرة لست أذكر كم تراءى لي شارع ضيق في باريس قروسطية، في ليلة خريفية باردة، وعلى جدار شعار الشرف الكامد ذاك الذي وحد للأبد ثلاثة مصائر وثلاثة أسماء تعود للماضي: لويس أورليانز، وجون من دون خوف، وإيزابو دو بافيير...

لست أدري لمَ قاطعتها في تلك اللحظة. لا شك في أني كنت أود أن أظهر لها معرفتي، ولكن على الخصوص لأن ذلك البوح أعماني فجأة، حيث عجوز على شرفة معلقة فوق تل من دون نهاية تعيد مرة أخرى قصة محفوظة عن ظهر قلب، تعيدها بدقة آلية لقرص، ومخلصة لتلك القصة الأسطورية شيئاً ما، ما دامت تتحدث عن بلد لا يوجد إلا في ذاكرتها... وفجأة بدت لي مواجهتنا في صمت الليل سخيفة، وذكرني صوت شارلوت بصوت إنسان آلي. التقطت اسم الشخصية التي ذكرتها وشرعت في الحديث. جون من دون خوف، وتواطؤه المخجل مع الإنجليز في باريس حيث أضحى الجزارون ثواراً. كانوا يقيمون قانونهم ويقتلون أعداء بورغونيا، أو من يُزعم أنهم كذلك، والملك المجنون، والمشانق في الساحات الباريسية، والذئاب التي تتسكع في ضواحي المدينة التي دمرتها الحرب الأهلية، وخيانة إيزابو دو بافيير غير المتوقعة، والتي التحقت بجون من دون خوف، وإنكارها لولي العهد زاعمة أنه ليس ابن الملك. أجل، الجميلة إيزابو كما عرفناها في طفولتنا...

فجأة أحسست نقصاً في الهواء. كنت أختنق بكلماتي، وكان لديّ الكثير لأقوله.

بعد لحظة صمت، هزت جدتي رأسها قليلاً ثم قالت بصدق كبير:

ـ أنا سعيدة أنك تعرف التاريخ بشكل جيد!

غير أني خلت أني ميّزت خلف صوتها المليء بالقناعة صدى فكرة لم تعلن عنها، وهي: «من الجيد معرفة التاريخ، غير أني عندما كنت أتحدث عن إيزابو وعن ممر القذافين ذاك في تلك الليلة الخريفية، كنت أفكر في شيء آخر تماماً. . .»

انهمكت في عملها، وأعملت إبرتها بدقة وانتظام. وعبرتُ الشقة لأنزل إلى الشارع. تردد صفير قطار في البعيد، وبدا صوته الذي لطفه هواء الليل الساخن أشبه بتنهيدة شكوى.

بين العمارة حيث كانت تقطن شارلوت والسهب كان هناك ما يشبه غابة صغيرة كثيفة جداً حد أنه يستحيل عبورها. عليّقات أشجار التوت البرية وأغصان بندق مخدوشة، وخنادق منخفضة مليئة بالقُرّاص. إضافة إلى ذلك فحتى لو استطعنا اختراق كل تلك العوائق الطبيعية في أيامنا تلك فإن بعض تلك العوائق، المصنوعة من قبل البشر، تعيق المرور مثل صفوف الأسلاك الشائكة الملتوية، والتقاطعات التي أفسدتها الحواجز ضد الدبابات. . . وكان يُطلق على ذلك المكان اسم «ستالينكا» نسبة إلى خط الدفاع الذي شُيّد هناك خلال الحرب. وكانت الخشية من أن يتمكن الألمان من الوصول حتى تلك النقطة غير أن الڤولكا وستالينغراد بصفة خاصة أوقفاهم. . . وفُكك خط الدفاع، وظلت بقايا أداوت الحرب مهجورة في تلك الغابة التي ورثت اسمه، إذ كان سكان سارنزا يلقبونها بـ «ستالينكا». وهكذا بدا أن مدينتهم دخلت حركات التاريخ الكبرى.

وجرى التأكيد أن داخل الغابة كان ملغماً. وكان ذلك يثني حتى غلاظ الرؤوس من بيننا الذين كانوا يريدون المغامرة في تلك *الأرض المهجورة* المنغلقة على كنوزها الصدئة.

وخلف الستالينكا كثيفة الأشجار، كان يمر خط سكة حديد ضيق، وكان أشبه بخط سكة حديد مصغر، بقاطرته الصغيرة السوداء من السخام، وبعربات صغيرة أيضاً. وكما لو أن الأمر يتعلق بخدعة بصرية كان السائق الذي يضع قماطاً مبقعاً بشحم أسود، وكان أشبه بمارد غير حقيقي، ينحني عبر النافذة. وفي كل مرة، وقبل أن يعبر القطار إحدى الطرقات التي تمتد نحو الأفق، كان يصدر صراخاً نصف رقيق ونصف منتحب. ولما كان يتردد صداه فقد كانت إشارته تشبّه بصوت وقواق. وكنا عندما نبصر مروره فوق خطوطه الضيقة المجتاحة من قبل الهندباء والبابونج، نغمز بأعيننا قائلين «الكوكوشكا».

كان صوته دليلي في تلك الليلة. التففت على العليقات عند طرف غابة ستالينكا. ورأيت آخر عربته الصغيرة وهي تنزلق لتتلاشى في غبش الغسق الفاتر. وحتى ذلك القطار الصغير كان ينثر عطر خطوط السكة الحديد الفريد واللاذع بعض الشيء، والذي يدعو إلى السفر الطويل الذي يُقرر نتيجة لبعض الحماقة. سمعت في البعيد ومن خلال ضبابة الليل الزرقاء «كو ـ كو ـ وو» حزينة تحلّق. وضعت قدمي على خط السكة الحديد المهتز قليلاً تحت القطار الذي اختفى. وبدا أن السهب الصامت ينتظر مني حركة وخطوة.

قال صوت بداخلي من دون كلام: «كما كان الأمر من قبل، حيث الكوكوشكا الذي كنت أعتقد أنه يقصد وجهة مجهولة، إلى بلاد غير موجودة على الخريطة، وباتجاه جبل بقمم ثلجية، ونحو بحر ليلي تختلط سُريجات المراكبْ بالنجوم، أما فأنا الآن أعرف أن هذا القطار ينطلق من مصنع الآجرّ بسارنزا إلى المحطة حيث تُنزَل الحمولة من

عرباته الصغيرة مسافة كيلومترين أو ثلاثة في المجموع. سفر جميل! أجل، صرت أعرف ذلك الآن، ولم يعد بإمكاني أبداً الاعتقاد بأن خطوط السكة هاته بلا نهاية، وفي هذه الليلة الفريدة، مع عبق السهب القوي، وهذه السماء الفسيحة، وبوجودي غير القابل للتفسير والضروري هنا بشكل غريب، قرب هذه السكة بعارضتيها المشققتين، وفي هذه اللحظة بالذات، مع صدى هذا «الكو ـ كو ـ وو» في الفضاء البنفسجي. في الماضي كان كل شيء يبدو لي طبيعياً جداً...»

في الليل، وقبل أن أنام، تذكرت أني أستطيع أخيراً تعلم معنى الصيغة الغامضة في قائمة طعام الوليمة التي أعدّت على شرف القيصر. أجل، أدركت في تلك اللحظة أن الأمر يتعلق بلحم طريدة يستطيبه كثيراً ذواقة الأكل. كان طبقاً شهياً، لذيذاً ونادراً، ولكن لا شيء أكثر. كنت مستمتعاً كما في السابق بترديد «*طيور بارتاڤيل وأورتلون*»، وكان السحر الذي يفعم رئتيّ بهواء شربورغ المالح زائفاً. وبيأس متردد، همست محدّثاً نفسي وفاتحاً عينيّ في الظلمة:

ـ عشت إذن جزءاً من حياتي!

صرنا منذ تلك اللحظة نتحدث من دون أن نقول شيئاً. فقد رأينا حجاباً من الكلمات الملساء يقف بيننا. تلك الأصداء الصوتية اليومية. وذلك الدفق الفعلي والذي نشعر أننا مجبرون، ولست أدري لماذا، على أن نملأ به الصمت، واكتشفت بذهول أن الحديث كان في الحقيقة أفضل طريقة لإخراس الأهم. بينما من أجل قوله كان يتعيّن أن نلفظ الكلمات بطريقة مغايرة تماماً، أن تُهمس، وأن تُنسج في ضجيج الليل، وفي أشعة الغروب. ومرة أخرى أحسست في

داخلي بالحمل الغامض لتلك اللغة المختلفة جداً عن الكلمات التي أنهكتها كثرة الاستعمال. لغة كان بإمكاني أن أتحدّث بها بصوت خفيض جداً عند رؤية نظرة شارلوت:

ـ لماذا ينقبض قلبي عندما أسمع نداء كوكوشكا البعيد؟ لماذا في صبيحة خريفية بشيربروغ قبل مئة سنة؟ أجل، تلك اللحظة التي لم أعشها أبداً، وفي مدينة لم أزرها قط من قبل. لماذا يبدو لي ضوؤها وريحها أكثر حياة من أيام حياتي الحقيقية؟ لماذا لم تعد شرفتك تحلّق في فضاء الليل الخُبازيّ، فوق السهب؟ انكسرت شفافية الحلم التي كانت تغلفه مثل قارورة كيميائي. كانت شظايا الزجاج تصدر صريراً وتمنعنا من الحديث كما في السابق... أليست ذكرياتك التي صرت أحفظها الآن عن ظهر قلب بمثابة قفص تجعلك أسيرة؟ وحياتنا أليست في الواقع تحولاً يومياً من الحاضر المتحرك والحار إلى حشد من الذكريات الجامدة مثل فراشات ممزقة على قوائمها التي تشبه الدبابيس أسفل نافذة مغبرة؟ ولماذا إذن أشعر أني أستطيع منح كل هذه المجموعة لا شيء سوى إحساس الحموضة التي تركها على شفتي كوب فضي صغير متخيل داخل مقهى وهميّ في نويي؟ من أجل جُرعةَ من هواء شربورغ المالح؟ من أجل صرخة كوكوشكا واحدة آتية من طفولتي؟

ومع ذلك فقد استمررنا في ملء الصمت، بشكل معاد ومكرر، بكلمات غير ذات جدوى، وإجابات جوفاء (الجو أكثر حرارة من يوم أمس! غافرليتش ثمل مجدداً... أنظر، إنه السهب الذي يحترق هناك! كلا، إنها سحابة... سأذهب لأهيّئ شاياً آخر... يباع اليوم في السوق بطيخ أحمر من أوزبكستان...)

أدركت في تلك اللحظة أن ما كان عصِيّاً على الوصف كان مربوطاً بشكل غامض بالأهم! وكان الأهم عصياً عن الوصف، ولايُدرك. وكل ما يعذبني في هذا العالمِ من جمال أخرس، وكل ما يتجاوز الكلام، يبدو لي مهماً كلّ ما دقّ وصفه كان هو الشيء الأهم.

خلقت تلك المعادلة في رأسي الصغير تماساً ثقافياً. وبفضل اختصارها وقعت ذلك الصيف على هذه الحقيقة المرعبة (يتحدث الناس لأنهم يخشون الصمت. يتحدثون بطريقة آلية، وبصوت مسموع حيث كل شخص يتحدث إلى نفسه، وينتشون بهذه العصيدة الصوتية التي توقع في شركها كل شيء، وكل فرد. يتحدثون عن المطر، وعن الجو الصحو. ويتحدثون عن المال، وعن الحب، وعن لا شيء. وحتى عندما يتحدثون عن حبهم الأسمى يستعملون كلمات قيلت مئة مرة وجملاً استُهكلت حتى أصابها البلى. يتحدثون حتى لا يتحدثوا. يريدون أن يتآمروا على الصمت...)

كانت قارورة الكيميائي قد كُسِرت. وتابعنا حديثنا اليومي مدركين سخافة كلماتنا: «لربما تمطر. أنظر إلى هذه السحابة الكبيرة. كلا، إنه السهب الذي يحترق... أنظر لقد مر كوكوشكا قبل موعده الاعتيادي... غافرليتش... الشاي... في السوق»

أجل، كان جزءاً من حياتي خلفي. كانت الطفولة خلفي.

في النهاية لم تكن أحاديثنا حول المطر والجو الصحو في ذلك الصيف غير مبررة. ذلك أنها كانت تمطر غالباً، ولوّن حزني تلك العطلة في ذاكرتي بنغمات ضبابية وفاترة.

أحياناً، وفي عمق رمادية أيامنا البطيئة، كان يظهر انعكاس سهراتنا الماضية مثل بعض الصور التي أكتشفها صدفة في الحقيبة السيبيرية،

والتي لم يعد ما بها سراً بالنسبة لي، ومنذ مدة طويلة، أو بين فينة وأخرى، تفصيل فار من الماضي العائلي الذي لم أكن أعرفه حتى ذلك الوقت، والذي تخبرني شارلوت به ببهجة خجلى لأميرة مفلسة، والتي تقع فجأة تحت البطانة البالية لكيس نقودها، على قطعة ذهبية رقيقة.

وهكذا، وفي أحد الأيام المطيرة جداً، وعندما كنت أقلّب كومة رزم الجرائد الفرنسية القديمة، المتكدسة في الحقيبة، وقعت على تلك الصفحة القادمة من دون شك من يوم مشهود من بداية القرن. وكانت إعادة إنتاج بالكاد غلفت بمسحة داكنة ورمادية للوحة من الواقعية المحببة كثيراً، والتي تشد بدقتها وغزارة تفاصيلها. ولما تفحصتها على امتداد تلك الليلة الطويلة الممطرة تذكرت الموضوع. كان بناءً تذكارياً متباين الألوان لمحاربين أنهكهم جميعاً التعب والعمر. كانوا يعبرون شارعاً في قرية فقيرة أشجارها عارية. أجل، كان كل الجنود متقدمين في السن كثيراً. بدوا لي شيوخاً بشعورهم الطويلة البيضاء الخارجة من قبعات واسعة الحواشي. كانوا آخر الرجال القادرين على حمل السلاح في عملية تجنيد شعبية واسعة التهمت الحرب مجنديها من قبل. لم أستطع تذكر عنوان اللوحة، غير كلمة «أواخر» كانت حاضرة فيه. كانوا آخر من سيواجه العدو، وآخر من يستطيع استعمال السلاح الذي كان بدائياً جداً، إذ كان مكوناً من بعض العَنَزَات، والفؤوس، وبعض السيوف القديمة. ورحت أدقق بفضول في ملابسهم، أحذيتهم العسكرية الكبيرة بإبزيماتها النحاسية الكبيرة، وقبعاتهم. وكانوا يعتمرون أحياناً خُوَذهم كامدة اللون والشبيهة بتلك التي يعتمرها الغزاة الفاتحون، وبأصابع ذات عُجيرات متشنجة على مقابض العنزات... كانت فرنسا التي

بدت دوماً أمام ناظري داخل بذخ قصورها، وفي ساعات مجد تاريخها، قد ظهرت بغتة خلف مظاهر قرية الشمال تلك، حيث البيوت الواطئة تتقلص خلف سياجات هزيلة، وحيث الأشجار الضامرة ترتعش بفعل الريح الشتوية. ولمفاجأتي أحسستني قريباً جداً سواء من ذلك الشارع الموحل أو من أولئك المحاربين المسنين المحكوم عليهم بالموت في معركة غير متكافئة. كلا، لم يكونوا أبطالاً يستعرضون بسالتهم أو تفانيهم بل كانوا عاديين. كانوا رجالاً بشراً، ولا سيّما ذلك الرجل الذي يعتمر تلك الخوذة العتيقة الخاصة بالفاتحين. كان رجلاً مسناً بقامة طويلة يمشي مستنداً إلى عنزته، وفي نهاية اللوحة التذكارية سحرني وجهه بصفائه المدهش. كان وجهه حزيناً ومبتسماً في الآن عينه.

فجأة، وبكل حزن المراهق الذي كنته، أشعرني الرجل بسعادة غامضة. اعتقدت أني أدركت هدوء ذلك المحارب المتقدم في السن في مواجهة الهزيمة المرتقبة، وفي مواجهة المعاناة والموت. كان يمشي من دون رباطة جأش ومن دون روح سعيدة، مرفوع الهامة عبر ذلك البلد المنبسط البارد والباهت والذي يحبه رغم كل شيء، ويسمّيه «وطناً». كان يبدو منيعاً. وبدا أن قلبي خفق للحظة بنسق نبض قلبه نفسه، متفوقاً على الخوف وعلى الموت وعلى الوحدة. وفي ذلك التحدي أحسست أن فرنسا كانت بالنسبة إليّ أشبه بحبل كما لو انسجام حي جديد، حاولت في اللحظة عينها أن أجد له اسماً: هل كان كبرياءً وطنياً؟ هل كان ترياقاً؟ أو لعله الغضب الفرنسي[١] الذي يعترف به الإيطاليون للمقاتلين الفرنسيين؟

---

(١) furia francese وردت بالإيطالية في الأصل. المترجم.

رأيت وجه الجندي المسنّ يقفل ببطء، وأنا أشير ذهنياً إلى هذه السمات، وعينيه تنطفئان. ثم عاد ليصير شخصية من صورة قديمة بألوان رمادية داكنة. كان كما لو أنه أدار نظره ليخفي عني غموضه الذي لمحته لتوّي.

كانت تلك المرأة قطعة أخرى من الماضي. تلك التي تضع سترة من القطن المندوف وشابكا كبيرة، والتي اكتشفت صورتها داخل ألبوم مليء بالصور المنتمية إلى زنم عائلتنا الفرنسي. تذكرت أني ما إن أبديت اهتماماً بتلك الصورة، وما إن حدثت شارلوت بشأنها، حتى اختفت من الألبوم. بذلت جهداً كبيراً لمعرفة السبب غير أني لم أحصل على رد. وعاد المشهد ليظهر أمام عيني، فقد أظهرت الصورة لجدتي، وفجأة رأيت ظلاً سريعاً يمرق جعلني أنسى سؤالي. وعلى الجدار غطيت براحة يدي فراشة غريبة. كانت سفنكس برأسين وجسدين وأربعة أجنحة.

حدثت نفسي الآن، بعد أربع سنوات، بأن السفنكس المزدوج ذاك لم يكن يحمل أي شيء غامض بالنسبة لي، فقد كان فراشتين تتزاوجان بكل بساطة. فكرت في الناس المتزاوجين، محاولاً تصور حركات أجسادهم... وفجأة فكرت أنني، قبل أشهر، وربما قبل سنوات، لم أكن أفكر إلا في تلك الأجساد المتلاصقة الممزوجة. ومن دون أن أدري فكرت في ذلك، في كل لحظة من اليوم، وأنا أتحدث عن شيء آخر. كان كما لو أن جسد السفنكس المحموم يحرق راحة يدي طول الوقت.

بدا لي الآن سؤال شارلوت لمعرفة من تكون المرأة ذات السترة من القطن المندوف مستحيلاً قطعاً. فقد ظهر حاجز مطلق بيني وبين

جدتي، حيث الجسد الأنثوي المحلوم به والمُشتهى والذي يشغل البال ألف مرة.

قالت شارلوت، وهي تصب لي الشاي بصوت شارد:

ـ غريب أن الكوكوشكا لم يمر بعد...

رفعت ناظري إليها وأنا أُجثت من أحلامي. التقت نظراتنا... ولم نفعل شيئاً حتى نهاية الوجبة.

أولئك النساء الثلاث غيرن نظرتي، وحياتي...

اكتشفتهن مصادفة على ظهر جزء من جريدة طمرت في الحقيبة السيبيرية. قرأت مرة أخرى المقال حول سباق السيارات «بيكين ـ باريس مروراً بموسكو». وكما لأثبت لنفسي أن ليس لدي ما أتعلمه، وأن فرنسا شارلوت قد استنفدت، تركت بشرود الورقة تسقط على السجادة، ثم نظرت عبر باب الشرفة المشرع. كان يوماً خاصاً، عند نهاية شهر آب/ أغسطس. وكان يوماً ندياً ومشمساً، عندما حملت الريح الباردة التي عبرت سلسلة جبال الأورال الهبات الخريفية الأولى على سهبنا. وكان كل شيء يلمع في ذلك الضوء الصافي. كانت أشجار الستالينكا ترسم بوضوح هش تحت سماء زرقاء عادت للحياة. وكان الأفق يسطر سطراً صافياً وفاصلاً. وبارتياح مُرّ حدثت نفسي بأن نهاية عطلتي تقترب ونهاية فترة من حياتي أيضاً، نهاية تميزت بذلك الاكتشاف العجيب، وهو أن كل معرفتي لم تضمن لي السعادة أو الاتصال المتميز بالأهم... وثمّة تجلّ آخر أيضاً، فقد صرت أفكر في الجسد الأنثوي، وبأجساد النساء طول الوقت، وبأن كل الأفكار الأخرى كانت تكميلات وحوادث واشتقاقات. أجل، وصلت إلى أمر حتمي مفاده أن كون المرء رجلاً فذاك يعني أن يفكر بصفة دائمة

بالنساء، وبأن الرجل ليس سوى ذاك الحالم بالنساء! وبأني صرت كذلك. . .

وبنزوة مضحكة انقلبت صفحة الجريدة منزلقة على السجادة. التقطتها. وعلى ظهرها أبصرتهن. أبصرت النساء الثلاث لبداية القرن. لم أكن قد رأيتهن من قبل معتبراً كما لو أن ظهر صفحة الجريدة تلك غير موجود. ألقاني ذلك اللقاء غير المتوقع في وهاد الحيرة. وقرّبت الصورة من الضوء القادم من الشرفة. . .

وعلى الفور سقطت في غرامهن، في غرام أجسادهن، وعيونهن الرقيقة واليقظة والتي تدفع للتخمين بقوة بوجود مصوّر مُنحنٍ تحت ستارة سوداء خلف آلته ذات الأرجل الثلاث.

كانت أنوثتهن هي تلك التي تصيب بنجاح كبير قلب مراهق وحيد وفظ كما كان حالي. أنوثة معيارية نوعاً ما. فقد كن يرتدين فساتين سوداء طويلة، تبدي محاسن استدارة صدورهن، وترسم أردافهن، ولكن على الخصوص، وقبل أن يصل الثوب إلى السيقان، وقبل أن يميل إلى ثنيات رقيقة عند الأقدام، كان يخط النطاق الخفي لبطونهن. فتنتني الحساسية المحتشمة التي طفرت قليلاً من ذلك الثلاثي!

أجل، كان جمالهن بالفعل ما يمكن لحالم يافع ما يزال متصفاً بالبراءة الشهوانية أن يتصوره مراراً وتكراراً في مشاهد جنسية. كان تمثلاً لامرأة «كلاسيكية». فكرة أنثوية مجسدة، ورؤية للعشيقة النموذجية. كذاك على كل حال رحت أتأمل الأنيقات الثلاث، ذوات العيون الكبيرة المظللة بالسواد، بقبعاتهن الكبيرة بشرائطها المخملية الداكنة، وبشكلهن القديم في صور الأجيال السابقة، والتي تبدو لنا

دوماً كعلامة من أحد أنواع السذاجة، ببراءة عفوية يفتقدها معاصرونا، وتؤثر فينا، وتوحي لنا بالثقة.

والحقيقة أني كنت مندهشاً لدقة تلك الصدفة، فانعدام تجربتي الجنسية كان يدعو بالفعل تلك المرأة بصفة عامة. امرأة ما تزال محرومة من كل تلك الخصوصيات الشهوانية التي حددتها الرغبة الناضجة في جسدها.

كنت أتأملهن بقلق متصاعد. فقد كانت أجسادهن مستحيلة عليّ. أجل، لم يكن الأمر يتعلق باستحالة واقعية اللحاق بهن. فمنذ مدة طويلة، تعلم تخييلي الجنسي إحباط هذا العائق. كنت أغمض عينيّ لأرى المتنزهات الجميلات عاريات. ومثل عالم كيميائي، وبتركيب علمي، كان باستطاعتي إعادة تشكيل أجسادهن انطلاقاً من مواد عادية. ثقل فخذ تلك المرأة التي لمستني في حافلة مزدحمة، وانحناءات الأجساد المشربة بسمرة في الشواطئ، وكل عراة اللوحات، وحتى من جسدي أنا! أجل، فعلى الرغم مما يشكله العري من شيء محرَّم في بلدي، وعلى الخصوص العري الأنثوي لأسباب قوية، فقد نجحت في إعادة تكوين مطاطية نهد بين أصابعي، ومرونة ورك.

كلا، كانت الأنيقات الثلاثة منيعات عليّ لسبب آخر... فعندما أردت إعادة تكوين الزمن الذي أحاط بهن عملت ذاكرتي على الفور. تذكرت بليريو الذي عبر نهر المانش في تلك الفترة على متن طائرته أحادية السطح، وبيكاسو الذي رسم *آنسات آفينيون*... وترددت في رأسي أصوات الأحداث التاريخية المتنافرة. غير أن النساء الثلاث بقين جامدات بلا حياة. ثلاث قطع لمتحف تحت عنوان: أنيقات

الزمن الجميل في حدائق الشانزيليزيه. وهكذا فقد حاولت أن أجعلهن لي، وأن أخلق منهن عشيقات متخيلات. وبتركيب جنسي رحت أسوي أجسادهن، فأخذن في الحركة لكن بتصلب النائمين حد تولّد الرغبة في نقلهن وقوفاً بملابسهن مقلدات لحظات صحوهن. وكما لأؤكد شعور الخدر ذاك، فإن عملية التركيب الانفعالي استلّت من أعماق ذاكرتي صورة جعلت وجهي يتكدر. فذاك النهد الرخو كان نهداً ميتاً لعجوز سكيرة في المحطة. هززت رأسي لأتخلص من تلك الصورة المحبطة.

كان ينبغي الاكتفاء إذن بذلك المتحف المأهول بالمومياءات والتماثيل المشمعة بعناوينها «ثلاث أنيقات»، و«الرئيس فور وعشيقته»، و«محاربون مسنّون في قرية من الشمال». . . وأقفلت الحقيبة.

سمحت لنظري بأن يشرد، وأنا مستند إلى درابزين الشرفة في شفافية الليل المذهبة فوق السهب.

فكرت في لحظة إشراقة مباغتة وقاصمة مثل ضوء الغروب ذاك: «ماذا أفاد جمالهن في النهاية؟ أجل، ماذا أفادت نهودهن الجملية وأوراكهن وفساتينهن التي تخط بجمال أجسادهن الفتية؟ وما نفع أنهن كن جميلات جداً ووجِدن مكدّسات في حقيبة بالية في مدينة ناعسة ومغبرة ومفقودة وسط سهب لا ينتهي! في سارنزا هذه التي لم تكن لديهن أدنى فكرة عنها خلال حياتهن. . . كل ما بقي منهن إذن هذه الصورة التي نجت من تسلسل صدف كبيرة وصغيرة، وحفظت فقط كظهر للصفحة التي تشير إلى سباق السيارات الرابط بين بيكين وباريس. وحتى شارلوت نفسها لم تكن تحفظ أي ذكرى لتلك

الأجساد الأنثوية. كنت أنا، أنا الوحيد على هذه الأرض الذي يحافظ على آخر خيط يربطهن بعالم الأحياء! وذاكرتي كانت ملجأهن الأخير، ومقامهن الأخير قبل النسيان النهائي والكامل. كنت نوعاً ما إله كونهنّ المترنّح، من طرف الشانزيليزيه ذاك، حيث ما يزال جمالهن يلمع...».

وعلى الرغم من أني كنت إلهاً فلم أكن أمنحهن إلا حياة الدمى. حركت نابض ذكرياتي مجدداً، فأخذت الأنيقات الثلاث يجرين جرياً قصيراً، واحتضن رئيس الجمهورية مارغريت ستاينهيل، وسقط دون أورليانز وقد نفذت إليه الطعنات الغادرة، وأمسك المحارب المسن قبضة عنزته الطويلة ونفخ صدره...

تساءلت بحزن: «كيف أمكن لكل هذا الشغف وهذه المعاناة والحب والكلمات أن تترك قلة فقط من الآثار؟ أي سخف هي عليه قوانين هذا العالم حيث حياة نساء جميلات جداً ومرغوبات جداً تتوقف على تطاير صفحة. والحقيقة أنه لو لم تنقلب تلك الصفحة لما أمكنني إنقاذهن من النسيان الذي كان سيصير أبدياً. أية حماقة كونية يمثلها رحيل امرأة جميلة! رحيل من دون عودة، وانمحاء تام من دون ظل، ومن دون انعكاس. رحيل نهائي...»

انطفأت الشمس في عمق السهب وخلف الغابة، غير أن الجو حافظ طويلاً على الضوء البلوري لليالي الصيف الباردة. ترددت صرخة الكوكوشكا محدثاً صوتاً أعلى من ذلك الجو البارد. وكانت أوراق الأشجار مزينة ببعض الأوراق الصفراء. كانت الأوراق الصفراء الأولى. وترددت صرخة القطار الصغير مرة أخرى. كان بعيداً تلك المرة، وكانت صرخته ضعيفة.

عندما عدت مرة أخرى إلى ذكرى الأنيقات الثلاث خطرت لي هذه الفكرة البسيطة، وكانت الصدى الأخير للأفكار الحزينة التي حيرتني قبل فترة قصيرة: «لكن، لقد كانت في حياتهن تلك الصبيحة الخريفية الباردة والصافية، وفي ذلك الممر الذي نثرت على أرضيّته أوراق ميتة توقفن في لحظة، وتسمّرن أمام العدسة، موقفان تلك اللحظة... أجل، كانت في حياتهن تلك الصبيحة الخريفية المشرقة...»

أحدثت تلك الكلمات المقتضبة المعجزة. فعلى نحو مفاجئ، وبكل حواسي، ألفيتني أنتقل إلى تلك اللحظة التي توقفت فيها ابتسامات الأنيقات الثلاث، ووجدتني في أجواء تلك الروائح الخريفية. وكان أريج الأوراق مرّاً ونفّاذاً حد أن منخاريّ خفقا. وكنت أطرف بعيني تحت شمس تخترق الأغصان. وسمعت صوتاً بعيداً لعربة مكشوفة تتحرك على الأرصفة، ودفق بعض الردود المرحة المشوشة التي كانت تتبادلها النساء الثلاث قبل أن يتسمرن أمام المصور... أجل، كنت أعيش زمنهن بشدة وبامتلاء!

وكان وقع حضوري في تلك الصبيحة الخريفية إلى جوارهن كبيراً جداً حد أني انتزعت نفسي من ضوئها شبه مرتعب. خفت كثيراً أن أبقى هنالك إلى الأبد. عدت إلى حجرتي، أعمى وأصم، وسحبت صفحة الجريدة...

بدت صفحة الصورة ترتعش مثل صورة منقولة بألوان مبلولة وحية. أخذ منظورها المسطح يتعمق فجأة شيئاً فشيئاً، ويفر من ناظري. وهكذا، أخذت أتأمل وأنا بعد طفل، صورتين متماثلتين تبحر إحداهما باتجاه الأخرى ببطء قبل أن تمتزجا في صورة واحدة مجسدة. فتحت صورة الأنيقات الثلاث أمامي، وأخذت تحيطني شيئاً فشيئاً، سامحة

لي بأن ألج تحت سمائها، وظللتني الأغصان ذات الأوراق الصفراء الكبيرة...

ولم تعد الأفكار التي راودتني قبل ساعة (النسيان المطلق، والموت...) تعني شيئاً. كان كل شيء مضاءً جداً ومن دون كلمات. ولم أعد بحاجة حتى لرؤية الصورة. أغمضت عيني، وكانت اللحظة في داخلي. وخمنت درجة البهجة التي أحستها النساء الثلاث، حيث بُعثِت من جديد برودة الخريف وثياب الفصل، ولذة حياة المدينة بعد حرارة الصيف الخاملة وحتى، بعد فترة قصيرة، الثلج والبرد الذي سيزيد السحر.

وبدأت أجسادهن التي كانت منيعة قبل لحظة تعيش في داخلي لتجعلني أسبح في العطر الحارق للأوراق الجافة في الضبابة الخفيفة المشذرة بالشمس... أجل، خمنت الرعشة غير المحسوسة لديهن والتي يستقبل بها الجسد الأنثوي فصل خريف جديد، حيث ذلك المزيج من اللذة والفزع، وتلك السوداوية الصافية. لم يعد هناك أي عائق بيني وبين النساء الثلاث. أخذت أستشعر التحامنا وكان أكثر حباً وأكثر شهوانية من أي احتواء جسدي.

خرجت في تلك الصبيحة الخريفية لألفي نفسي تحت سماء شبه سوداء. كنت متعباً كما لو أني عبرت لتوي سابحاً نهراً كبيراً عندما نظرت حولي، وبالكاد تعرفت على الأشياء المعتادة. ومع ذلك فقد اجتاحتني رغبة في أن أعود أدراجي لرؤية منتزهات الزمن الجميل.

غير أن السحر الذي جربته لتوّي بدا وكأنه يفر مني مجدداً. ومن دون علمي أعادت ذاكرتي تشكيل انعكاس آخر للماضي. رأيت رجلاً وسيماً يرتدي لباساً أسود وسط مكتب باذخ. فتح الباب في صمت،

ودخلت امرأة غطت وجهها بحجاب، وبحركة مسرحية عانق الرئيس عشيقته. أجل، كان ذلك هو المشهد. وكان فجائياً ألف مرة، حيث المواعدات السرية لعاشقي الإليزيه. وبإيحاء من ذاكرتي، عاد المشهد ليمثل مرة أخرى بطريقة فودفيلية سابقة لأوانها. غير أن ذلك لم يكن كافياً بالنسبة لي...

فقد جعلني تغير وجوه الأنيقات الثلاث آمل أن يحدث السحر مرة أخرى. أذكر جيداً تلك الجملة العادية جداً التي أطلقت كل شيء: «ومع ذلك فقد كانت في حياة النساء الثلاث تلك الصبيحة الباردة والمشمسة...». ومثل ساحر متعلم عدت لأتخيل مجدداً الرجل ذا الشارب في مكتبه، أمام النافذة السوداء، وهمست الصيغة السحرية:

- ومع ذلك فقد كانت في حياته ليلة خريفية عندما كان يقف أمام النافذة السوداء، التي تهتز خلفها أغصان حديقة الإليزيه العارية...

ولم أدرك في أية لحظة اختفت حدود الزمان... فقد كان الرئيس يركز ناظريه على الانعكاسات المتحركة للأشجار من دون أن يرى شيئاً. كانت شفتاه قريبتين جداً من زجاج النافذة حد أن دائرة من البخار حجبته للحظة. لحظ ذلك فهز رأسه هزة خفيفة كرد على أفكاره الخرساء. خمنت أنه أحسن التيبّس الغريب للملابس على جسده. رأى أنه غريب عن نفسه. أجل، كان وجوداً غريباً مشدوداً أُجبر على التحكم فيه عن طريق تسمره الواضح. كان يفكر. كلا، لم يكن يفكر، بل كان يلتقط في مكان ما في تلك الحلكة الرطبة وخلف زجاج النافذة الحضور الحميمي المتزايد لتلك التي ستلج الحجرة عن قريب. قال بصوت خفيض مميزاً ببطء المقاطع اللفظية: «رئيس الجمهورية. الإليزيه...» وفجأة بدت له تلك الكلمات الاعتيادية جداً لاعلاقة لها بما كان عليه.

أحس بشدة بالرجل الذي سيتأثر بعد لحظة بالعذوبة الدافئة للشفتين الأنثويتين تحت الحجاب المتلألئ للقطرات المثلجة...

احتفظت للحظات بذلك الشعور المتناقض على وجهي.

جعلني سحر ذلك الماضي المتجسد أتحمس وأتشظى في آن. أخذت أتنفس جالساً في الشرفة مرتعشاً، وبنظر أعمى تائه في ليل السهوب. صرت بلاريب ممسوساً بكيمياء الزمن تلك. وما إن جلست إلى نفسي حتى تلوت «سمسمي»: «ومع ذلك فقد كانت في حياة ذلك الجندي المسنّ ذلك اليوم من فصل الشتاء...» ورأيت الرجل المسنّ حاملاً خوذة من خوذ الفاتحين. كان يمشي معتمداً على عنزته الطويلة. وكان وجهه المحمر بالريح قد أخفى أفكاراً مريرة حول شيخوخته، وتلك الحرب التي ستستمر حتى بعد أن يمضي. وفجأة شم في ذلك الجو الكامد لذلك اليوم البارد رائحة نار من خشب. وكانت تلك النكهة اللطيفة والحامضة شيئاً ما قد مُزجت ببرودة الملاح في الحقول العارية. استنشق المسنّ بعمق نسمة هواء شتوية لاذعة. زين ظل ابتسامة وجهه الصارم، وأطبق جفنيه قليلاً. كان هو ذاك الرجل الذي استنشق بشراهة الهواء البارد وهو يشم نار الخشب. ذاك الرجل، هناك، في تلك اللحظة، تحت تلك السماء... بدت له المعركة التي كان سيشارك فيها، وتلك الحرب التي سيخوضها، وحتى موته عينه، كأحداث بلا أهمية.

اجل، كانت مشاهد لوجهة غير محدودة وكبيرة جداً يشارك في صنعها في تلك اللحظة من دون وعي منه. كان يتنفس بشدة ويبتسم بعينين نصف مغمضتين. خمنت أن اللحظة التي يعيشها كانت بداية الوجهة التي استشعرها...

عادت شارلوت مع حلول الليل. كنت أعلم أنها تمضي من حين إلى آخر بعد الظهر إلى المقبرة. كانت تنزع الأعشاب البرية من على حاشية الورود من أمام قبر فيودور، وتسقيها وتنظف النصب التذكاري الذي تعلوه نجمة حمراء. وعندما يبدأ اليوم في الرحيل تغادر. وكانت تمشي ببطء عابرة سارنزا كلها، وتجلس أحياناً على إحدى المصطبات. وفي تلك الليالي، لم تكن تخرج إلى الشرفة...

دخلت البيت. سمعت بقلق خطواتها في الممر، ثم في المطبخ. ومن دون أن أمنح نفسي الوقت لأفكر في حركتي قصدتها طالباً منها أن تحكي لي عن فرنسا شبابها تماماً كما في الماضي.

بدت لي اللحظات التي أقمت خلالها مثل اختبار لجنون غريب. كانت جميلة ومخيفة في الآن عينه. وكان من المستحيل أن أنكرها، ذلك أن جسدي ظل يحفظ صداها المضيء. لقد عشتها بالفعل! لكن كان عليّ أن أنكر اكتشافي بروح ماكرة من التناقض، ومزيج من الخوف والعقل السديد الثائر، وأن أدمر العالم الذي لمحت بعض أجزائه. وكنت آمل من شارلوت حكاية طفولية مريحة لسنوات شبابها، ذكرى أليفة وصقيلة مثل كليشيه فوتوغرافي ستعينني على نسيان جنوني العابر.

لم ترد في الحال على طلبي. فهمت من دون شك أني إذا ما جرؤت على الإخلال بعادتنا بتلك الطريقة فلأن سبباً خطيراً أجبرني على ذلك. ولعلها فكرت في كل أحاديثنا التي لم تقل شيئاً منذ عدة أسابيع، وفي عادتنا في الحكي عند غروب الشمس، وفي ذلك الطقس الذي تمت خيانته في ذلك الصيف.

بعد دقيقة من الصمت تنهدت راسمة ابتسامة قصيرة على طرف شفتيها:

ـ ولكن ماذا أستطيع أن أقص عليك؟ صرت الآن تعرف كل شيء... انتظر. الأجدر أن أقرأ لك قصيدة...

ثم إني كنت على وشك أن أعيش بداية ليلة هي الأكثر غرابة في حياتي. ذلك أن شارلوت لم تكن تستطيع إيجاد الكتاب الذي كانت تبحث عنه. وبالحرية الرائعة التي كنا نراها تقلب بها تنظيم الأشياء أحياناً، ومع أنها المرأة المنظمة وصعبة المراس، فقد حولت الليلة إلى سهرة طويلة. وكانت أكوام الكتب مكدسة فوق الأرضيةفوقفنا على المائدة لنبحث في رفوف الأدراج العليا، غير أننا لم نجد الكتاب.

حوالي الساعة الثانية صباحاً، عندما وقفت شارلوت وسط الفوضى المرسومة من المجلدات والأثاث، قالت متعجبة:

ـ يا لي من بلهاء! بدأت بقراءة تلك القصيدة لكما أنت وأختك الصيف الماضي. هل تذكر؟ ثم... لم أعد أذكر. في النهاية توقفنا عند المقطع الشعري الأول. لابد أن الكتاب هنا.

انحنت شارلوت على الخزانة الصغيرة قرب باب الشرفة. فتحتها فوجدت الكتاب قرب قبعة من القش.

جلستُ على السجادة أنصت لقراءتها. وكان مصباح الطاولة الموضوع على الأرض يضيء وجهها. وكان ظلانا قد رُسِما على الحائط بدقة مذهلة. وبين الفينة والأخرى كانت نسمة باردة آتية من السهب الليلي تدخل عبر باب الشرفة. وكانت

نبرة صوت شارلوت أشبه بالكلمات التي يُسمع صداها بعد سنوات من ولادتها:

. . . غير أني، في كل مرة أتمكن من سماعه
تصغر روحي مئتي سنة . . .
كنت في عهد لويس الثالث عشر، واعتقدت أني أرى تلاً أخضر ممتداً
اصفرّ بفعل الغروب .

ثم قصراً من الآجرّ بجوانب من الحجر .
وبنوافذ صُبغت بألوان حمراء .
بحديقة كبيرة كحزام وبنهر
تسبح قدماه في جريانه بين الأزهار .

ثم سيدة من علياء نافذتها
شقراء بعينين سوداوين وملابس قديمة
رأيتها . . . لربما في حياة أخرى
وأذكرها!

لم نقل شيئاً خلال تلك الليلة الغريبة. فكرت قبل أن أخلد للنوم في ذلك الرجل في بلد جدتي، الذي ملك الشجاعة قبل قرن ونصف قرن ليحكي «جنونه». كانت تلك اللحظة الحالمة حقيقية أكثر من أي واقع سليم.

استفقت في صبيحة اليوم الموالي متأخراً. وكان النظام قد عاد إلى الغرفة المجاورة. . . وكانت الريح قد غيّرت مسارها حاملة معها نفحات حارة. وبدا يوم أمس البارد بعيداً جداً.

خرجنا إلى السهب عند منتصف النهار. ومن دون أن نخطط لذلك مشينا في صمت متجاورين ملتفين حول علّيقات الستالينكا. عبرنا

بعدها خطوط السكة الحديد الضيقة والتي غزتها الأعشاب البرية. وفي البعيد أسمعنا الكوكوشكا نداءه الذي كان عبارة عن صفير. رأينا الموكب الصغير الذي بدا وكأنه يعدو وسط باقات الأزهار. دنا وتجاوز ممرنا الضيق، ثم غاص في ستار الحرارة. تابعته شارلوت بعينيها، ثم همست برقة وهي تتابع المسير:

ـ أخذت قطاراً في طفولتي شبيهاً نوعاً ما بهذا الكوكوشكا. كان يحمل ركاباً، وكان ينعرج بعرباته الصغيرة ببطء عبر بروفانس. كنا نقصد إحدى الخالات لبضعة أيام وكانت تقطن... لم أعد أذكر اسم تلك المدينة. أذكر فقط الشمس التي كانت تجتاح التلال والأصوات المغردة والجافة لزيز الحصاد، عندما كنا نقف في محطات صغيرة غارقة في سُباتها. وكانت تمتد على تلك التلال المترامية على مد البصر حقول الخزامى... أجل، الشمس، وزيز الحصاد، وتلك الزرقة الشديدة والرائعة التي تدخلها الريح عبر النوافذ المشرعة...

كنت أمشي جوارها صامتاً. وأحسست بأن «كوكوشكا» سيكون منذ تلك اللحظة أول كلمة في لغتنا. اللغة التي ستقول ما يدقّ عن الوصف.

بعد يومين رحلت عن سارنزا. ولأول مرة في حياتي لم يعد صمت الدقائق الأخيرة قبل انطلاق القطار باعثاً على الانزعاج، فقد أخذت أرقب شارلوت من النافذة وسط الجموع حيث كان الناس يومئون مثل المصابين بالصمم والبكم، مخافة ألا يسمعهم المغادرون. صمتت شارلوت. ولما التقت نظراتنا ابتسمت بدعة. ولم نكن بحاجة إلى كلمات.

الفصل الثالث

[١]

في فصل الخريف، فصلت أيام قلائل بين الوقت الذي دخلت فيه أمي المستشفى، وكانت قد أخبرتنا بأن ذلك من أجل «كشف بسيط»، وحيث أجدني خجلاً من الاعتراف لنفسي بسعادتي لغيابها، وبين بعد ظهر ذلك اليوم الذي علمت فيه بوفاتها عند خروجي من المدرسة.

ففي اليوم الموالي لمغادرتها إلى المستشفى استقرت في شقتنا فوضى عذبة. ذلك أن والدي بقي أمام التلفاز حتى الساعة الواحدة صباحاً، في حين كنت أنا أستمرئ مقدمة بلوغي سن الرشد محاولاً أن أؤخر كل يوم ساعة وصولي إلى البيت، التاسعة، ثم التاسعة والنصف، فالعاشرة. . .

كنت أمضي تلك الأماسي في ملتقى طُرق حيث يتولّد في غسق الخريف وبشيءمن الجهد التخيّلي وَهْمٌ مدهش: وَهْمُ أمسية ماطرة في عاصمة غربية. كان مكاناً فريداً وسط شوارع عريضة رتيبة في مدينتنا. وكانت الشوارع التي تتلاقى هناك تتلاشى كما لو أنها أشعة دائرة. وكانت واجهات العمارات تبقى مقسمة إلى مربعات منحرفة. وكنت أعرف مسبقاً أن نابوليون كان قد أمر بمثل ذلك المظهر في

باريس عند تقاطعات الشوارع تفادياً لاصطدام العربات...

وكلما كان يشتد الظلام كان وهمي يصير كاملاً. ولم يكن يضايقني أني أعرف أن أحد تلك المنازل كان يضم المتحف المحلي للإلحاد، وأن جدران البيوت الأخرى كانت تخفي خلفها شققاً اجتماعية تفيض بالبشر. كنت أتأمل الرسم المائي الأصفر والأزرق للنوافذ تحت الأمطار، وانعكاس المصابيح على الإسفلت الدسم، وظلال الأشجار العادية. كنت وحيداً وحراً. وكنت سعيداً. وكنت أحدث نفسي هامساً بالفرنسية. وبدت لي نغمية تلك اللغة أمام تلك الواجهات المربعة عادية جداً. هل كان السحر الذي اكتشفته ذلك الصيف سيتجسد في لقاء؟ كانت كل امرأة تمر جواري تبدو كأنها تريد محادثتي. وكانت كل نصف ساعة اغتنمها من المساء تؤثث سرابي الفرنسي. لم أعد أنتمي إلى زمني أو إلى بلدي، ففي ملتقى الطرق الصغير المظلم ذاك كنت أحسني بروعة غريباً عني.

أضحت الشمس تصيبني بالملل. وصار النهار انتظاراً غير مجد قبل حياتي الحقيقية، قبل المساء...

ومع ذلك فقد علمت بذلك النبأ في واضحة النهار، وعندما كنت أطرف بعيني اللتين أعماهما تلألؤ المُلاّح الأول. كنت ماراً عندما دوّى صوت وسط ضجيج التلاميذ الذين استمروا في إظهار عداء تحقيري اتجاهي.

ـ هل سمعتم؟ لقد توفيت والدته...

واجهتني بعض النظرات المتطفلة. تعرفت إلى من تحدث. كان ابن الجيران...

وكان عدم الاهتمام الذي جوبه به الرد هو ما منحني الوقت لأتخيل

الوضع العجيب المتمثل في أن أمي قد ماتت. تجمعت فجأة كل أحداث الأيام الأخيرة في لوحة منسجمة حيث غيابات والدي المتكررة، وصمته، ووصول أختي قبل يومين (خاطبت نفسي قائلاً إنها كانت هناك على الرغم من عدم وجود عطلة جامعية...)

كانت شارلوت من فتح لي الباب. وكانت قد وصلت في الصباح نفسه من سارنزا. كان الجميع يعلم إذن! أما أنا فقد بقيت «الطفل الذي لن يُخبر بشيء الآن». واستمر ذلك الطفل الذي يجهل كل شيء في القيام بخطواته المئة إلى ملتقى الطرق «الفرنسي» الخاص به، معتقداً أنه راشد وحر وغامض. وكان أول شعور حثتني عليه وفاة والدتي هو إزالة ذلك الوهم، وحل الخجل محله. ذلك أن أمي كانت تموت بينما كنت في انشراح أناني أستلذ حريتي، وأعيد تشكيل الخريف الباريسي تحت نوافذ متحف الإلحاد!

كانت شارلوت الوحيدة التي لم تذرف الدمع خلال كل تلك الأيام الحزينة ويوم الدفن. وكانت بوجه لا يُفصح عن شيء وعينين هادئتين تقوم بكل الواجبات المنزلية وتستقبل الضيوف وتساعد في إقامة الأقارب الذين حضروا من مدن أخرى. وكان جفاؤها لا يُسرّ الناس...

عندما همَّت بالمغادرة خاطبتني قائلة: «يمكن أن تزورني متى شئت». هززت رأسي وأنا استعيد رؤية سارنزا، والشرفة، والحقيبة المملوءة بالجرائد الفرنسية القديمة، وخجلت من نفسي مرة أخرى. فبينما كنا نحكي القصص، وكانت الحياة تستمر بسعادتها الحقيقية وآلامها الحقيقية، كانت أمي تعمل وهي مريضة من دون أن تصارح أحداً بذلك. وكانت تعلم أنها مساقة إلى الموت دون أن تخون سرها

بكلمة أو بحركة. أما نحن فكنا نتحدّث على امتداد أيام عن أنيقات الزمن الجميل...

راقبت رحيل شارلوت بارتياح مضمر. أحسستني مشاركاً بقلق في وفاة والدتي. أجل، حملت تلك المسؤولية الغامضة التي يشعرها المتفرج الذي تجعل نظراته بهلواناً يترنح أو يسقط. كانت شارلوت من علّمني أن أميّز الأجساد الباريسية في قلب مدينة صناعية كبيرة على الفولكا. وكانت قد سجنتني في ذلك الماضي الحالمالذي كنت ألقي من خلاله بعض النظرات الخاطفة وغير المهتمة على الحياة الواقعية.

والحياة الواقعية كانت طبقة الماء التي رأيتها مرتعشاً تثبت في قعر القبر يوم الدفن. فتحت مطر خريفي خفيف كان النعش يوضع ببطء، وسط خليط من الماء والطين...

وعمَّ استشعار الواقع أيضاً بوصول عمتي أخت والدي التي تكبره سناً. كانت تقطن ضيعة عماليه يستيقظ الناس فيها على الساعة الخامسة صباحاً، وينتشرون عند أبواب مصانع المدينة الكبرى. حملت تلك المرأة معها النفس الثقيل والقوي للحياة الروسية. وهو مزيج غريب من الهمجية والرأفة والثمالة والفوضى وبهجة الحياة التي لا تقهر والدموع والعبودية المرتضاة والعناء البليد والدهاء غير المتوقع... اكتشفت بتفاجؤ متزايد عالماً كان محجوباً في الماضي من قبل فرنسا شارلوت.

وكانت العمة تخشى كثيراً أن يتوجه أبي للشرب وهو فعل قاتل بالنسبة للرجال الذين عرفتهم في حياتها. وهكذا فقد كانت تردد كلما حضرت لرؤيتنا: «لا تشرب يا نيكولاي. لا تقرب المرّ بصفة

خاصة!» وكانت تقصد الفودكا. وكان يوافق على قولها بطريقة آلية ومن دون أن يسمعها، مؤكداً على ذلك بحركات من رأسه بحزم قائلاً:

ـ كلا، كلا. كان عليّ أن أموت أولاً. هذا مؤكد مع هذا...

ثم يمرر راحةِ يده على صلعة رأسه. كنت أعلم أنه كان يحمل «ثقباً» فوق أذنه اليسرى، وأن ذلك المكان لم يكن مغطى سوى بشريحة جلد دقيقة وملساء، تحركها نبضات إيقاعية. وكانت والدتي تخشى دوماً أن يقضي والدي إذا ما انخرط في شجار بنقرة أصبع بسيطة...

ـ لا تقرب المر بصفة خاصة...

ـ كلا، كان عليّ أن أموت أولاً...

لم يشرع في الشرب. ومع ذلك فقد بدت تحذيرات أخته مبرّرة بشكل غبي. ففي شهر شباط/فبراير وفي وقت آخر موجات برد فصل الشتاء وأكثرها قسوة، سقط في أحد الشوارع المثلجة مساء صريعاً بسبب سكتة قلبية. فكر أعضاء المليشيا الذين وجدوه ممدداً وسط الثلج بأنه سكير بكل بساطة، وحملوه إلى «مكان إزالة السكر». وفي الغد فقط اكتشفوا الخطأ...

ومرة أخرى حلّت الحياة الواقعية بقوتها المتغطرسة لتتحدى خيالاتي. وبدا ذلك الصوت وحده كافياً. فقد كان الجسد محمولاً داخل شاحنة صغيرة مغطاة كان الجو فيها بارداً تماماً مثلما هو الحال في الخارج، وذاك الجسد الموضوع على الطاولة. وأخذنا نسمع صوت ارتطام لوح الثلج بالخشب...

لم أكن أستطيع أن أكذب على نفسي. فوسط ذلك الركام العميق

جداً من الأفكار المكشوفة، والاعترافات من دون مراوغة، لم يترك رحيل والديّ في روحي رضوضاً لا تشفى. أجل، أقرّ بأني خلال تلك المواجهات السرّية مع نفسي لم أتألم كثيراً.

فإذا ما بكيت فما ذلك لأني فقدتهما. كانت دموع عجز أمام حقيقة مذهلة حيث جيل بأكمله من القتلى، ومن مبتوري الأعضاء، ومن «فاقدي الشباب». عشرات الملايين من الكائنات مُحيت من الدنيا. كان لأولئك الذين سقطوا في ساحة الحرب على الأقل شرف الحصول على ميتة بطولية. غير أن الناجين الذين اختفوا بعد عشر سنوات أو عشرين سنة بعد الحرب بدوا وكأنهم ماتوا بشكل «طبيعي» جداً، وبفعل «الشيخوخة». وكان يلزم الاقتراب كثيراً من والدي لرؤية ذلك الأثر فوق أذنه المقعر قليلاً حيث ينبض الدم. وكان ينبغي معرفة أمي لتمييز تلك الطفلة بداخلها، المسمرة أمام نافذة مظلمة تحت سماء مفعمة بنجوم غريبة ذات أزيز، ولرؤية تلك المراهقة الهزيلة داخلها والشاحبة، والتي كانت تخنق نفسها وهي تلتهم قشور البطاطس...

كنت أنظر إلى حياتيهما من خلال ضباب الدموع. رأيت والدي في مساء حار من شهر حزيران/ يونيو يعود إلى البيت بعد تسريح الجنود في قريته مسقط رأسه. كان يعرف كل شيء: الغابة والنهر وانحناءات الطريق، ثم ذلك المكان المجهول، ذلك الشارع المظلم المؤلف من صفين من الإسبات المحروقة وليس فيها شخص واحد حيّ. لا شيء سوى أصوات الوقواق السعيدة على إيقاعات النبضات الحارقة للدم فوق أذنه.

ورأيت أمي، طالبة نجحت لتوّها في امتحانات ولوج الجامعة.

تلك الشابة المتحجرة كقطة جليد في وقفتها العسكرية أمام جدار من الوجوه المحتقرة، ذلك أن لجنة من الحزب اجتمعت للحكم على «تهمتها». وكانت تدرك أن جنسية شارلوت، أجل «فرنسيتها»، كانت عيباً فظيعاً في ذلك الوقت حيث الحرب على «الوطنية العالمية». وكانت قد كتبت في استمارة الأسئلة التي عبأتها بيد مرتعشة: «أُمّ من جنسية روسية»...

والتقيا. كانا مختلفين جداً وقريبين جداً في شبابهما المعذب. ثم ولدنا أنا وأختي. واستمرت الحياة على الرغم من الحروب والقرى المحروقة والمعسكرات.

أجل، إذا ما بكيت فقد كنت أفعل ذلك أمام خضوعهما الصامت. لم يكونا ناقمين على أحد، ولم يطلبا جبراً. كانا يعيشان معاً ويحاولان جعلنا سعيدين. وهكذا قضى والدي حياته كلها يشق المساحات اللامتناهية بين الفولكا والأورال صاعداً مع لوائه الخطوط ذات التوتر العالي. أما أمي التي طردت من الجامعة بعد جريمتها، ولم تملك الشجاعة لإعادة المحاولة، فقد غدت مترجمة في أحد أكبر مصانع مدينتنا، كما لو أن الفرنسية التقنية تلك وغير الشخصية برّأتها من فرنسيتها الجرمية.

لاحظت حياتيهما العاريتين والعجيبتين في الآن ذاته فأحسست غضباً غامضاً يتصاعد بداخلي. لم أكن أعرف تماماً ضد من. بلى، كنت أعرف. كان ضد شارلوت! ضد صفاء عالمها الفرنسي، وضد التهذيب غير المجدي لذاك الماضي الخيالي. أية حماقة كان التفكير في ثلاث سيدات ظهرن في قصاصة جريدة تعود لبداية القرن أو محاولة تشكيل الحالة النفسية لرئيس عاشق! ونسيان ذاك الجندي الذي نجا بفضل فصل

الشتاء والذي شدّ رأسه المهشمة داخل قوقعة من الجليد مانعاً تدفق الدم.
ونسيان أني إذا ما عشت فالفضل في ذلك يعود إلى قطار مضى من دون وجهة معلومة وسط المواكب المليئة بالأجساد البشرية المضغوطة. قطار كان يحمل شارلوت وابنيها ليخفيهم في أعماق روسيا الحارسة . . .
وجملة الدعاية التي كنت أنظر إلها من قبل بلامبالاة حيث «عشرون مليون شخص ماتوا حتى تعيشوا!». أجل، أخذ هذا المقطع الوطني معنى جديداً بالنسبة لي وأليماً، وشخصياً جداً.

استيقظت روسيا بداخلي مثل دُبّ بعد فصل شتاء طويل. روسيا قاسية القلب وسخيفة وفريدة. روسيا مناقضة لباقي العالم بمصيرها المظلم.

أجل، إذا ما حدث أن بكيت عند موت والدتي، فقد كنت أبكي لإحساسي بأني روسي. و أخذ التطعيم الفرنسي لقلبي يؤلمني جداً أحياناً.

ساهمت أخت والدي، عمتي، في ذلك التحول من دون وعي منها بذلك . . .

استقرت في شقتها مع ابنيها، قريبيّ الأصغر مني سناً، سعيدة أنها تركت شقتها الشعبية المزدحمة داخل ضيعتها العمالية. لم تشأ فرض طريقة عيش أخرى بمحو آثار حياتنا السابقة. كلا، كانت تعيش كما اتفق. وتلاشت كل غرابة عائلتنا بفرنسيتها الخفية جداً والبعيدة جداً عن فرنسا، مثل فرنسية الترجمات التقنية لوالدتي، من تلقاء نفسها.

وكانت عمتي تتحدر من العهد الستاليني. وكان ستالين قد مات منذ عشرين سنة، غير أنها لم تتغير. ولم يكن الأمر يتعلق بحب كبير لقائد الجنرالات. فقد توفي زوجها في اضطرابات أيام الحرب الأولى

القاتلة. وكانت عمتي تعرف المسؤول عن تلك البداية الكارثية. فكانت تحكي لمن أراد سماع ذلك منها. حيث أمضى والد ابنيها الذي لم تتزوج به قط، ثماني سنوات في أحد المعسكرات. وكانت تقول: «بسبب لسانه الطويل جداً».

كلا، كانت «ستالينيتها» ظاهرة بصفة خاصة في طريقة حديثها، وطريقة لباسها، وطريقة نظرها إلى عيون الآخرين كما لو أنهم ما يزالون في خِضمّ الحرب، وكما لو أن المذياع ما يزال يستطيع أن يثير الدهشة بصوت مأتمي وللعواطف: «بعد معارك بطولية وضارية سلّم جيشنا مدينتنا مدينة كييف... سلم مدينة سمولينسك... وسلّم مدينة...» فتتسمر كل الوجوه متتبعة ذلك الزحف القاسي في اتجاه موسكو... كانت تعيش كما في تلك السنوات حيث يتبادل الجيران نظرة صامتة مشيرة بحركة بالحاجب إلى أحد المنازل، ذلك أن الأسرة حملت على ركوب سيارة سوداء في الليل...

وكانت تضع شالاً داكناً كبيراً، وترتدي معطفاً قديماً من الجوخ المبطن. وفي فصل الشتاء كانت تبدو بحذاءين عاليين من اللبد بينما وفي فصل الصيف، بحذاءين مقفلين على نعلين عريضين. وما كنت لأدهش لرؤيتها ترتدي سترة عسكرية، وتحتذي حذاءي الجنود. وعندما كانت تضع الفناجين على الطاولة كانت يداها الكبيرتان كأنهما تحركان حلقات القذائف على سلسلة مصنع أسلحة، كما كان الأمر خلال الحرب تماماً...

وكان والد ابنيها، الذي كنت أناديه بلقبه العائلي دميتريش، يزورنا أحياناً، فيتردد في مطبخنا صوته الأجش الذي يبدو أنه يكتسب حرارة شيئاً فشيئاً بعد شتاء طويل دام سنوات طويلة. ولم يكن له ولعمتي ما

يخسرانه، لأجل ذلك لم يكونا يخشيا شيئاً. وهكذا فقد كانا يتحدثان عن كل شيء بفظاظة عدوانية ويائسة. وكان الرجل يفرط في الشرب غير أن عينيه تحتفظان بصفائهما. وكان يصر فقط على فكيه صَرّاً أكثر قوة كما لو أنه يريد أن يتلفظ الكلمات بشكل أفضل. وبين الفينة والأخرى يلقي ببعض الأقسام الغليظة متوعداً المعسكرات. وكان هو من دفعني للشرب أول كأس ڤودكا. وبفضله تمكنت من تصور روسيا غير المرئية. تلك القارة المحاطة بالأسلاك الشائكة والمَراقب. ذاك البلد المنيع حيث تأخذ الكلمات حتى البسيطة منها معاني رهيبة، وتحرق الحروق مثل ذاك «المر» الذي شربته في كأس سميكة ذات أُوجه عديدة.

تحدّث يوماً عن بحيرة صغيرة في عمق تايغا التي تبقى مجمدة أحد عشر شهراً في السنة، والتي تحوّل عمقها بإرادة زعيم معسكرهم إلى مقبرة. كان ذلك أيسر من حفر الحفر، وكان المساجين يموتون بالعشرات...

ـ قصدناها يوماً في فصل الخريف، وكان علينا إيداع عشرة أو خمسة عشر منهم في الماء. وكانت هناك فجوة. وهكذا تمكنت من رؤيتهم. رأيت كل الآخرين الذين سبقوا. كانوا عارين إذ كانت تؤخذ ملابسهم الرثة، أجل عارين تحت الثلج ولم يكونوا متعفنين أبداً. كانوا مثل قطعة الخولوديت!

أضحت الخولوديت قطعة اللحم المجمدة تلك، والتي كان طبق منها على مائدتنا، كلمة مخيفة، حيث الجليد واللحم والموت متجمداً بأصوات حادة.

أشد ما كان يؤلمني في اعترافاتهم الليليّة هو حب روسيا الذي لا

يصيبه التلف والذي كانت تلك المناجاة تزرعه داخلي. وظهر عقلي المتصارع مع نهشة الڤودكا لأعلن: «هذا البلد همجي! حيث الشر والتعذيب والألم والتشويه الجسدي الذاتي هي الأشياء المفضلة لسكانه التي يزجون بها أوقات فراغهم. ومع ذلك أحبه! أحبه لسخفه، ولمظاهر همجيته. كنت أرى في ذلك معنى سامياً لا يمكن لأي تحليل منطقي أن يدرك معناه...»

كان ذلك الحب تمزيقاً دائماً. وكلما بدت روسيا التي أكتشفها أكثر سواداً ازداد ذلك التعلق عنفاً. ولأحبه كأن ذلك يتطلب مني اقتلاع عينيّ وصمّ أذنيّ ومنع التفكير.

في إحدى الأمسيات سمعت عمتي وخليلها يتحدثان عن بيريا...

علمت من قبل من خلال أحاديث ضيوفنا ما يخفيه ذلك الاسم المرعب. كانوا ينطقونه بازدراء، ولكن بمسحة ذعر محترم. ولما كنت صغيراً فإني لم أوفق في إدراك منطقة الظل المقلقة في حياة ذلك الظالم. خمنت فقط أن الأمر يتعلق ببعض الضعف البشري. كانوا يتحدثون عنه بأصوات شبه خافتة. وجرت العادة أن يتمّ في تلك اللحظة اكتشاف وجودي دوماً لأطرد من المطبخ...

صرنا منذ ذلك الوقت ثلاثة في مطبخنا. ثلاثة راشدين. وعلى أي حال، لم يكن لعمتي ولدميتريش ما يخفيانه عني. كانا يتحدثان من خلال ضباب التبغ الأزرق، ومن خلال السكر، لأتخيل سيارة سوداء كبيرة بزجاج حاجب. وعلى الرغم من كبر حجمها كانت على هيئة سيارة أجرة ناهبة. كانت تتحرك ببطء ماكر، وتكاد تتوقف قبل أن تعود لتتحرك بسرعة كما لتقبض على أحدهم. بفضول رحت أرقب غدوها ورواحها في شوارع موسكو. فجأة خمنت السبب. كانت

السيارة السوداء تتعقب النساء. نساء جميلات وشابات. وكانت تتفحصهن عبر زجاجها الكامد، وتتحرك على إيقاع خطواتهن قبل أن تدعهن أو تقرر أحياناً أن تبدأ ملاحقتهن في أحد المستقيمة...

ولم يكن لدميتريش من سبب ليحترس مني. وهكذا كان يحكي كل شيء من دون عذر. كان يجلس في المقعد الخلفي للسيارة شخص بدين وأصلع بنظارة أنفية غارقة في وجه ممتلئ. كان بيريا يختار الجسد الأنثوي الذي يثير الرغبة لديه. بعد ذلك يوقف رجاله المرأة المارة. كان ذلك العهد الذي ما كان المرء يحتاج فيه حتى إلى عذر لفعل ذلك. وكانت المرأة التي تُقتاد إلى إقامته تُغتصب وتُكسر شوكتها بفعل الكحول والتهديد والتعذيب...

لم يزد ديمتريش شيئاً، لأنه لم يكن يعلم ما تؤول إليه تلك النساء. على أي حال لم يكن أحد يراهن مجدداً.

أمضيت عدة ليال من دون أن أنام. كنت أقف أمام النافذة بعينين معميتين وجبهة رطبة. كنت أفكر في بيريا وفي أولئك النساء اللواتي حُكم عليهن بألا يعشن إلا ليلة واحدة. كان عقلي يحترق. رأيتني أباً أو خطيباً أو زوج شابة لاحقتها السيارة السوداء. أجل، ولثوان فقط قدر تحملي، ألفيتني بدل ذلك الرجل، بجزعه وبدموعه وبغضبه غير المجدي والعاجز، وبخضوعه. ذلك أن الجميع كانوا على علم بطريقة اختفاء أولئك النساء! وتتقلص بطني في تشنج ألم فظيع. أفتح النافذة، وألتقط قطعة جليد علقت على حافتها، وأمسح بها وجهي. لم يهدئ ذلك من اشتعالي إلا لدقيقة. رأيت في تلك اللحظة ذلك الرجل جالساً خلف زجاج السيارة الحاجب، تنعكس الأجساد الأنثوية على زجاج نظارته الأنفية. كان ينتقيهن، ويحسهن، ويقيّم مفاتنهن، ثم يختار...

أما أنا فقد كنت أكره نفسي! ذلك أني لم أستطع منع نفسي من الإعجاب بمتربص النساء ذاك. أجل، كان في داخلي شخص يشعر بالنشوة أمام قوة الرجل ذي النظارة الأنفية كان يشعر برعب وبخجل أيضاً. كل النساء كن ملكه! كان يتجول عبر موسكو اللامحدودة تماماً كما لو أنها حريم. وأشد ما كان يفتنني هو عدم اكتراثه. لم يكن بحاجة لأن يكون محبوباً. ولم يشغل باله قط بما يمكن أن تشعر به مصطفاته اتجاهه. كان يختار امرأة. يشتهيها. ويملكها في اليوم نفسه. ثم ينساها. وكل الصراخ والنحيب والدموع والحشرجات والتوسلات والشتائم التي يمكن أن يسمعها لم تكن بالنسبة إليه إلا بهارات تزيد من نكهة الاغتصاب.

فقدت وعيي في بداية ليلة سهادي الرابعة. اعتقدت، مباشرة قبل إغمائي، أني أنفذ إلى فكرة إحدى تلك النساء المغتصبات الهشة، تلك التي خمنتْ أنهم لن يسمحوا لها أبداً بالرحيل. ترددت تلك الفكرة التي اخترقت حالة السكر التي أجبرت على دخولها، وألمها، وتقززها، في رأسي لتلقيني أرضاً.

عندما عدت إلى نفسي كنت أحسّني شخصاً آخر أكثر هدوءاً وأكثر مقاومة أيضاً، مثل مريض استرجع عادة المشي بعد عملية جراحية. وهكذا فقد أخذت أتقدم ببطء من كلمة إلى كلمة أخرى. وكنت محتاجاً إلى أن أعيد ترتيب كل شيء. همست في الظلام كلمات قصيرة تشهد على حالتي الجديدة:

ـ كان في داخلي إذن الشخص القادر على تأمّل عمليات الاغتصاب تلك. وكان من الممكن أن آمره بأن يخرس، غير أنه كان هناك دوماً. وإذن كل شيء مباح من ناحية المبدأ. بيريا من علّمني ذلك.

وإذا ما كانت روسيا تسحرني فلأنها لاتعرف حدوداً سواء في الخير أو في الشر، وخاصة في الشر. فقد مكنتني من أغبط صائد النساء ذاك، وأن أكره نفسي، وأن ألحق بتلك المرأة المقتولة التي سحقت بتلك الكتلة البشرية الممزقة، وأن أخمن آخر فكرة واضحة لديها، فكرة الموت الذي سيعقب ذلك الوصل الكريه. وآمل أن أموت معها في الوقت نفسه، ذلك أنه لا يمكن للمرء أن يستمر في العيش حاملاً بداخله ذلك الشخص الآخر المعجب ببيريا...

أجل، كنت روسياً. أدركت بطريقة كانت ما تزال ملتبسة ما يعنيه ذلك. أن يحمل المرء في روحه كل تلك الكائنات التي شوّهتها المعاناة، وتلك القرى المحروقة، وتلك البحيرات المتجمدة المملوءة بالجثث العارية. أن يعرف المرء خضوع قطيع بشري مغتصب من قبل مرزبان، وفظاعة الإحساس بالمشاركة في تلك الجريمة، والرغبة المحمومة في أن يلعب مرة أخرى كل تلك القصص الماضية، لينتزع منها الألم والظلم والموت. أجل، أن يلحق بسيارة سوداء في شوارع موسكو ويسحقها تحت باطن كفه الماردة. ثم يرافق بناظريه الشابة التي تدفع باب بيته حابساً أنفاسه، وتصعد الدرجات... أن يعيد القصة. أن يطهر العالم. أن يلاحق الشر. أن يمنح ملجأً لكل أولئك الناس في قلبه حتى يستطيع أن يفرج عنهم يوماً في عالم محرر من الشر. لكن، في انتظار ذلك، أن يقتسم معهم المعاناة التي أصابتهم. أن يكره نفسه لكل ضعف. وأن يمضي بتعهده ذاك حد الهذيان، وحتى الغثيان. أن يعيش يومياً على حافة الهاوية. أجل، تلك هي روسيا.

هكذا إذن، وفي غمرة اضطرابي الفتي، تشبثت بهويتي الجديدة،

حتى أنها صارت بالنسبة لي الحياة التي كانت كما اعتقدت ستمحي إلى الأبد وهمي الفرنسي.

أظهرت تلك الحياة سريعاً مزيّتها الرئيسية (والتي تمنعنا رتابة الأيام من رؤيتها)، المتمثلة في استبعاد حدوثها المطلق.

كنت أعيش داخل الكتب. كنت أتقدم من شخصية إلى شخصية أخرى، متتبعاً منطق حبكتها الغرامية أو الحربية، غير أنه في مساء شهر آذار/مارس ذاك، وكان مساءً فاتراً جداً حتى أن عمتي فتحت نافذة مطبخنا، أدركت أنه ما من منطق في هذه الحياة، وما من ترابط منطقي، وأن الموت وحده لربما كان الشيء المتوقع فيها.

علمت في ذلك المساء ما أخفاه عني والدي دائماً. ذلك الحادث المضطرب الذي وقع في آسيا الوسطى حيث شارلوت والرجال المسلّحون، وتدافعهم وصراخهم. لم أحفظ إلا الذكرى المبهمة والمضببة والطفولية لقصص الماضي. كانت أحاديث الراشدين عصيّة جداً!

أعماني وضوحها تلك المرة. قالت لي عمتي بصوت عادي وهي تضع البطاطا المستشيطة في أحد الصحون، موجهة كلامها إلى ضيفنا الذي كان يجلس جوار دميتريش:

ـ بطبيعة الحال لا يعيشون هناك مثلنا. فهم يصلّون خمس مرات في اليوم. تصوروا! حتى أنهم يأكلون من دون موائد. أجل، جميعهم يفعلون على الأرض، على السجاجيد ومن دون ملاعق. يأكلون بأصابعهم!

عارض الضيف فقط من أجل تنشيط الحوار، وبنبرة من يعرض حججه قال:

ـ هم ليسوا مثلنا؟ هذه مبالغة. كنت في طشقند الصيف الماضي. هل تعلمين؟ ليس الأمر بالمختلف كثيراً عن ما نعيشه هنا...

ثم شرعت في الحديث بصوت مرتفع، سعيدة أنها وجدت طعماً جيداً، وأن العشاء يعد بأن يكون حافلاً وباعثاً على السرور. قالت:

ـ وهل كنت في صحرائهم؟ أجل، في الصحراء؟ جدّته على سبيل المثال (قامت العمة بإشارة بذقنها اتجاهي) شيرل تلك... شورل... المهم تلك الفرنسية. لم يكن طريفاً البتة ما حدث لها هناك. أمسكها أولئك الباسماشي، رجال العصابات أولئك الذين رفضوا السلطة السوفياتية. كانت ما تزال شابة بعد، واغتصبوها ولكن مثل حيوانات متوحشة! جميعهم، الواحد في أثر الآخر. كانوا ستة أو ربما سبعة. وتقول بأنهم «مثلنا»... أطلقوا رصاصة على رأسها، لكن لحسن الحظ أن السفاح لم يصوّب جيداً، أما الفلاح الذي كان يحملها على متن عربته فقد ذبحوه مثل كبش. إذن «مثل ما نعيشه هنا». هل تعلم...

تدخل دميتريش قائلاً:

ـ لا، اسمعي. أنت تحدثيننا عن زمن آخر!

استمروا في الحديث وهم يشربون الڤودكا، ويأكلون. وخلف النافذة المشرعة كنا نسمع أصوات فنائنا الهادئة. وكان هواء المساء أزرق وعذباً. وكانوا يتحدثون من دون أن يلاحظوا أني ما عدت أستطيع التنفس مجمداً في كرسي، ولا أفهم معنى حديثهم. في النهاية وبخطوة متربّصة تركت المطبخ. خرجت في تلك الأمسية الخريفية الصافية إلى الشارع أمشي في الثلوج المذابة، وكأني أكثر غرابة من أحد سكان كوكب المرّيخ.

كلا، لم أكن مرعوباً مما حدث في الصحراء. ولما كانت القصة محكية بتلك الطريقة المبتذلة أحسست بأنه ما كان يستطيع أن يتحرر من تلك العصابة بكلمات وحركات عادية. فحدّته ظلت خائرة بفعل الأصابع الكبرى التي أمسكت به مثل خيار مخلل، وبصعود ونزول تفاحة آدم في عنق ضيفنا عندما يعب من الڤودكا، وبصراخ الأطفال السعيد في الفناء. كان أشبه بتلك الذراع البشرية التي رأيتها يوماً في إحدى الطرقات السيارة جوار سيارتين التصقتا ببعضهما. ذراع فصلت وكان أحدهم يلفها بطرف جريدة في انتظار وصول سيارة الإسعاف، وأحرف الطابعة والصور المعلقة على الجسد المدمى جعلتها محايدة...

كلا، ما هيجني فعلاً كان ما هو مستبعد حدوثه في الحياة. فقبل أسبوع علمت غموض بيريا وحريم نسائه المغتصبات، والمقتولات. وفي تلك اللحظة اغتصاب تلك الشابة الفرنسية والتي بدا لي أني لن أستطيع أبداً التعرف على شارلوت من خلالها.

كان ذلك أكثر من طاقة تحملي وقد حدث دفعة واحدة. أذهلني ذلك الشطط. إذ إن الصدفة المجانية كانت حتمية بسخافة شوّشت أفكاري. حدثت نفسي أنه لو تعلق الأمر برواية، وبعد القصة الفظيعة حيث تختطف النساء في قلب موسكو، لترك المجال للقارئ بأن يلتقط أنفاسه خلال صفحات طويلة. ولتمَّ تحضير ظهور بطل ليصرع المعتدي، غير أن الحياة لم تكن لتهتم بانسجام الموضوع. فقد كانت تنثر محتواها من غير تنظيم، وكيفما اتفق. وكانت تفسد بروعتها صفاء تعاطفنا وتجازف بغضبنا العادل. وكانت الحياة في الحقيقة مسودّة لا نهاية لها حيث الأحداث الموضوعة بشكل سيّئ يعتدي

بعضها على بعض، وحيث الشخوص المتعددون يمنع بعضهم بعضاً من الكلام، ومن التألم، ومن أن يُحَبوا أو يُكرهوا بشكل فردي.

تهت بين تينك القصتين المأسويتين، بيريا والنساء الشابات واللواتي تنتهي حياتهن مع آخر حشرجة لذة من قبل مغتصبهن، وشارلوت الشابة المجهولة التي تلقى على الرمال وتُضرب وتُعذّب. شعرت بانعدام إحساس غريب يتملكني. كنت محبطاً. لم ألم إلا نفسي على عدم الاكتراث البليد.

في الليلة نفسها بدت لي كل أفكاري حول انعدام التلاحم المهدئ للحياة خاطئة. ورأيت في حلم وأنا نصف نائم الذراع الملفوفة بجريدة. . . كلا، لقد كانت مرعبة مئة مرة في غلافها المبتذل ذاك! تُجاوز الواقع بأشيائه مستبعدة الحدوث الخيال كثيراً. هززت رأسي كما لأطرد رؤية فقاعات الجريدة الصغيرة الملتصقة بالجسد المدمى. فجأة تألقت أمام ناظري رؤية أخرى. كانت رؤية من دون تشويش، وخالصة، ومنقوشة وفي الهواء الشفافي. كانت لجسد أنثوي خائر القوى ملقى على الرمال. كان الجسد ساكناً على الرغم من انتفاضات الرجال الجامحة أولئك الذين يرتمون عليه بكل وحشية. وصار السقف الذي كنت أركز ناظري عليه أخضر اللون. كان الألم شديداً حد أني شعرت بالحدود الحارقة لقلبي ترتسم في صدري. وكانت الوسادة تحت قفاي صلبة وخشنة تماماً مثل الرمل. . .

باغتتني حركتي. أخذت أصفعني بعنف. كانت ضربات معتدلة ثم أضحت بلارحمة. أحسست في داخلي بالشخص الذي كان، داخل الأعماق المستنقعية لأفكاري، يتأمل هذا الجسد الأنثوي بلذة. . .

ضربتُني حتى تورّم وجهي المبلل بالدموع، مصيبني بالتقزز بواجهته

الدبقة. وبقيت حتى خرس تماماً ذاك الآخر المختبئ داخلي... ثم دنوت من النافذة متعثراً بالوسادة التي أسقطتها بفعل اهتياجي. كان القمر يشكل هلالاً في السماء. وكانت النجوم الهشة الباردة ترنّ مثل تكسر الثلج تحت أقدام مُسَرْنَمٍ تعبر الفناء. ولطّف الهواء البارد وجهي المتورم.

فجأة قلت بصوت شبه مسموع:

ـ أنا روسي.

[٢]

شفيت بفعل ذلك الجسد الشاب وبحساسية كانت ما تزال ساذجة. أجل، ففي ذلك اليوم من شهر نيسان/ أبريل، اعتقدت بأني تحررت أخيراً من أشد فصول الشتاء قسوة في حياتي، من مآسيه، ومن موتاه، ومن ثقل الأسرار التي حملها.

غير أن الأهم هو أن التطعيم الفرنسي بدا أنه انمحى من الوجود تماماً. كنت كما لو أني نجحت في خنق القلب الثاني الذي كان في صدري. وصادف آخر أيام احتضاره فترة بعد ظهر اليوم الثاني من شهر نيسان، والذي وسم بالنسبة لي بداية حياة من دون أوهام. . .

رأيتها من الخلف واقفة أمام مائدة بألواح كبيرة للعبة البينغ بونغ مصقولة كانت تحت الأشجار. وكان أحد المدرّبين يتتبع حركاتها وبين الفينة والأخرى يلقي نظرة على آلة قياس الوقت التي يضغط عليها في راحة يده.

كانت بمثل عمري، أي في الخامسة عشرة من العمر. فتنتني تلك الفتاة ذات الجسد المشبع بالشمس. كانت تفكك بندقية رشاشة قبل أن تعاود تركيبها في أسرع وقت ممكن. كانت تلك من المنافسات العسكرية الموازية يشارك فيها العديد من المدارس المدنية. كنا نقف أمام الطاولة بالدور منتظرين إشارة المدرّب قبل أن نرتمي على

الكلاشنيكوف ونفككها إلى أجزاء كثيرة. وكانت القطع المنزوعة تلقى على الألواح. وبعد لحظة، تعود إلى مكانها بحركات خلفية. كان البعض منا يسقط النابض الأسود، في حين كان البعض الآخر يخلط في ترتيب الجمع... أما هي فقد اعتقدت بدءاً أنها ترقص أمام الطاولة. كانت ترتدي سترة وتنورة كاكية اللون وقبعة وضعت على شعر رأسها الأصب. وكان جسدها يتماوج على نسق تمرينها. ولا شك في أنها تمرنت طويلاً لتستخدم كتلة السلاح اللزجة بمثل تلك المهارة.

كنت أتأملها مشدوهاً. فكل شيء فيها كان بسيطاً جداً وحياً جداً! وكان وركاها يتموجان قليلاً مستجيبين لحركات ذراعيها. وكانت ساقاها الممتلئتان والذهبيتان ترتعشان. كانت مستمتعة برشاقتها التي تسمح لها بحركات غير ذات جدوى مثل تقوّسها المنغم بوركها الجميل ذي العضلات. أجل، كانت ترقص. وحتى من دون رؤية وجهها كنت أخمن أنها تبتسم.

وقعت في حب تلك الفتاة الصهباء المجهولة. بطبيعة الحال كانت رغبة جسدية جداً قبل كل شيء، وانبهاراً شهوانياً أمام قامتها التي كانت ما تزال طفولية وهشة وتناقض جذلها الأنثوي... قمت بعملية التفكيك والجمع وقد أصاب الخدر كل أطرافي، وأمضيت فيها أزيد من ثلاث دقائق ملفياً نفسي بالتالي مع أولئك الأقل موهبة... ولكن لما استحوذتني الرغبة في معانقة ذلك الجسد، وأحسست تحت أصابعي الاسمرار البراق، شعرت بسعادة جديدة لم أفلح في إيجاد اسم لها.

كانت هناك تلك الطاولة ذات الألواح الكبيرة الموضوعة على طرف

غابة، حيث كانت الشمس ورائحة الثلوج الأخيرة التي لاذت بالظلمة الكثيفة. كان كل شيء بسيطاً بالتخمين، ومشعاً مثل ذلك الجسد، بأنثويته التي كانت ما تزال مستترة، تماماً مثل رغبتي، وتماماً مثل طلبات المدرّب. ولم يكن هناك أي طيف من الماضي ليعكر صفو تلك اللحظة. كنت أتنفس، وأرغب، وأمتثل للأوامر بطريقة آلية. أحسست بسعادة لا أستطيع وصفها بأن خثارة أفكاري لفصل الشتاء القاسية والمعقدة تتلاشى في رأسي... تخلعت الفتاة الصهباء قليلاً أمام الرشاش. وجعلت الشمس حدود جسدها تتألق عبر سترتها الرقيقة، وانتصب شعر رأسها تحت قبعتها، وتردد صدى أخرس محزن كما لو في قعر بئر لهذه الأسماء المتنافرة: مارغريت ستاينهيل، إيزابو دو بافيير... لم أستطع الاعتقاد بأن حياتي كانت في الماضي مشكلة من تلك الذخائر المغَبّرة. كنت قد عشت من دون شمس، ومن دون رغبة وسط الكتب، في البحث عن بلد شبح، وعن سراب لفرنسا القديمة تلك المأهولة بالعائدين من الموت...

أطلق المدرّب صرخة فرح، وهو يري الجميع آلة حساب الوقت «دقيقة وخمس عشرة ثانية!» وكان أفضل زمن. استدارت ذات الشعر الأصهب متألقة. هزت رأسها بعد أن نزعت القبعة، والتهب شعرها بفعل الشمس، وأخذت تنط بُقع الشقرة مثل شرارات. فأغمضت عيني.

في اليوم الموالي، ولأول مرة في حياتي، اكتشفت تلك الفرادة المتمثلة في الإمساك بسلاح ناري. كان بندقية الكلاشنيكوف. واكتشفت الإحساس باختلاجها العصبي على كتفي، والنظر إلى البعيد، حيث جسد من اللوح الرقيق وقد غمرته الثقوب. أجل،

كانت اهتزازاتها التي لا يمكن التحكم بها وقوتها الذكورية بالنسبة لي بطبيعة حساسة جداً.

زد على أن رأسي أفعمت بصمت مدو منذ الطلقات الرشاشة الأولى، إذ كان من يقف إلى يساري قد أطلق أولاً فأصابني بالصمم. وجعلني صوت الصلصلة الدائمة، في أذني، وتركز الشمس القزحية في هدبي، والرائحة البرية للأرض تحت جسدي، في قمة السعادة.

ذلك أني عدت أخيراً إلى الحياة، وألفيت لها معنى. أن أعيش في بساطة حركاتها المنظمة السعيدة، حيث إطلاق النار، والمشي داخل الصف، وأكل حساء الذرة (الكاشا) في صحن من الألمنيوم، والانخراط في حركات جماعية يقودها الآخرون، أولئك الذين يعرفون الهدف الأسمى. أولئك الذين يحملون عنا بصفة عامة، كل أحمال مسؤولياتنا، لنبقى خفافاً، وشفافين وأصفياء. و كان الهدف بسيطاً أيضاً وبمعنى وحيد هو الدفاع عن الوطن. كنت مستعجلاً لأنصهر في ذلك الهدف العظيم وأنا أذوب في الكتلة غير المسؤولة من رفاقي بشكل مدهش. ألقيت قنابل التمرين، وأطلقت النار، ونصبت خيمة. كنت سعيداً ومغتبطاً وسليماً. وكنت أعود لأتذكر مشدوهاً في بعض الأحيان ذاك المراهق الذي كان يمضي أياماً بأكملها في بيت عتيق في طرف السهب، يفكر في حياة وموت ثلاث نساء ظهرن في كومة جرائد قديمة، ولو قدمه لي شخص ما ما كنت لأتعرف عليه بلا شك، وما كنت لأعرفني...

في اليوم الموالي أخذنا المدرب لحضور وصول رتل دبابات. ميّزنا في البداية غيمة رمادية كانت تتجه نحو الأفق. ثم انتشر اهتزاز قوي أسفل أحذيتنا. وأخذت الأرض تهتز. ثم صارت السحابة صفراء،

وصعدت حتى الشمس قبل أن تختفي. اختفت كل الأصوات وقد غطى عليها ضجيج المجنزرات المعدني. اخترق المدفع الأول جدار الغبار، وظهرت دبابة القائد، ثم الثالثة فالرابعة... وقبل أن تتوقف رسمت الدبابات منعرجاً ضيقاً من أجل تشكيل صف جوار الصف السابق. وأخذت المجنزرات تصدر أصواتاً أكثر عصبية مزيلة العشب بصفائح طويلة.

تخيلت فجأة، مخدراً بقوة الإمبراطورية تلك، كل الآفاق التي يمكن لتلك الدبابات، دباباتنا أن تكشطها جميعاً. كان يكفي لذلك صدور أمر مُقتضب، وأحسست بزهو لم أشعر به من قبل...

سحرني الجنود الذين خرجوا من مخابئهم المصفحة بقوتهم الصافية. كانوا متشابهين جميعاً، وقد قُدّوا من المادة الحازمة والسليمة نفسها. خمّنت أنهم عصيّون على تلك الأفكار الكهفية التي عذبتني خلال فصل الشتاء. كلا، ما كان لكل تلك الرواسب العقلية لتبقى ثانية واحدة في المجرى الصافي لمنطقهم البسيط والمباشر تماماً مثل الأوامر التي ينفذونها. كانوا يعرضون هناك تحت شمس من دون أثر ظل قوتهم، والرائحة الرجولية لأجسادهم، وستراتهم المغطاة بالغبار، وحضور الصهباء في مكان ما، تلك المراهقة، المرأة لوعد الحب ذلك. ولم يعد لي إلا رغبة واحدة، أن أتمكن من المخبأ الصيفي الضيق لدبابة، وأن أقفز على مجنزراتها ومنها على الأرض الرخوة، وأن أقصد بتعب مدهش المرأة الوعد.

فتنتني تلك الحياة. كانت في الواقع حياة سوفياتية جداً، حيث عشت دوماً على الهامش. وبدا لي أن أذوب في رتابتها المبتهجة ذوباناً مضيئاً. وأن أعيش حياة الجميع! أن أقود دبابة، ثم أسرّح من

الجندية، وأجعل الصلب يتدفق وسط آلات مصنع كبير على ضفة الفولكا، وأن أقصد كل سبت الملعب لرؤية مباراة في كرة القدم. ولكن أن أعلم على وجه الخصوص بأن هناك تتمة لتلك الأيام الهادئة والمتوقعة توجت بمشروع كبير، ولتلك الشيوعية التي ستجعلنا في يوم من الأيام سعداء كلنا دوماً، وشفافين في أفكارنا ومتساوين بصرامة...

وفي تلك اللحظة بالذات ظهرت فوق رؤوسنا الطائرات الحربية التي كادت تلامس قمم الغابة. كانت تحلق في مجموعات من ثلاث طائرات، وجعلت السماء تهوي فوق رؤوسنا مفجرة. وموجة في أثر موجة كانت الأجواء تتملك عقلي بطاقتها.

وفيما بعد، خلال صمت المساء، رحت أرقب طويلاً السهب الخالي ذا الأخاديد المظلمة للعشب المنزوع من أماكن متفرقة. حدثت نفسي بأنه في يوم من الأيام تخيل طفل مدينة غريبة ستقوم فوق ذلك الأفق الضبابي... لم يعد ذلك الطفل موجوداً. وكنت قد شفيت.

ومنذ ذلك اليوم المشهود من شهر نيسان/ أبريل، قبلني المجتمع المدرسي المصغر. احتضنني بكرم متنازل، يحظى به عضو جديد أو لمغيّري دينهم المتحمسين أو للنادمين المتعصبين. وكنت كذلك. حرصت أن أريهم في كل لحظة أن غرابتي كانت أمراً متجاوزاً بصفة نهائية وأني كنت مثلهم. إضافة إلى ذلك كنت مستعداً للقيام بأي شيء لأنهي تهميشي.

ثم إن المجتمع المصغر نفسه كان قد تغير في ذلك الوقت. فقد قسم إلى بضع جماعات مقلدة أكثر فأكثر عالم الراشدين. أجل، كان

أشبه بطبقات اجتماعية! ميّزتُ ثلاثاً منها. وكانت تجسّد قبل الأوان مستقبل أولئك المراهقين، الذين كانوا بالأمس فقط موحدين في رَهْطٍ صغير ومتجانس. أما في تلك الفترة فقد صارت هناك مجموعة من «البروليتاريين» أكثرهم عدداً كانوا يتحدرون في أغلبهم من عائلات عمالية المرفأ النهري الكبير بالأيدي العاملة. إضافة إلى ذلك كانت هناك نواة لمتفوقين في الرياضيات *«تخنار»* مستقبلين كانوا من قبل مختلطين بالبروليتاريين، خاضعين لسيطرتهم، وأخذوا يتميزون عنهم يوماً بعد يوم، محتلين واجهة الأحداث في المدرسة. وأخيراً، كانت الجماعة الأكثر تصلباً، والأكثر نخبوية والأقل عدداً أيضاً، هي العصبة التي تعرف بالأنتلجنسيا الطموحة.

صرت واحداً من كل تلك الجماعات. كان حضوري المعتدل مصدر تقدير من قبل الجميع، حتى أني اعتقدت للحظة من اللحظات أن حضوري لا يمكن تعويضه، وذلك بفضل... فرنسا!

ذلك أني كنت أقصّها لما شفيت منها. فقد كنت سعيداً أن أُسرّ لكل أولئك الذين قبلوا بي بينهم كل ذلك المخزون من الحكايات المجموعة منذ سنوات. وكانت قصصي تمتعهم، حيث القتال في السراديب، وأفخاذ الضفادع التي يدفع فيها ثمن باهظ، وشوارع بأكملها في باريس خُصّصت لحب يباع ويشترى. كل تلك المواضيع جعلتني أكسب سمعة الراوي المجاز.

كنت أتحدث وأشعر بأن شفائي كان تاماً. أما نوبات ذلك الجموح الذي كان يجعلني أغوص من قبل في الإحساس المدوّخ للماضي فلم يتكرر أبداً. ولم تعد فرنسا إلا مادة حكي عادية، ممتعة وغريبة في عيون زملائي، ومثيرة عند وصفي لـ «الحب على الطريقة الفرنسية».

لكنها إجمالاً كانت مختلفة قليلاً عن القصص الغريبة والماجنة التي كنا نحكيها خلال فترة الاستراحة، ونحن نسحب بعجل أنفاساً من سجائرنا.

لاحظت سريعاً أنه يتعيّن عليّ تتبيل قصصي الفرنسية بحسب ذوق من يسمعني. فكانت القصة نفسها تغير من أسلوبها إذا قصصتها على «البروليتاريين» أو *«تخنار»* أو «المثقفين». ولما كنت فخوراً بموهبتي كخطيب فقد كنت أنوع الأجناس، وأكيّف مستويات الأسلوب، وأنتقي الكلمات. ولأحوز إعجاب الجماعة الأولى كنت أقف طويلاً على الشبق الغريب للرئيس ولمارغريت. أجل، كان رجلاً، وفضلاً عن ذلك، رئيس الجمهورية الذي يموت لإفراطه في ممارسة الجنس. هذه اللوحة وحدها كانت كفيلة بأن تحملهم إلى قمم الانتشاء. أما الـ *«تخنار»* فقد كانوا أكثر حساسية للانقلابات النفسية في الحبكة. وقد كانوا يريدون معرفة ماذا حدث لمارغريت بعد فضيحة الجنس تلك. وهكذا رحت أتحدث عن الموت المزدوج الغامض في ممر رونسان، وعن صبيحة شهر أيار/ مايو المروّعة تلك حيث وُجد زوج مارغريت مخنوقاً بحبل السحب، ووالدة زوجته المخنوقة أيضاً لكن بطقم أسنانها... كل ذلك من دون أن أنسى التوضيح بأن الزوج كان رساماً انهار تحت وطأة الطلبات الرسمية، بينما لم تتخل زوجته أبداً عن صداقاتها رفيعة المستوى، وبحسب إحدى الروايات، فإن الزوج هو الذي فاجأ زوجته في أحضان أحد خلفاء المرحوم فليكس فور، والواضح أنه كان وزيراً...

أما «المثقفون» فقد بدا أن الموضوع لم يؤثر فيهم حتى أن بعضهم كانوا يعمدون، لإبداء عدم اهتمامهم إلى التثاؤب بين الفينة

والأخرى. وقد كانوا يتحولون إلى ذلك البرود المصطنع فقط لإيجاد عذر للعب على الكلمات. فاسم «فور» صار سريعاً ضحية لتورية فـ«إعطاء فور» تعني بالروسية «إعطاء لكمات لمنافسه». وانطلقت الضحكات المتخمة بعلمهم. أطلق أحدهم، ودوماً بالضحكة القصيرة ذاتها غير المبالية «أيُّ فورود!» يشير ضمناً إلى خط دفاع كرة القدم. تحدث أحدهم وقد أبرز وجه من يملك روحاً عادية قائلاً: عن *«فور توتشكا»*، وتعني فرجة النافذة... أدركت أن اللغة المستعملة من قبل تلك العصبة قليلة العدد تتكون حصرياً تقريباً من تلك الكلمات المحرّفة والألغاز الرمزية والجمل المتكلفة، وهي صيغ معروفة فقط من قبل أعضائها. أدركت بمزيج من الإعجاب والجزع بأن لغتهم لم تكن بحاجة إلى العالم الذي يحيط بنا، وإلى تلك الشمس وتلك الريح! وسريعاً رحت أقلد سهولة أولئك المتلاعبين بالكلمات...

كان الشخص الوحيد الذي لم يعجبه تغيّري هو باشكا. ذلك الكسول الذي كنت أشاركه في الماضي رحلات الصيد. كان يدنو من مجموعتنا بين الفينة والأخرى، وينصت إلينا، وعندما كنت أشرع في قص حكاياتي الفرنسية كان يركز ناظريه عليّ بارتياب.

في أحد الأيام كان التجمع حولي أكثر من المعتاد. وكانت قصتي تعجبهم بنوعع خاص. وكنت أتحدث (ملخصاً رواية سبيفالسكي ذاك المسكين، المتهم بكل التهم المميتة، والذي قتل في باريس)، عن عشيقين قضيا ليلة طويلة في قطار شبه فارغ، فارين عبر أمبراطورية القياصرة المحتضرة. وفي الغد، افترقا إلى الأبد...

وكان مستمعيّ تلك المرة ينتمون إلى الطبقات الثلاث، حيث أبناء البروليتاريين ومهندسو المستقبل والأنتلجنسيا. وذكرت العناق المحموم

داخل مقطورة مظلمة، في ذلك القطار الذي يمر عبر القرى الميتة والجسور المحروقة. كانوا ينصتون لي بشغف. ومن المؤكد أنه كان من اليسير عليهم تخيل زوج العاشقين ذاك في قطار على رئيس الجمهورية مع عشيقته في قصر... ولكي أرضي هواة اللعب على الكلمات أشرت إلى توقف القطار في مدينة من مدن الإقليم حيث أخفض البطل زجاج النافذة وسأل القلة القليلة من الناس الذين كانوا يحاذون خط السكة الحديد عن اسم المكان. غير أن أحداً لم يستطع أن يرشده. كانت مدينة من غير اسم! مدينة يسكنها الغرباء. تنفست مجموعة من مدعي الفن برضى. أما أنا فقد عدت بمهارة وسرعة إلى الأحداث في العربة متابعاً الحديث عن الحب المشرد لراكبيّ الغريبين... وفي تلك اللحظة رأيت عبر رؤوس الحشد رأس باشكا بشعره الأشعث. أنصت لبضع دقائق ثم دمدم بجهوريته الخشنة مغطياً على صوتي بسهولة:

ـ هكذا. هل أنت سعيد هكذا؟ كل هؤلاء الملاعين لا يطلبون إلا هذا. حتى أنهم يبتلعون بقذارة أكاذيبك؟

ولم يكن أحد ليدخل مع باشكا في مواجهة ثنائية، غير أن للحشد شجاعته الخاصة به. فقد ردت عليه غمغمات مغتاظة، وحتى أهدئ النفوس قلت محدداً بنبرة استرضائية:

ـ كلا، هذه ليست أكاذيب يا باشكا! إنها رواية سيرة ذاتية. فهذا الرجل هرب من روسيا فعلاً بعد الثورة رفقة عشيقته، ثم اغتيل في باريس...

ـ ولمَ لا تحكي لهم إذن ما حدث في الحرب؟ هه؟

بقيت مبهوتاً. تذكرت أنه سبق لي أن قصصت تلك الحكاية على صديقي الكسول. ففي الصباح ألفى العاشقان نفسيهما على ضفاف البحر

الأسود في مقهى غارق تحت الثلوج. كانا يشربان شاياً ساخناً أمام نافذة كساها المُلاّح. . . بعد سنوات طويلة من ذلك التقيا في باريس، وأسرّا لبعضهما بأن تلك الساعات الصباحية القليلة كانت أغلى من كل الحب العظيم الذي عاشاه خلال حياتيهما. أجل، ذاك الصباح الرمادي والكامد، والنداءات المخنوقة للصفارات الضبابية، وحضورهما المتواطئ وسط عاصفة التاريخ القاتلة. . .

كان باشكا إذن يتحدث عن مقهى المحطة ذاك. . . أنقذني الجرس من الحرج. داس مستمعيّ على سجائرهم وولجوا القاعة. أما أنا فقد وقفت ذاهلاً، وحدثت نفسي قائلاً إن أياً من أساليبي، سواء ما استعملته منها عند حديثي إلى البروليتاريين أو الخاص *بالتيخنار* أو حتى الألاعيب الفعلية المفضلة لدى «المثقفينّ»، لا، إن أياً من تلك الأساليب لا يستطيع إعادة السحر الغامض لتلك الصبيحة الثلجية على ضفة هاوية الأزمنة، بضوئها وبصمتها، و. . . إضافة إلى ذلك، لن يهتم أحد من زملائي بتلك اللحظة! فقد كانت بسيطة جداً من دون إغراءات جنسية، ومن دون حبكة ومن دون لعب على الكلمات.

عند عودتي من المدرسة تذكرت أني خلال سردي لقصة الرئيس العاشق على زملائي لم أذكر أبداً تلك اللحظة، حيث المسرنم الأخرس قرب النافذة السوداء في الأليزيه. كان وحيداً في مواجهة ليل الخريف. وفي مكان ما، في ذلك العالم المظلم والممطر، كانت امرأة ذات وجه أخفاه حجاب قد تلألأت في الضباب. لكن من كان لينصت لي لو أني قررت الحديث عن ذاك الحجاب المبلل في ليلة خريفية؟

حاول باشكا مرتين أو ثلاثاً، ودوماً برعونة، انتشالي من محيطي

الجديد. دعاني يوماً إلى الذهاب للصيد في الڤولكا، فرفضت أمام الجميع، بمسحة ازدراء غامضة. وعلى الرغم من قوته فقد بقي لثوان أمام مجموعتنا، وحيداً، ومتردداً، وهشاً بشكل غريب... أمسكني مرة أخرى في طريق عودته، وطلب مني أن أحضر له كتاب سبيڤالسكي. وعدته بذلك، وفي الغد ما عدت أذكر الأمر...

كنت مستغرقاً جداً بلذة جماعية جديدة: جبل الفرح.

هكذا كنا نادي في مدينتنا المرقص الكبير المكشوف، الواقع على قمة تلة مشارفة للڤولكا. كنا لا نكاد نعرف كيف نرقص، غير أن تحريك أردافنا الإيقاعي لم يكن إلا لغاية واحدة، وهي أن نمسك بين ذراعينا جسداً أنثوياً، أن نلمسه، وأن نطوّعه حتى لا نخاف من بعد. وفي المساء، في مغامراتنا في الجبل، كان ينعدم وجود الجماعات والعُصب، وكنا جميعاً سواء أمام هشاشة رغبتنا. كان الجنود الشبان الذين يقضون إجازاتهم يشكلون وحدهم مجموعة خاصة بهم. وكنت أراقبهم بغيرة.

في أحد المساءات سمعت أحدهم يناديني. بدا أن الصوت كان آتياً من أوراق الأشجار. رفعت رأسي فرأيت باشكا! كان مربّع المرقص محاطاً بسياج غبشي عال. وكانت تمتد خلف المرقص النباتات البرية. كانت منطقة كثيفة واقعة بين حديقة مهملة والغابة. رأيته على غصن قَيقب كبير، فوق السياج...

كنت قد غادرت المرقص بعد أن صدمت نهدي شريكتي في الرقص في حركة خرقاء... كانت المرة الأولى التي أرقص فيها مع شابة بمثل ذلك النضج. وكانت راحتا يدي الموضوعتان على ظهرها رطبتين. ولما خُدعت ببعض المحسنات الموسيقية غير المتوقعة

للأوركسترا فقد قمت بحركة خاطئة، فإذا بصدري يصطدم بصدرها. كان المفعول أكثر قوة من مفعول شحنة كهربائية! فالمرونة الليّنة لنهد أنثوي أصابتني بالاضطراب. استمررت في الدوس من دون سماع الموسيقى، وعوض الوجه الجميل للراقصة، رأيت شيئاً مضيئاً بيضوي الشكل. عندما توقفت الأوركسترا ابتعدت عني من دون أن تقول كلمة، مغتاظة كما يبدو. عبرت خشبة الرقص منزلقاً بين الأزواج كما لو أني أمشي على الجليد، ثم خرجت.

كنت بحاجة إلى أن أبقى وحيداً، والتقط وأن أعود إلى رشدي، وأن أتنفس. مشيت في الممر الذي يحاذي المرقص. وأخذت الريح القادمة من الفولكا ترطب جبهتي التي كانت كقطعة قُدّت من نار. وفجأة فكرت: «ماذا لو أن شريكتي هي من تعمد الاصطدام بي؟» أجل، لربما أرادتني أن أشعر بمرونة صدرها، ملقية بالتالي دعوة، لم أستطع لسذاجتي وخجلي أن أفك شفرتها؟ لربما أضعت فرصة حياتي؟

وكطفل كسر لتوّه فنجاناً، فيغمض عينيه آملاً أن يعيد السواد الظرفي كل شيء لنظامه الأول، أطبقت جفني حالماً: لمَ لا تستطيع الأوركسترا عزف الأغنية ذاتها، وإيجاد رفيقتي في الرقص لأكرر كل الحركات حتى الضغط المتفق عليه؟ لم أحس أبداً ولن أحس أبداً أيضاً بمثل تلك الشدة، ذلك القرب الحميمي جداً، وفي الوقت نفسه، البعد الشديد الذي لا يعوّض لجسد أنثوي.

في خِضمّ ذلك الهيجان العاطفي سمعت صوت باشكا المختفي وسط الأوراق. رفعت نظري. ابتسم لي وهو نصف ممدد على غصن كبير.

قال وهو يثني ساقيه:

ـ هيا اصعد! سأمنحك مكاناً.

كان باشكا الأرعن وثقيل الدم في المدينة يتغير ما إن يلفي نفسه في الطبيعة. كان على ذلك الغصن يشبه قطاً كبيراً يستريح قبل الصيد الليلي...

كنت لأرفض دعوته لو أني كنت على حال أخرى، غير أن وضعه كان غريباً جداً، وكنت أشعرني متلبساً بارتكابي للجريمة. وكان كما لو أنه التقط أفكاري المحمومة من قمة غصنه! مد لي يده فصعدت جواره. كانت تلك الشجرة أشبه بمركز مراقبة حقيقي.

كان لتموّج مكان الأجساد المتعانقة هيئة مختلفة وهي تُرى من الأعلى. وكان في الوقت نفسه منظراً سخيفاً (حيث كل تلك الكائنات تراوح في مكانها ذاته!) وقليل المنطق. كانت الأجساد تتحرك وتلتحم في المدة التي تستغرقها رقصة قبل أن تفترق، وتبقى ملتصقة ببعضها البعض على امتداد العديد من الأغاني. ومن شجرتنا، ومن خلال نظرة واحدة، كان يمكنني أن أتتبع كل الحركات العاطفية الصغيرة التي تحاك على خشبة الرقص حيث التنافس، والتحدي، والخيانة، والحب من نظرة أولى، والفراق، والاستيضاح، والشجار الذي ما إن يولد حتى تتم السيطرة عليه بسرعة من قبل نظام أمن يقظ. لكن هناك على الأخص الرغبة التي تخترق ستار الموسيقى وطقس الرقص. ووجدت وسط تلك الأمواج البشرية الفتاة التي لمست نهديها. تتبعت للحظة مسارها من شريك رقص لآخر...

أحسست بأن اختصار ذلك الدوران ذكرني بشيء ما. «الحياة!» كذاك اقترح علي فجأة صوت أخرس وكررت شفتاي بصمت:

«الحياة...». نفس اختلاط الأجساد المنسلخة بالرغبة والتي تخفيها تحت ستر ما لا يعد وما لايحصى من مظاهر التصنع. الحياة... «أين أنا الآن من تلك اللحظة؟» كذاك سألت نفسي مخمناً أن الرد على ذلك السؤال سيتيح ولادة حقيقة عجيبة تفسر كل شيء بصفة نهائية.

ترددت صرخات قرب الممر. تعرفت على رفاقي في الفصل أثناء عودتهم إلى المدينة. أمسكت بالغصن مستعداً لأن أقفز فأتاني صوت باشكا مَشوباً بمسحة استسلام ساخط مدوّ مع بعض الثقة:

ـ انتظر سيطفئون كشافات النور الآن. سترى، سوف يظهر العديد من النجوم! وإذا ما صعدنا إلى أعلى سنرى القوس...

لم أكن أنصت. كنت قد قفزت أرضاً. صدمت الأرضُ المجدولة بالعديد من البذور الكبيرة بعنف باطن قدميّ. عدوت لألحق بزملائي الذين كانوا يبتعدون مومئين. وكانت تحدوني رغبة في أن أتحدث إليهم بأسرع وقت ممكن عن شريكتي في الرقص ذات الصدر الجميل، وأن أنصت لملاحظاتهم، وأن أصم أذني بالكلمات. كنت مستعجلاً العودة إلى الحياة. وبفرح غير ملائم، حرفت بسخرية السؤال الغريب الذي تشكل في رأسي قبل لحظة من ذلك: «أين أنا؟ أين كنت؟ لكني كنت على غصن جوار ذاك الغبي باشكا، جوار الحياة الحقيقة!»

وبصدفة غريبة (كنت أعلم بأن الواقع مشكل من أشياء غير متوقعة ومكررة يطاردها كتاب الروايات كأخطاء خطيرة). التقينا مجدداً في اليوم الموالي، وبالضيق الذي يشعر به رفيقان، تبادلا مساءً أسراراً خطيرة وعظيمة وعاطفية، وتناجيا حد ذلك العمق الحميمي جداً لروحيهما، والتقيا صباحاً في الصفاء المعتاد والشكاك.

تسكعت حول المرقص الذي كان ما يزال مقفلاً. فقد كانت الساعة تقارب السادسة مساءً. وأردت أن أكون أول شريك لراقصة الأمس مهما كلفني ذلك من ثمن. أملت متطيراً أن يعود الزمن إلى الوراء وأن أتمكن من إعادة إلصاق إنائي المحطم.

وظهر باشكا من علّيق الحديقة. رآني فتردد للحظة، ثم أتى ليحييني. كان يحمل عُدّة الصيّاد الخاصة به، ويضع تحت ذراعه رغيف خبز أسود كبير جعل يقتطع منه قطعاً ويأكلها ماضغاً بشهية. أحسستني مرة أخرى متلبساً بالجرم. تأمل وجهي متفحصاً قميصي ذي اللون الفاتح بطوقه المفتوح جداً وسروالي الذي كان على الموضة والواسع جداً من الأسفل، ثم رفع رأسه مودعاً وغادر. تنفست بارتياح غير أن باشكا استدار فجأة وتوجه إليّ بصوت خشن بعض الشيء قائلاً:

ـ تعال، سأريك شيئاً! تعال. لن تندم...

ولو أنه توقف لانتظار ردي لكنت رفضت متلعثماً، غير أنه واصل سيره من دون أن ينظر ناحيتي، فتبعته بخطوات مترددة.

انحدرنا باتجاه الڤولكا محاذيين المرفأ بمرافعه الضخمة ومعامله ومخازنه ذات الصفائح المعدنية المتموجة. قصدنا أسفل النهر سالكين أرضاً واسعة ازدحمت فيها طوفيات عتيقة بنيت بالمعدن الصدئ، وأهرام طويلة من الحطب العفِن. أخفى باشكا خيوطه وشباكه خلف أحد الجذوع المنخورة، ثم أخذ يقفز من قارب إلى آخر. كان هناك رصيف ميناء مهجور، وبعض العبّارات بزوارق التجسير التي أخذت تتوارى برشاقة على وقع خطواتنا. إضافة إلى ذلك، ومن خلال تتبعي لباشكا، لم أدرك في أية لحظة تركنا اليابسة لنلفي نفسينا فوق تلك

الجزيرة العائمة من القوارب الواهنة. أمسكت درابزين الدرج وقفزت فيما يشبه سفينة شراعية، وتجاوزت طرفها لأنزلق على العشب المبلل لطوف...

في النهاية ألفينا نفسينا في قناة ذات جُرفين وعرين غطيا ببيلسان مزهر. وكان سطحها مغطى من ضفة إلى أخرى بهياكل سفن عتيقة متزاحمة. كانت حافة تواجه حافة في فوضى غريبة.

جلسنا على مقعد قارب صغير. كانت تقوم فوقه خاصرة قارب يحمل آثار حريق. مددت عنقي لألحظ في الأعلى، على جسر القارب، حبلاً ممدوداً قرب الحُجَيْرة، حيث تتموج بلطف بعض قطع القماش الباهتة. كان ذلك الغسيل الذي يجف منذ سنوات...

كانت الأمسية حارة وضبابية، وامتزجت رائحة الماء بفوحان عديم الطعم للبيلسان. وبين الفينة والأخرى كنا نرى مرور إحدى السفن في البعيد وسط الفولكا، لترسل في قناتنا سلسلة من الأمواج المتقاعسة. أخذ قاربنا يتموج محتكاً بحافة الزورق السوداء. شرعت تلك المقبرة نصف الغارقة تهتز، وبدأ يُسمع صرير الحبل، وهدير الماء تحت إحدى العبارات، وأزيز القصب.

ـ عظيم كل هذا السياج...

قلت متعجباً مستعملاً هذه الكلمة التي لم أكد أعرف انتماءها البحري إلا بشكل مشوّش.

رماني باشكا بنظرة غريبة بعض الشيء، وأراد أن يقول شيئاً غير أنه عدل عن ذلك. وقفت مستعجلاً عودتي إلى جبل السعادة... وفجأة، جرني صديقي بقوة من كم قميصي ليجعلني أجلس جواره، ثم أعلن بهمس عصبيّ:

ـ إنتظر أنهم قادمون!

وهكذا وصلتني أصوات الخطوات. في البداية اصطفاق الكعوب على طين الجُرف المبلل، ثم الطرطقة على خشب إحدى العبارات. وفي النهاية طرْق معدني فوقنا على جسر القارب. . . ومن داخله بدأت تصلنا أصوات مخنوقة.

وقف باشكا بكل قامته، ملتصقاً بحافة العبارة. وهنا فقط رأيت كوّاتها الثلاث. كان زجاجها مكسراً، ومغلقاً من الداخل بقطع من الخشب الرقيق التي غطيت بدرزات شغرة دقيقة. ومن دون أن يفارق كوّته، هز صديقي يده في دعوة منه لي أن أفعل مثل فعله. فتمسكت بجزء بارز من الفولاذ يمتد على طول الحافة، والتصقت بالكوة اليسرى، وظلت تلك التي في الوسط من دون أن يشغلها أحد.

ما رأيته عبر الكوّة كان مبتذلاً وعجيباً في الآن عينه. فقد كانت هناك امرأة، لم أرَ إلا رأسها من الجانب ونصف جسدها العلوي. بدا أنه تتكئ على طاولة بذراعين متوازيتين ويدين ثابتتين. وكان يبدو وجهها هادئاً بل ناعساً أيضاً. وكان وجودها داخل تلك العبارة وحده كافياً لإثارة الاستغراب. أضف أنها بعد كل ذلك. . . أخذت تهز رأسها قليلاً بشعرها المجعد المضيء، كما لو أنها كانت توافق من دون توقف محاوراً غير مرئي.

ابتعدت عن الكوة وألقيت نظرة على باشكا. كنت حائراً: «في النهاية، ماذا هناك مما يستحق النظر؟» غير أنه كان يضع جبهته مشدودة إلى الألواح الخشبية الرقيقة، وراحتي يديه ملصقتين إلى سطح العبّارة المقشر.

قصدتُ الكوّة المجاورة ملتصقاً بإحدى التصدّعات التي أحدثت ثقباً في الخشب الذي كان يغلقه...

خلت أن مركبنا يغرق ويغوص إلى عمق ذلك الجرف المزدحم، وأن سطح العبارة على العكس من ذلك ينطلق إلى السماء. تركت نفسي بتهيّج أنجذب إلى معدنه الخشن، محاولاً أن أحفظ في نظري الرؤية التي أخذت تصيبني بالعمى.

كان ثمة رِدْف أنثوي بعري أبيض وكثيف. أجل، ردف امرأة جاثية، برؤية جانبية دوماً، من حيث أرغمني عرض ساقيها وفخذيها وبداية ظهرها الذي يحده حقل الرؤية الخاص بالكوة. وكان يوجد جندي خلف ذلك الردف الضخم. وكان أيضاً على ركبتيه، وقد فُكت أزرار سرواله وسترته غير المرتبة. كان يحكم قبضتيه على ردف المرأة، ويسحبها نحوه كما لو أنه يود أن يغوص في تلك الكتلة من اللحم التي يدفعها في الوقت نفسه باهتزازات عنيفة بكل جسده.

أخذ مركبنا يفر من تحت قدمينا. وأخذت سفينة تصعد الڤولكا ترسل موجاتها تحت جسرنا العائم.

ونجحت إحدى تلك الموجات في جعلي أفقد توازني. وفي خضمّ محاولتي عدم السقوط قمت بخطوة إلى اليسار فألفيت نفسي قرب الكوة الأولى. ألصقت جبهتي بإطارها الفولاذي. وفي الكوة بدت المرأة ذات الشعر المجعد، بوجهها غير المبالي والناعس. كانت المرأة التي رأيتها من قبل. كانت معتمدة بكوعيها على ما يشبه السماط. وكانت ترتدي قميصاً أبيض اللون، وما تزال توافق بهزات صغيرة من رأسها وتتفحص أصابعها بشرود...

تلك الكوة الأولى. ثم الثانية. تلك المرأة بجفنيها الثقيلين نعاساً

ولباسها وتسريحة شعرها العاديين. ثم الأخرى، حيث الردف العالي المرفوع، وذاك اللحم الأبيض الذي يغوص داخله رجل يبدو نحيفاً مقارنة بها، وحيث الردف البدين، وتلك الحركة الواطئة. وفي رأسي الصغير الممسوس، لم يكن هناك من رابط يجمع بين تينك الصوريتين. مستحيل أن تجمع بين الجزء العلوي لذلك الجسد الأنثوي ذلك الجزء السفلي!

كان هيجاني شديداً حد أن سطح العبارة بدا لي فجأة قد امتد إلى الأفق. تحركت منبطحاً على السطح إلى كوة المرأة العارية مثل عظاءة. كانت دوماً هناك، غير أن جزأها المكور القوي بقي ثابتاً. وأخذ الجندي الذي يُرى مباشرة يزرر أزراره بحركات مخنثة ورعناء. بينما جثا آخر، أصغر سناً من الأول على ركبتيه، خلف الردف الأبيض وكانت حركاته متسرّعة وعصبية بفزع. وما إن شرع يتخبط مطلقاً من بطنه أنصاف كريات بيضاء، حتى شابه الأول حد الخلط بينهما. لم يكن ثمة اختلاف في طريقة فعليهما.

مُلئت عيناي بإبر سوداء. والتوت ساقاي. وجعل قلبي الملتصق بالمعدن الصدئ كل المركب يرتعش بفعل أصدائه العميقة اللاهثة. وهزت سلسلة جديدة من الأمواج الصغيرة المركب. وصار سطح العبارة عمودياً، فانزلقت إلى الكوة الأولى محروماً من رشاقة العظاءة التي كنت أتمتع بها من قبل. كانت المرأة ذات القميص الأبيض الطويل تهز رأسها بطريقة آلية، وهي تتفحص يديها. رأيتها تحك أصبعاً بآخر من أجل تقشير طبقة طلاء الأظافر...

كانت خطواتهم تتردد في نظام معكوس، فتلك المرة كان طرق الكعوب على الجسر ثم التطبيل على ألواح الجسر الضيق والطقطقة

على الوحل الرخو. ومن دون أن ينظر صوبي تجاوز باشكا سطح عبارتنا وقفز على جسر عائم نصف مغمور، ثم إلى أحد الأرصفة. تبعته منفذاً القفزات اللّينة لدُمية من الخِرق.

عند وصوله إلى الضفة جلس ونزع حذاءيه وثنى سرواله حتى فخذيه، ثم دخل إلى الماء مبعداً سيقان سيقان، وأزاح طُحلب الماء وأخذ يغسل وجهه ببطء مصدراً نخير لذة يمكن أن يُسمع من بعيد كأنه نداءات استغاثة.

كان يوماً عظيماً في حياتها، ففي ذلك المساء من شهر حزيران/ يونيو، كانت، لأول مرة في حياتها، ستمنح نفسها لأحد أصدقائها الشبان، لأحد أولئك الراقصين الذين تتحرك خطواتهم على خشبة مرقص جبل السعادة.

ومع ذلك فقد كانت هزيلة، ووجهها بملامح محايدة، وتمر من دون أن تثير ملاحظة أحد عند الاستعراض البشري. وكان شعر رأسها الأصهب الكامد لايسمح بظهور لونه إلا في ضوء النهار. أما تحت الأضواء الكاشفة للجبل أو في الهالة الزرقاء للمصابيح فقد كانت تبدو صهباء بكل بساطة.

كنت قد اكتشفت قبل أيام فقط ممارسة الحب تلك. وفي التجمهر البشري في المرقص، رأيت مجوعات تتشكل. وولِد إعصار من المراهقين المهتزين. تفرقوامهتاجين راحلين ليتعلموا ما اعتبرته تارة بسيطاً بغباء، وتارة أخرى غامضاً بشكل مدهش وعميق: الحب.

ألفت نفسها من دون شك زائدة في إحدى تلك التجمعات. كانت قد شربت مثل الآخرين خفية وسط الجنبات التي تغطي منحدرات الجبل. عندما تشتت مجموعتهم الصغيرة إلى أزواج بقيت وحيدة.

ولم تمنحها المصادفة الحسابية شريكاً. ثم اختفى الأزاوج. وكانت ثملة. ولم تكن متعودة على الكحول الذي شربت منه شيئاً كثيراً بحماس وخشية ألا تكون بمستوى الآخرين، محاولة التحكم في فزع ذلك اليوم الكبير... عادت إلى خشبة المرقص دون أن تدري ما تصنع بجسدها الذي أُشبع كل جزء منه بهيجان متلهف، غير أنه كان قد شُرع في إطفاء الأضواء الكاشفة.

خمّنت كل ذلك فيما بعد... في تلك الليلة، رأيت فقط مراهقة تقوم بالتسكع في ركن من الحديقة المظلمة، وهي تحوم حول شعاع المصباح الباهت. كانت مثل فراشة ليل خطفها شعاع الضوء. وكانت مشيتها تصيبني بالبغتة تتحرك كما لو أنها فوق حبل، بخطواتها الهوائية والممدودة في الآن نفسه. فهمت أنها من خلال كل حركة من حركاتها كانت تصارع سكرها. وكان تعبير وجهها جامداً. فقد وجهت كل عنايتها إلى ذلك الجهد الوحيد، ـ ألا تسقط، وألا تترك شيئاً يكون مدعاة للارتياب في أمرها، وأن تستمر في الدوران حول تلك الدائرة المضيئة حتى تتوقف الأشجار السوداء عن الترنح، والقفز عند اقترابها رافعة أغصانها الرنانة.

توجهت نحوها. دخلت في دائرة المصباح الزرقاء. ركّز جسدها (تنورتها السوداء، وجيدها المنحسر) فجأة كل رغبتي. أجل، صارت لتوّها المرأة التي اشتهيتها دوماً. على الرغم من ضعفها الخافت، ومن ملامحها التي تلاشت بفعل السكر، من كل ما يمكن أن ينفر في جسدها أو وجهها الذي ألفيته في تلك اللحظة جميلاً جداً.

اصطدمت بي في دورانها. رفعت عينيها، فرأيت عدة أقنعة ترسم بالتوالي على وجهها حيث الخوف والغضب والابتسام. وانتصر

الابتسام، ذلك أن ابتسامة مشوشة بدت موجهة إلى شخص آخر غيري. أمسكت ذراعي، ثم نزلنا الجبل.

تحدثت في البداية من دون توقف. ولم يستطع صوتها اليافع السكران أن يظل على مستوى واحد. فقد كانت تهمس تارة ثم تبدو وكأنها تصرخ تارة أخرى. وكانت تترنح بين الفينة والأخرى ممسكة بذراعي لتطلق شتيمة، ثم تضع بسرعة مبتهجة راحة يدها على شفتيها، أو تبتعد عني فجأة وكأنها جُرحت قبل أن تعود لتلتصق بكتفي بعد لحظة. خمنت أن رفيقتي كانت تلعب دوراً في مسرحية عاطفية حضرتها منذ زمن بعيد، دوراً تريد أن تظهر من خلاله لشريكها أنها ليست أياً كان. غير أنها كانت، بسبب سكرها تخلط فواصلها الزمنية الصغيرة. وأنا، كنت أبقى صامتاً كممثل سيّئ، مسحوراً بذلك الحضور الأنثوي المباغت الذي كان في المتناول بكل بساطة، وعلى الخصوص تلك السهولة المذهلة التي سيمنح بها هذا الجسد نفسه لي. اعتقدت دوماً أن ذلك العطاء سيعقب مسيرة عاطفية طويلة، مكوّنة من ألف كلمة وطرق مغازلة مبتكرة. صمتت عندما أحسست أن ذراعي مسّت نهداً أنثوياً صغيراً. أما رفيقتي الليلية فقد كانت ترفض مغمغمة مقدمات شبح، نافخة خديها لبعض الثواني مظهرة أنها مستاءة منه، قبل أن تنظر إلى عشيقها المتخيل بنظرة فاترة، كانت بكل بساطة مخلوطة بالخمر والإثارة.

أخذتها إلى المكان الوحيد الذي يمكن أن يحتضن حبنا، إلى تلك الجزيرة العائمة التي تجسست فيها في بداية فصل الصيف رفقة باشكا على العاهرة والجنود.

لا شك في أني أخطأت الاتجاه في الظلام. وبعد تسكع طويل

وسط المراكب النائمة توقفنا أمام ما يشبه مُعديّة قديمة تغرق مقدمتها ذات الدعامات المكسرة في الماء.

صمتت فجأة. وبدا أن السكر أخذ يزول عنها شيئاً فشيئاً. بقيت جامداً أمام انتظارها المتوتّر في الظلام. لم أعرف ما ينبغي عليّ فعله. جثوت على ركبتي ورحت أتحسس الألواح ملقياً إلى الماء تارة حُزمة حبال مستعملة، وتارة علبة طحلب جاف، وبصدفة لمست ساقها وأنا في ذروة أعمال التنظيف تلك. أصابتها أصابعي التي لامست جسدها بالقشعريرة...

بقيت صامتة حتى النهاية. ذلك أنها أغمضت عينيها وبدت كأنها غائبة، مسلمة لي جسدها المملوء بالاختلاجات الدقيقة... لا شك في أني آلمتها جداً بحركاتي السريعة. فذلك الفعل الذي حلمت به طويلاً تورّط في عدد من الحركات المنحرفة والمقيدة. قيل إن الحب يشبه التنقيب المستعجل والعصبيّ. رفعت الفخذين والكوعين برسوخ تشريحي عجيب.

كانت اللذة مثل شعلة عود ثقاب في الريح الثلجية، ونار لا تملك الوقت إلا لإحراق الأصابع قبل أن تنطفئ تاركة نقطة تعمي الأعين.

حاولت أن أقبّلها (اعتقدت أنه يجب فعل ذلك في تلك اللحظة)، وأحسست بشفتها داخل فمي وقد أصابتها عضة قوية.

وأكثر ما أرعبني أنني بعد لحظة ما عدت محتاجاً إلى شفتيها أو نهديها المنتصبين في قميصها المفتوح أو فخذيها الرقيقين، حيث سحبت تنورتها بحركة سريعة، وأضحى جسدها بالنسبة لي شيئاً لا يثير الاهتمام، وغير ذي جدوى. كنت غارقاً في انشراحي الشهواني. كنت أكفيني. وتساءلت مازحاً: «ماذا بها لتبقى ممدّدة هكذا نصف

عارية؟». أحسست بخشونة الألواح تحت ظهري، وشعرت في راحة يدي بألم بعض الشوكات. وكان للريح الطعم الثقيل للماء الراكد.

لربما كان في هذا الفارق الزمني الليلي نسيان عابر، ونوم خاطف لبضع دقائق. ذلك أني لم أر السفينة تقترب. فتحنا أعيننا عندما تجاوزتنا ضخامتها البيضاء المشعة بالأضواء. كنت أعتقد أن ملجأنا يقع في عمق إحدى الكوات اللامتناهية التي يزدحم بها حطام السفن الصدئة، غير أن العكس هو ما حدث إذ أننا وصلنا في الظلام إلى قمة بارزة تقريباً وسط النهر... كانت الباخرة المضاءة تنزل الفولكا ببطء قبل أن تصعد بصورة مباغتة فوق مستوى مُعدّيتنا العتيقة متدرجة إلى جسورها الثلاثة. وكانت الأجساد البشرية تنتظر في خلفية السماء القاتمة. كانوا يرقصون على الجسر العلوي على أنوار النار المشتعلة. وكان دفقاً حاراً للتانغو يُنثر علينا ويغلفنا. بدا أن نوافذ المقصورات ذات الإضاءة الخفيفة قد استسلمت سامحة لنا بالدخول إلى حميميتها... وكان الدّفق الذي أحدثه مرور السفينة قوياً حد أن طوفنا استدار نصف دورة، وانزلق بسرعة أصابتنا بالدوار. وبدا أن السفينة بنورها وموسيقاها قد التفت حولنا... في تلك اللحظة أمسكت يدي بقوة وشدت نفسها إلي. وبدا أن كل ثقل جسدها الحار يتركز في راحتي يدي مثل جسد عصفور مختلج. فذراعاها وقامتها كانت مثل تلك الزنابق التي قطفتها يوماً جادلاً في الماء العديد من السيقان المنزلقة...

غير أن السفينة تلاشت في الظلام، وانطفأ صدى التانغو. أخذت الليل معها في إبحارها إلى أستراخان. وعُبّئ الهواء حول زورقنا بشحوب متردد. بدا لي من الغريب أن نُرى وسط نهر كبير في بداية

اليوم الخجلى على ألواح طوف مبلّلة. وعلى الضفة، كانت حدود الميناء تتشكل ببطء...

لم تنتظرني. فمن دون أن تنظر إلي أخذت تقفز من قارب إلى آخر. كانت تفر بسرعة وكأنها راقصة باليه قامت بدخول خاطئ. تبعتُ ذلك الفرار القافز بقلب كف عن النبض. وكان يمكنها في أية لحظة من اللحظات أن تنزلق تحت الخشب المبلل أو تخونها إحدى العبارات المفتتة، أو تغوص بين مركبين بعد أن تُقفل حافتاهما فوق رأسها. أبقاها تعلق نظري بها محلقة عبر الضباب الصباحي.

وفي اللحظة التي أعقبت ذلك رأيتها تمشي على الضفة. كان الرمل المبلل يصر قليلاً في صمت تحت خطواتها... المرأة التي كانت تبتعد كنت قريباً جداً منها قبل ربع ساعة فقط. أحسست بذاك الألم الجديد عليّ، والمتمثل في ابتعاد امرأة، قاطعة الروابط غير المرئية التي ما تزال تجمعنا. أما هي فقد صارت هناك على الضفة المقفرة كائناً عجيباً، امرأة أحبها، وأضحت مستقلة عني، وغريبة وستتحدث بعد قليل إلى الآخرين، وتبتسم... وتعيش!

استدارت لما شعرت بي أعدو نحوها. رأيت وجهها الشاحب، وشعرها الذي علمت لتوّي أنه أصهب واضح اللون وضوحاص بيِّناً. لم تبتسم، واكتفت بالنظر إليّ في صمت. لم أذكر ما وددت أن أقوله لها حين سمعت صرير الرمل المبلل تحت كعبي أحذيتنا قبل دقيقة. «أحبك» لو قلتها لكانت كذبة لا يجدر التفوّه بها. كانت تنورتها السوداء المجعدة، وذراعاها الرقيقتان الطفوليتان تفوق بالنسبة لي كل «أحبك» الموجودة في العالم. و كان اقتراح أن نتقابل اليوم أو غداً أمراً لا يمكن حتى التفكير فيه. فليلتنا ما ينبغي لها أن تكون إلا

وحيدة، مثل مرور السفينة، ومثل نومنا الخاطف، ومثل جسدها في رطوبة النهر الكبير الساكن.

حاولت أن أخبرها بذلك. وأن أتكلم من دون تتمة عن صرير الرمل تحت وقع خطوها، وعن وحدتها في تلك الضفة، وعن هشاشتها، وعن تلك الليلة التي دفعتني لأفكر في سيقان الزنابق. وفجأة أحسست بسعادة حارة، بأنه ينبغي أيضاً الحديث عن شرفة شارلوت، وعن أمسياتنا في السهوب، وعن أنيقات ثلاث في صبيحة خريفية للشانزليزيه...

تغضّن وجهها في تعبير حمل في الوقت عينه الازدراء والقلق. وارتعدت شفتاها وهي تقول مقاطعة بنبرة متعالية بعض الشيء، وهي التي تستعملها الفتيات في جبل السعادة عندما يزجرن المزعجين:

ـ هل أنت مريض أم ماذا؟

بقيت جامداً في مكاني. غادرت صاعدة بنايات الميناء الأولى قبل أن تغوص سريعاً في ظلالها الكثيفة. وبدأ العمال يظهرون عند بوابات معاملهم.

بعد أيام، وفي خِضمّ الحشد الليلي للجبل، سمعت في المدرسة حوار رفاقي، الذين لم يلحظوا وجودي قربهم. قالوا إن إحدى راقصات مجموعتهم الصغيرة اشتكت من شريكها الذي لم يكن يعرف كيف يمارس الحب. (عبّروا عن الفكرة بطريقة أكثر فظاظة). والواضح أنها أسرّت بتفاصيل مضحكة عن سلوكه (أكد أحدهم «طريف»). أصغيت إليهم آملاً في سماع بعض البوح الجنسي. وفجأة ذُكر اسم الشريك المستهزأ به: فرانشوز... كانت كنيتي التي كنت مع ذلك أفخر بها. «فرانشوز» أي فرنسي باللغة الروسية. ومن خلال

ضحكهم التقطت تبادل ردود على جِدَة بين صديقين، بطريقة التآمر: «سنهتم بأمرها هذه الليلة بعد الرقص. نحن الاثنان. اتفقنا؟»

خمنت أن الأمر يتعلق دوماً بها. تركت زاويتي وقصدت المخرج. لمحوني فنادوا: «فرانشوز! فرانشوز...» رافقني ذلك الهمس للحظة قبل أن يمحّي مع أول موجة موسيقى.

في اليوم الموالي، ومن دون إعلام أحد، رحلت قاصداً سارنزا.

[٣]

ذهبت إلى تلك المدينة الصغيرة الناعسة المفقودة وسط السهوب لأدمّر فرنسا. كان يلزم التخلص من فرنسا شارلوت تلك، التي جعلت مني متحولاً غريباً لا يستطيع العيش في العالم الواقعي.

كان ذلك التدمير يشبه في عقلي صرخة طويلة، وزمجرة غضب تكون أفضل معبّر عن كل ثورتي. وظل ذلك الصياح أَصمَّ من دون كلمات. كنت على يقين من أنها ستحضر ما إن تنظر إليّ شارلوت بعينيها الهادئتين. أما في تلك اللحظة فقد كنت أصرخ في صمت. وحدها الصور كانت تتدفق في سيلان ديمي متعدد الألوان.

رأيت لمعان نظارة أنفية في غلالة ملبدة لسيارة سوداء كبيرة. اختار بيريا جسداً أنثوياً لليلته. وكان جارنا الذي يقطن قبالتنا، وهو متقاعد هانئ مبتسم، يسقي ورود شرفته منصتاً إلى الزقزقة الخفيفة لترانزستور. وفي مطبخنا كان رجل بذراعين غطّتهما الأوشام يتحدث عن بحيرة متجمدة مملوءة بالجثث العارية. وبدا أن كل الناس في عربة الدرجة الثالثة التي تحملني إلى سارنزا لم يلحظوا المفارقات الممزقة. فقد كانوا مستمرين في العيش بهدوء.

أردت أن ألقي على شارلوت في صرختي كل تلك الصور. وكنت أنتظر منها جواباً. أردتها أن توضح وأن تبرر. ذلك أنها هي من نقلت

لي تلك الحساسية الفرنسية ـ حساسيتها ـ حاكمة علي بأن أعيش في ذلك «البين عالمين» المضني.

سأحدثها عن والدي بـ«ثقبه» في الرأس، وفوّهته الأشبه بفوّهة بركان صغيرة، حيث تنبض حياته، وعن والدتي التي ورثنا عنها خوفها من جرس الباب غير المتوقع في ليالي الأعياد. كانا قد ماتا. ومن دون وعي لِمتُ شارلوت على أنها بقيت حية بعد والدتي. لمتها على هدوئها أثناء مراسم جنازة والدتي. وتلك الحياة الأوروبية جداً في معناها الحقيقي ونقائها والتي تحياها في سارنزا. وجدت فيها الغرب مجسداً. ذلك الغرب المنطقي والبارد الذي يحتفظ الروس حياله بضغينة لا تشفى! أوروبا تلك التي تراقب متنازلة من حصن حضارتها كل مآسينا الهمجية، والحروب التي كنا نموت فيها بالملايين، والثورات التي كتبت سيناريوهاتها لنا... وفي تمردي الفتيّ كان هناك جزء كبير من ذلك الارتياب الفطري.

كانت البذرة الفرنسية التي اعتقدتها ضامرة دوماً في داخلي تمنعني من الرؤية. وكانت تقسم الواقع إلى شطرين، كما لو أنها شُكّلت من جسد تلك المرأة التي كنت أتجسس عليها من خلال كوّتين مختلفتين: كانت هناك امرأة ببلوزة بيضاء هادئة وعادية جداً، والأخرى ـ حيث ذلك الردف الكبير الذي جعل بفعاليته الجنسية باقي الجسد من دون جدوى تقريباً.

ومع ذلك فقد كنت أعلم بأن المرأتين لم تكونا في واقع الأمر إلا امرأة واحدة. تماماً مثل الواقع المتشظي. وكان ذلك وهمي الفرنسي الذي شوّش لي الرؤية، كما لو كنت ثملاً، شاطراً العالم نصفين بسراب خادع حي...

نضجت صرختي، وأخذت الصور التي ستتحول إلى كلمات تدور بعيني بسرعة متزايدة، حيث بيريا الذي يهمس إلى السائق قائلاً: «أسرع! إلحق بهذه. أريد أن أرى. . .» ورجل بزي البابا نويل، جدي فيودور، يعتقل في ليلة رأس السنة، وقرية والدي المحروقة، والذراعان الرقيقتان لفتاتي المحبوبة، ذراعا طفلة بشرايين مزرقة، وتلك المرأة التي تقشر الطلاء الأحمر عن أصابعها في الوقت الذي يُمتلك فيه أسفل جسدها، والحقيبة الصغيرة لبون نوف و «الفردان»، وكل ذلك الركام الفرنسي الذي أفسد شبابي!

بقيت بعض الوقت على الرصيف في محطة سارنزا. كنت أبحث عادة عن جسد شارلوت، ثم إني، بغضب ساخر، نعتت نفسي بالأبله. لم يكن ثمة أحد في انتظاري تلك المرة، حتى أن جدتي ما كانت لتشك في زيارتي! إضافة إلى ذلك، لاعلاقة للقطار الذي أقلّني بالقطار الذي كنا نأخذه كل صيف لنصل إلى تلك المدينة. ولم أصل إلى سارنزا صباحاً بل مساءً. والقطار الذي كان بطيئاً جداً، ومكتظاً جداً بالنسبة لمحطة الضاحية تلك، اهتز ببطء وانطلق إلى طشقند، إلى الحدود الآسيوية للإمبراطورية، حيث أورجنتش، وبخارى، وسمرقند، وتردد صدى مساره في رأسي محيياً مغامرة شرقية أليمة وعميقة لكل روسي.

كل شيء كان مختلفاً تلك المرة.

كان الباب مفتوحاً. وكان ما يزال ذلك العهد الذي لم تكن تقفل الشقة فيه إلا ليلاً. دفعته كما في قلب حلم. كنت قد تخيلت بوضوح شديد تلك اللحظة، واعتقدت أني كنت أعلم ما سأقوله لشارلوت كلمة كلمة، وبمَ سأتهمها. . .

ومع ذلك ما إن سمعت الصلصلة الدقيقة جداً للباب المألوفة جداً، تماماً مثل صوت قريب، واستنشقت الرائحة اللطيفة والخفيفة التي تحلّق دوماً في شقة شارلوت، حتى فرغ رأسي من الكلمات وليس ثمة إلا بقايا من صياخى المعدّ سلفاً ترن في أذني.

ـ بيريا! وذلك المسنّ الذي يسقي بهدوء نباتاته من فصيلة سيف الغراب، وتلك المرأة المشطورة نصفين! والحرب المنسيّة! واغتصابك! وتلك الحقيبة السيبيرية المملوءة بالأوراق الفرنسية، والتي أجرّها مثلما يجر سجين كرته الحديدية! روسيانا والتي لم تفهميها، أنت الفرنسية، ولن تفهميها أبدّاً! «وحبيبتي» التي سيهتم بها ذانك النذلان!

لم تسمعني أدخل. رأيتها جالسة أمام باب الشرفة. كان وجهها منحنياً على قماش زاهي اللون مبسوط على فخذيها، وإبرتها تلمع (لست أدري لماذا كانت شارلوت دوماً في ذاكرتي ترتق ياقة قميص من الدنتيلا).

سمعت صوتها. لم يكن غناءً ولكن إلقاء بطيئاً، وهمساً مطرباً، يقطع بوقفات، ومنغماً بجريان الأفكار الخرساء. أجل، كانت أغنية نصف مدندنة ونصف مغناة. وفي خدر المساء المحموم، كانت نغماتها تعطي انطباعاً بالنداوة، أشبه بصوت ضعيف لقيثارة. كنت أسمع الكلمات، وخلال بضع لحظات، أحسست بأني أنصت للغة غريبة، وغير معروفة. كانت لغة لا تقول شيئاً. . . كانت شارلوت تدندن ببطء شديد، وتتنهد بين الفينة والأخرى تاركة لصمت السهب المتعذر سبره أن يدخل بين مقطعي إلقائها.

كانت الأغنية التي اكتشفت سحرها وأنا صغير بعد، والتي أخذت تركز فيها في تلك اللحظة كل ضغينتي.

في زوايا السرير الأربع
إكليل من الدُّفلى. . .
فكرت بغضب: «أجل، تحديداً تلك الحساسية الفرنسية الزائفة التي تمنعني من العيش!»

وهنا نمنا
حتى نهاية العالم. . .

كلا، لم أعد أستطيع سماع تلك الكلمات أكثر!
دخلت الحجرة وأعلنت بمباغتة مقصودة، وباللغة الروسية:
ـ ها أنا ذا! أُراهن أنك لم تكوني تتوقعين حضوري!
ولمفاجأتي، ولخيبتي أيضاً، ظلت نظرة شارلوت هادئة عندما رفعت رأسها نحوي. خمنت في عينيها التحكم المؤكد في النفس والذي يُكتسَب بالاستئناس اليومي بالألم والكرب والخطر.
ولما فهمتْ عن طريق بعض الأسئلة المبطنة ومن ظاهري العادي أني لا أحمل لها أنباء مأسوية، قصدت المدخل وهاتفت عمتي لتعلمها بوصولي. ومرة أخرى تفاجأت بالسهولة التي تتحدث بها شارلوت إلى تلك المرأة التي كانت مختلفة جداً عنها. وكان صوتها، ذلك الصوت الذي كان يدندن قبل قليل لحناً فرنسياً قديماً، قد لُوّن بلكنة شعبية خفيفة، وبكلمات قليلة عرفت كيف تشرح كل شيء، وأن تدبّر كل شيء مرجعة اختفائي إلى عاداتنا في الالتقاء كل صيف. فكرت وأنا أنصت إليها: «تحاول أن تقلدنا. إنها تحرّف كلامنا بسخرية!». هدوء شارلوت وذلك الصوت الروسي جداً ضاعفا من مرارتي.

أخذت أرصد كل كلمة من كلماتها، لا بد أن تشعل إحداها فتيل انفجاري. كانت شارلوت على وشك أن تقترح عليّ «كرات الثلج»، تحليتنا المفضلة، وهكذا سأتمكن من مهاجمة كل تلك التفاهات الفرنسية، أو لعلها ستشرع في الحديث عن طفولتها محاولة إعادة خلق أجواء سهراتنا الماضية. أجل، لربما تبدأ من جزّاز الكلاب على رصيف من أرصفة السين...

غير أن شارلوت صمتت، ولم تعرني إلا قليلاً من الانتباه، كما لو أن حضوري لم ينغص جو ذلك المساء العادي من حياتها. كانت تقابل نظرتي بين الفينة والأخرى فتبتسم قبل أن يُحجب وجهها من جديد.

فاجأتني وجبة العشاء ببساطتها. لم تكن هناك «كرات الثلج» ولا أي شيء آخر من الأشياء التي كنا نأكلها صغاراً بشراهة. وأدركت بذهول أن قطع الخبز الأسود تلك وذلك الشاي الفاتح اللون كانا أكل شارلوت الاعتيادي.

بعد الأكل، انتظرتها في الشرفة. أكاليل الورود ذاتها، والأفق غير المحدود للسهب عينه تحت ضباب الحرارة. وبين شجرتي ورد كان وجه كاهنة باخوس الحجري. رغبت فجأة أن ألقي ذلك الرأس على درابزين الدرج، وأن أنزع الورود، وأن أكسر سكون السهب بصيحتي. أجل، كانت شارلوت ستأتي لتجلس على كرسيها الصغير، وستضع على فخذيها قطعة قماش...

وظهرت، لكن عوض أن تجلس على كرسيها الصغير، أتت لتستند إلى درابزين الدرج جواري. هكذا كنا نبقى في السابق أنا وأختي، أحدنا جوار الآخر، وننظر إلى السهب الذي يغوص في الليل ببطء، مصيخين السمع لقصص جدتنا.

أجل، استندت بكوعيها على الخشب المشقق، وأخذت تتأمل المدى غير المحدود المصبوغ بشفافية بنفسجية. وفجأة، ومن دون أن تنظر إليّ، أخذت تتحدث بصوت بعيد ومتفكر بدا أنه موجه إليّ وإلى شخص آخر غيري:

ـ ألا ترى كم هو غريب هذا الأمر... فقد قابلت امرأة قبل أسبوع في المقبرة. ابنها مدفون في الممر نفسه الذي دُفن فيه جدك. تحدثنا عنهما. عن موتيهما وعن الحرب. عمّ كان يمكننا أن نتحدث أمام القبور؟ جُرح ابنها قبل شهر من نهاية الحرب. وكان جنودنا قد بدأوا يتجهون إلى برلين. صلّت كل يوم (كانت مؤمنة، أو أنها صارت كذلك خلال ترقبها ذاك)، أن يُبقوا ابنها في المستشفى لأسبوع، لثلاثة أيام... قُتل في برلين خلال المعارك الأخيرة التي دارت في شوارع المدينة... حكت لي كل ذلك ببساطة. حتى دموعها كانت بسيطة عندما كانت تتحدث عن صلواتها... هل تعلم فيمَ ذكرتني قصتها؟ بجندي مجروح في مستشفانا. كان يخشى أن يعود إلى الجبهة. وكل ليلة كان يتلف جرحه بإسفنجة. فاجأته، وتحدثت بشأنه مع الطبيب الرئيسي. ووضعنا لذلك الجريح جبيرة. وبعد وقت من ذلك شفي فعاد إلى الجبهة... في ذلك العهد كان كل ذلك يبدو لي واضحاً جداً وعادلاً جداً. أما الآن فأشعرني ضائعة بعض الشيء. أجل، صارت الحياة ورائي، وفجأة علي أن أعاود التفكير في كل شيء. قد يبدو لك هذا من الغباء، لكنني أطرح هذا السؤال على نفسي أحياناً: «ماذا لو أني كنت قد أرسلت ذلك الجندي الشاب إلى الموت؟». حدثت نفسي بأنه من المحتمل أن هناك امرأة في عمق روسيا تصلي كل يوم حتى نُبقيه في المستشفى لأطول فترة ممكنة.

أجل، مثل تلك المرأة في المقبرة. لست أدري... لا أستطيع أن أنسى وجه تلك المرأة. هل تفهم؟ هذا غير صحيح تماماً، لكنني أعتقد الآن أن شيئاً ما كان في صوتها أشبه ببعض اللوم. لست أدري كيف يمكنني أن أشرح كل هذا...

وصمتت طويلاً من دون أن تتحرك وعيناها مفتوحتان على وسعهما وبدت قزحية عينيها محافظة على ضوء الغروب المطفأ. وأنا مستمر في مكاني رحت أنظر إليها بطريقة خفية من دون أن أدير رأسي، وأغير وضع ذراعي، وأفك أصابعي المتشابكة...

قالت أخيراً وهي تترك الشرفة:

ـ سأعدّ لك سريرك.

عدّلت من وضعي، وألقيت نظرة مفاجئة حولي. كرسي شارلوت الصغير، والمصباح ذو الأباجور الفيروزي، وكاهنة باخوس الحجرية بابتسامتها الحزينة، وتلك الشرفة الضيقة المعلقة فوق السهب المظلم. بدا لي كل شيء فجأة هشاً جداً! تذكرت مندهشاً رغبتي في أن أحطم كل ذلك الإطار الزائل... أضحت الشرفة صغيرة جداً كما لو أني أنظر إليها من مسافة بعيدة جداً. أجل، كانت صغيرة ومن دون دفاع.

في اليوم الموالي اجتاحت ريح حارقة وجافة سارنزا. وظهرت في زوايا الشوارع حيث تسطع الشمس عواصف رملية صغيرة، أُتبع ظهورها بفرقعة أصوات، ذلك أن أوركسترا عسكرية ترددت في الساحة المركزية. وحمل الهبوب المحتدم بقايا اللحن صعب الأداء حتى بيت شارلوت، ثم عمّ الصمت فجأة. وسُمع صرير الرمال على الزجاج وطنين ذبابة محموم. كان اليوم الأول لتمارين عسكرية تقام على بعد عدة كيلومترات من سارنزا.

مشينا طويلاً في البداية، عبرنا المدينة ومضينا في السهب. كانت شارلوت تتحدث بالصوت الهادئ والمترفع عينه الذي سمعته في الليلة السابقة في الشرفة. وكان حديثها يذوب في ضجيج الأوركسترا البهيج وعندما هدأت الريح فجأة رنّت كلماتها بصفاء غريب في فراغ الشمس والصمت.

حكت عن مقامها القصير في موسكو، سنتين قبل الحرب... كانت تمشي بعد ظهر صاف لأحد الأيام من شهر أيار/ مايو عبر شوارع برسنيا المتشابكة في بريسنيا التي تنحدر نحو الموسكوفا. وكانت تشعر نفسها متماثلة للشفاء، وقد تعافت من الحرب ومن الخوف وحتى من موت فيودور دون أن تجرؤ على أن تسرّ بذلك لنفسها، أو بالأحرى من غيابه اليومي، المضي... عند زاوية شارع سمعت حوار امرأتين مرّتا جوارها فقالت إحداهما: «ساموڤار»... فكرت شارلوت كمرجع الصدى: «الشاي الجيد للزمن الذي مضى...». عندما ولجت إلى الساحة أمام السوق بأكواخه الخشبية، وأكشاكه، وسياجاته من الألواح السميكة، أدركت أنها أخطأت. تقدم منها رجل بلا ساقين يجلس على نوع من العلبة المتحركة، ومد ذراعه الوحيدة ثم قال:

ـ هيا يا جميلتي، روبل صغير من أجل العاجز!

تفادته شارلوت بطريقة غريزية إذ كان ذلك المجهول أشبه برجل خرج من باطن الأرض. وهكذا لمحت بأن أطراف السوق تشهد تجمهر جنود مبتوري الأطراف، أولئك الـ «سموفار» الذين كانوا يتحركون في صناديقهم المجهز بعضها بعجلات صغيرة مزوّدة بإطارات مطاطية، وبعضها الآخر بكريات بسيطة. وكانوا يدنون من

الناس عند المخرج سائلين إياهم المال أو التبغ. وكان البعض يمنحهم ما يطلبون في حين كان البعض الآخر يسرع خطاه، وكان آخرون يلقون بالشتائم مضيفين بنبرة مدعية التهذيب: «تطعمكم الدولة... كم هذا مخجل!» وكان الساموڤار كلهم شبان تقريباً وبعضهم ثمل بشكل جلي. وكانوا جميعاً ذوي نافذة بها بعض الجنون... انطلقت ثلاثة أو أربعة صناديق باتجاه شارلوت. وكان الجنود يضعون عصيّهم على أرضية الساحة ويتلوّون ويدفعون أنفسهم بهزات عنيفة لأجسادهم كلها. وعلى الرغم من مأساتهم فقد كان الأمر أشبه بلعبة.

توقفت شارلوت، وسحبت بسرعة ورقة من حقيبتها، منحتها لمن كان أول الواصلين منهم. لم يستطع التقاطها ذلك أن يده الوحيدة، اليد اليسرى، كانت بلا أصابع. دش الورقة داخل علبته، ثم ترجح فجأة على مقعده، ومس كاحل شارلوت ماداً ما بقي من جسده، قبل أن يرفع ناظريه نحوها وملؤهما جنون حزين...

لم تملك الوقت لتفهم ما حدث بعد ذلك. فقد رأت مشوّهاً آخر بذراعيه السليمتين وقد ظهر جوار الأول، وبعنف سحب الورقة المدعوكة من صندوق الأكتع. تأوهت شارلوت، ثم فتحت حقيبتها مجدداً غير أن الجندي الذي داعب لتوّه قدمها بدا مستسلماً، إذ أدار ظهره إلى المعتدي عليه، وعاد ليصعد الشارع الصغير شديد الانحدار، الذي يفتح أعلاه كوّة على السماء... بقيت شارلوت لفترة مترددة إن كان عليها أن تلحق به، أو تعطيه المال مرة أُخرى. رأت بعض الساموڤار يدفعون صناديقهم في اتجاهها. وأحست بضيق شديد، بخوف وخجل أيضاً. ثم مزقت صرخة خشنة الضجيج الرتيب الذي يحلق فوق الساحة.

استدارت شارلوت بغتة. كانت الرؤية سريعة مثل البرق. وكان الأكتع ينزل منحدر الشارع الصغيرة بسرعة كبيرة على صندوقه المدحرج بطقطقة مصمة لدوران الكريات. وكانت جدعته تدفع الأرضية أكثر من مرة موجهة ذلك الانحدار الجنوني. وفي فمه المعذّب بتكشيرة فظيعة سكين يضغط عليها بأسنانه. وكان للمشوه الذي سرق له ماله الوقت ليمسك بعصا فقط. وصدم صندوق الأكتع صندوقه. وتدفق الدم. رأت شارلوت ساموفارين آخرين يهرعان إلى الأكتع الذي كان يهز رأسه ممزقاً جسد عدوه. ولمعت سكاكين أخرى بين الأسنان. وكان الصراخ يعلو المكان من كل جانب. وكانت الصناديق تتصادم بعضها ببعض. ولم يجرؤ المارة المذهولون بذلك الشجار الذي أضحى عاماً أن يتدخلوا. نزل جندي آخر منحدر الشارع بسرعة كبيرة وبين فكيه نصلٌ لينهمك في خليط الأجساد المشوّهة... حاولت شارلوت الاقتراب غير أن القتال كان يدور تقريباً على الأرض، وكان ينبغي للمرء أن يزحف ليتدخل. وسارع أعضاء المليشيا مطلقين أصواتهم الثاقبة، واستفاق المتفرجون، فسارع بعضهم إلى الرحيل، في حين انسحب البعض الآخر إلى ظلال أشجار الحور ليشهدوا نهاية المعركة. رأت شارلوت سيدة تنحني لتسحب ساموفاراً من تكدس الأجساد، وهي تردد بصوت محزون: «ليوشا! وعدتني بألا تعود إلى هنا أبداً! لقد وعدتني!». ثم غادرت وهي تحمل المشوه مثل طفل. حاولت شارلوت أن ترى ما إذا كان اكتعها ما يزال هناك. لكن أحد رجال المليشيا دفعها...

كنا نمشي بخط مستقيم مبتعدين عن سارنزا. وكان ضجيج الأوركسترا قد انطفأ وسط صمت السهب. ولم نعد نسمع إلا حفيف

الأعشاب في الريح. تردد صوت شارلوت من جديد وسط ذلك المد غير المحدود من الضوء والحرارة:

ـ كلا، لم يكونوا يتقاتلون من أجل ذلك المال المسروق. كلا! الكل فهم ذلك. كانوا يتقاتلون من أجل... من أجل الانتقام من الحياة. من وحشيتها، ومن حماقتها، ومن سماء شهر أيار التي كانت فوق الرؤوس... كانوا يتقاتلون كما لو أنهم أرادوا ازدراء أحدهم. أجل، ذلك الذي مزج في حياة واحدة تلك السماء الخريفية وأجسادهم المشوهة...

كنت على وشك أن أسأل: «هل هو ستالين أم الرب؟» غير أن هواء السهب كان يجعل الكلمات خشنة ومن الصعب لفظها بوضوح.

لم نكن قد سرنا بعيداً مثل تلك المرة. وكانت سارنزا قد غرقت منذ مدة في الاهتزاز الضبابي للأفق. وكانت تلك المغامرة من دون هدى ضرورية بالنسبة لكلينا. وخلف ظهري، كنت أشعر تقريباً بشكل مادي بظل ساحة صغيرة في موسكو...

وصلنا أخيراً إلى ردم سكة حديد حدّت خطوطه حدوداً تتجاوز الواقع في ذلك المكان اللامتناهي من دون علامات مميزة إلا الشمس والسماء. وبشكل غريب، وعند الجهة الأخرى لخطوط السكة الحديد، كان المنظر مختلفاً. وكان علينا الالتفاف حول بعض الوهاد، وهي تصدعات ضخمة مرملة الداخل، لننزل فيما بعد إلى أحد الأودية. وفجأة تلألأ الماء بين عليقات الصفصاف. تبادلنا الابتسام، وهتفنا بصوت متعجب واحد:

ـ سومرا!

كان رافداً بعيداً من روافد الفولكا، وأحد تلك الأنهر الخفيفة

المفقودة في ضخامة السهب والتي يُعرف وجودها فقط لأنها تصب في النهر الكبير.

بقينا في ظل الصفصاف حتى المساء... ولم تكمل شارلوت قصتها إلا في طريق العودة، إذ قالت:

- في النهاية، ذاقت السلطات ذرعاً بأولئك المشوّهين على الساحة، اكتفت من صراخهم ومن شجاراتهم. وكانوا فوق كل هذا يقدمون صورة سيئة عن النصر الكبير. أنت تعلم أن المرء يفضل الجندي شجاعاً، ومبتسماً أو... ميتاً في ساحة الشرف. أما أولئك... المهم، وصل العديد من الشاحنات في أحد الأيام، وبدأ أعضاء المليشيا ينزعون الساموڤاريين من صناديقهم ويلقون بهم في صناديق الشاحنات القلابة الخلفية، كما يُلقى الحطب على عربة. حكت لي امراة من موسكو أنهم أخذوهم إلى جزيرة في بحيرات الشمال، وقد جُهزت لغرض استقبالهم مستشفى جُذام قديم... في فصل الخريف حاولت أن أستعلم عن ذلك المكان. فكرت أن أقصده لأعمل فيه. لكن عندما حضرت في الخريف إلى تلك المنطقة قيل لي إنه لم يعد في الجزيرة أي مشوه، وأن مستشفى الجذام أقفلت بشكل نهائي... ومع ذلك، فقد كان مكاناً جميلاً جداً تنتشر فيه أشجار صنوبر على مد البصر، وبحيرات كبيرة، وعلى الأخص هواء صاف جداً...

بعد ساعة من المشي، رمتني شارلوت بابتسامة من دون بهجة لتقول:

- إنتظر، سأجلس للحظة...

وجلست على العشب اليابس مادة ساقيها. تقدمت بطريقة آلية بخطوات إلى الأمام ثم استدارت. ومرة أخرى، كما لو أن الأمر

يتعلق بمسافة بعيدة بشكل غريب أو بارتفاع شاهق، ذلك أني رأيت امرأة بشعر رأس أبيض ترتدي فستاناً بسيطاً جداً من الساتان زاهي اللون، رأيت امرأة جالسة أرضاً وسط شيء هائل جداً يمتد من البحر الأسود حتى منغوليا، ويطلق عليه اسم «السهب». رأيت جدتي... بذلك البعد غير المفسر والذي حسبته بالأمس نوعاً من أنواع الوهم نتيجة لتوتّري العصبي. ذلك أني ظننتني التقطت ذلك الاغتراب المدوّخ والذي يُفترض أن شارلوت تحسه دوماً. كان اغتراباً كونياً. وكانت هناك تحت السماء البنفسجية. بدت وحيدة جداً على ذلك الكوكب، في العشب الخبّازي اللون، وتحت النجوم الأولى. وكانت فرنساها وشبابها بعيدين جداً عنها من ذلك القمر الشاحب، متروكين في مجرّة أخرى، وتحت سماء أخرى...

رفعت وجهها فبدت لي عينيها أكبر من المعتاد. تحدثت بالفرنسية. ارتعشت جهورية تلك اللغة تماماً مثل آخر رسالة أتت من مجرّة بعيدة:

ـ هل تعلم يا أليوشا؟ يبدو لي أحياناً أني لا أفهم شيئاً في حياة هذا البلد. أجل، وأنني ما زلت أجنبية، بعد ما يقارب نصف قرن عشته هنا. أولئك «الساموڤار»... لا أفهم. كان هناك أناس يضحكون وهم يتفرجون على معركتهم!

بدت كأنها تنوي القيام. سارعت إليها وأنا أمد لها يدي. ابتسمت وهي تمسك ذراعي. وعندما كنت منحنياً همست كلمات سريعة وبنبرة جادة ومنخفضة فاجأتني، ومن المحتمل أني ترجمتها بطريقة ذهنية إلى اللغة الروسية، وحفظتها كذلك. منحت تلك العملية جملة طويلة بينما اختصرت فرنسية شارلوت كل شيء في صورة واحدة:

«الساموفار» الأكتع جالساً، وظهره مسند إلى جذع شجرة صنوبر كبيرة، وهو ينظر بصمت إلى انعكاس الأمواج التي تتكسر خلف الأشجار. . .

في الترجمة الروسية التي حفظتها ذاكرتي، أضاف صوت شارلوت بنبرة تبرير: «وأحياناً أخاطب نفسي قائلة إني أفهم هذا البلد أفضل مما يفهمه الروس أنفسهم. لأني أحمل وجه ذلك الجندي بداخلي منذ كل تلك السنين. . . لأني خمنت وحدته عند طرف البحيرة. . .».

قامت ومشت ببطء مستندة إلى ذراعي. أحسست ذاك المراهق العدواني والعصبي الذي أتى بالأمس إلى سارنزا يغمى عليه داخل جسدي، وفي تنفسي.

وهكذا بدأ صيفنا. كان آخر صيف أمضيه في بيت شارلوت. وفي صبيحة اليوم الموالي استيقظت بإحساس أني عدت إلى نفسي في النهاية. كان هناك هدوء كبير، كان هدوءاً مراً وصافياً في الآن نفسه. ولم يعد ينبغي عليّ أن أدخل في صراع بين هويتيّ الروسية والفرنسية. كنت أقبلني.

أخذنا نمضي كل نهاراتنا تقريباً على ضفاف السومرا. فقد كنا نغادر في الصباح الباكر حاملين معنا مطرة كبيرة والخبز وبعض الجبن. وفي المساء كنا نعود مستفيدين من أول نسمة رطبة.

وعندما أضحت الطريق معروفة بالنسبة لنا، لم تعد تبدو لنا بكل ذلك الطول. وفي رتابة السهب المشمسة، اكتشفنا ألف علامة، وشواخص سرعان ما صارت مألوفة لنا. كتلة الغرانيت تلك التي يلمع طلقها من بعيد تحت الشمس، وقطعة أرض رملية أشبه بصحراء

مصغرة، وذاك المكان المغطى بالعوسج الذي كان ينبغي تفاديه. وكانت سارنزا تختفي عن ناظرينا. وكنا ندرك أن خط الردم على وشك أن ينفصل عن الأفق، وستلمع خطوط السكة الحديد. وما إن يتم تجاوز ذلك الحد، حتى نكون قد أوشكنا على الوصول. فخلف الأودية التي تحوز السهب بخنادقها شديدة الانحدار كنا نشعر بحضور النهر. وكان يبدو أنه ينتظرنا...

جلست شارلوت حاملة كتاباً تحت ظل أشجار الصفصاف قريباً جداً من مجرى الماء. أما أنا فقد كنت أسبح وأغوص عابراً النهر الضيق وقليل العمق عدة مرات، حتى أدركني التعب. وعلى امتداد ضفتيه كانت تصطف سلسلة من الجزر الصغيرة المغطاة بالعشب الكثيف، حيث يوجد مكان ليستلقي به المرء فقط، متخيلاً أنه على جزيرة مهجورة في قلب المحيط...

ثم أنصت ممدداً على الرمل لصمت السهب المتعذر سبره... وكانت أحاديثنا تولد من دون ذريعة، وتتدفق في جريان السومرا، وحفيف الأوراق الكبيرة لأشجار الصفصاف. وكانت شارلوت تنظر إلى النهر من الجانب الآخر، وهي تضع يديها على الكتاب المفتوح، باتجاه ذاك السهل الذي أحرقته الشمس، وتشرع في الحديث مجيبة عن أسئلتي أحياناً، وأحياناً أخرى تستقبلها بحدس من خلال حديثها.

وخلال فترات بعد الظهر الطويلة لفصل الصيف ذاك في قلب السهب حيث يطن العشب بفعل الجفاف والحرارة علمت ما كانوا يخفونه عني من قبل عن حياة شارلوت، وما استعصى على ذكائي الطفولي إدراكه.

علمت أنه كان بالفعل عشيقها الأول، وأول رجل في حياتها،

جندي الحرب ذاك، الذي وضع في راحة يدها الحجر الصغير المسمّى «فردان»، غير أنهما لم يتعارفا يوم الاستعراض الاحتفالي في ١٤ تموز/ يوليو لسنة ١٩١٩، ولكن بعد سنتين من ذلك، قبل عدة أشهر من رحيل شارلوت إلى روسيا. وعلمت أيضاً بأن ذاك الجندي كان بعيداً كل البعد عن ذاك البطل ذي الشارب، والذي تألق بالميداليات التي صنعتها خيالاتنا الساذجة. وقد ظهر هزيلاً بوجه شاحب وعينين حزينتين. وكان يسعل عادة. وكانت رئتاه قد حرقتا خلال إحدى أولى الهجمات بالغاز. ولم يغادر صف الاستعراض الكبير، ويتقدم من شارلوت ليناولها «الفردان»، ذلك أنه أرسل لها ذلك الحجر إلى المحطة يوم رحليه إلى موسكو. كان متأكداً أنه سيعود ليراها في القريب.

حدثتني يوماً عن الاغتصاب... كان لصوتها الهادئ لكنة كأنها تريد أن تقول: «طبعاً، فأنت تعرف من قبل ما يتعلق بـ... لم يعد الأمر سراً بالنسبة لك». أكدت مقدمتها بسلسلة من «أجل، أجل» قصيرة بلامبالاة طريفة. خشيت كثيراً أن أرى بعد قصتها وأنا أقف شارلوت أخرى، ووجهاً آخر يحمل التعبير الذي يمحى لامرأة مغتصبة، غير أن ما التصق بعقلي بداية كان تلك الشظية المتلألئة.

كان رجلاً مُعمّماً، ويرتدي نوعاً من معطف سميك جداً، وحاراً جداً، خاصة وسط الرمال الصحراء والتي تحيط به من كل جانب. وكانت له عينان مشدودتان تشبهان موسى، وسمرة وجهه المدور النحاسية التي تلمع بفعل العرق. كان شاباً بحركات عصبية يحاول أن يمسك الخنجر المعقوف المعلق على حزامه في الجهة الأخرى من البندقية. بدت تلك الثواني القليلة وكأنها لا تنتهي. ذلك أن الصحراء

والرجل صاحب الحركات السريعة تمت رؤيتهما من قبل قطعة مصغرة من العين، من خلال تلك الفرجة الصغيرة بين الهدب. كانت امرأة خائرة فوق الأرض بفستان ممزق، وشعر رأس مبعثر، وقد اختفى نصفه تحت الرمال، وبدا أنها ارتبطت إلى الأبد مع تلك الطبيعة الفارغة. وبدا أن هناك خيطاً أحمر يعبر صدغها الأيسر، غير أنها ما تزال على قيد الحياة. فقد مزقت الرصاصة الجلد أسفل شعرها وغاصت في الرمال. تلوّى الرجل ليتناول سلاحه. أراد أن يكون الموت أكثر مادية، حيث العنق مفصولة، ودفق الدم يبلل الرمال. انزلق الخنجر الذي كان يبحث عنه إلى الطرف الآخر، وفيما، كان يتخبط الجسد المسحوق بأهداب ثوبه الطويل المفتوح جيداً. . . أطلق بغضب رصاصة على حزامه ملقياً نظرات حاقدة على الجامد. وفجأة سمع صهيلاً، فإذا رفاقه قد ابتعدوا على صهوات جيادهم، وبدت أجسادهم من على تلة بارزة بشكل واضح في الأفق. أحس نفسه فجأة وحيداً بشكل غريب. كان هو والصحراء تحت ضوء المساء وتلك المرأة المحتضرة. بصق مغتاظاً، وضرب بحذائه العالي الحاد الرأس الجسد الساكن، وبخفة سنّور برّي قفز على صهوة جواده. وعندما تلاشى وقع الحوافر فتحت المرأة عينيها ببطء، ثم بدأت تتنفس بتردد كما لو أنها فقدت عادتها في فعل ذلك. وكانت للهواء نكهة الحجارة والدم. . .

امتزج صوت شارلوت مع الصفير الخفيف لأشجار الصفصاف. صمتتْ. فكرتُ في غضب الشاب الأوزبكي: «كان عليه أن يذبحها مهما كلّفه ذلك من ثمن، وأن يحيلها إلى جسد بلا حياة!» أدركت، بذكاء رجولي، أن الأمر لا يتعلّق بعمل وحشي فقط. تذكرت في

تلك اللحظة الدقائق الأولى التي أعقبت ممارسة الجنس، حيث أضحى الجسد الذي كان مرغوباً فيه قبل لحظة وفجأة، بلا جدوى، وغدت رؤيته بشعة، ولمسه عدوانياً تقريباً. تذكرت رفيقتي الشابة فوق طوفنا المظلم. والواقع أني لمتها لأني ما عدت أرغب فيها، ولإحباطي، ولإحساسي بها هناك ملتصقة بكتفي... قلت وأنا أدفع فكرتي حتى نهايتها وأنا أعري تلك الأنانية الذكورية التي أرعبتني والتي أغرتني في الآن نفسه: «صحيح أنه يجب على المرأة أن تختفي بعد ممارسة الحب!». وعدت لأتخيّل مجدداً تلك اليد المحمومة التي تبحث عن الخنجر.

اعتدلت فجأة مستديراً نحو شارلوت. كنت على وشك أن أسألها السؤال الذي ظل يعذبني منذ أشهر والذي شكّلت صيغته في رأسي وأعدت تشكيلها ألف مرة: «أخبريني، في كلمة واحدة، وفي جملة واحدة: ما هو الحب؟»

غير أن شارلوت تحدثت أولاً معتقدة من دون شك أنها تستبق سؤالاً منطقياً أكثر من هذا السؤال:

ـ هل تعلم ما الذي أنقذني، أو بالأحرى من أنقذني... ألم يخبروك بذلك بعد؟

نظرت إليها. كلا، فقصة الاغتصاب لم تترك أي أثر على محيّاها. كان هناك خفقان الظل والشمس في أوراق الصفاف التي تلامس وجهها.

أُنقذت من قِبل «سايغاك» ظبية الصحراء تلك ذات المنخرين الغليظين الشبيهين بخرطوم مجدوع، وذات العينين المخيفتين والعطوفتين في مفارقة مدهشة. كانت شارلوت قد رأت كثيراً قطعانها

تعدو في الصحراء... عندما تمكنت أخيراً من الوقوف، رأت سايغاك تصعد ببطء أحد الكثبان الرملية، فتبعتها من دون أن تفكر، وبطريقة غريزية. كان الحيوانُ الشاخص الوحيد وسط التموّج اللامنتهي للرمال. وكما لو أن الأمر يحدث في قلب حلم (كان الهواء الليلكي حيث الفراغ الخادع للأحلام)، تمكنت من الاقتراب من الحيوان. ولم تفر السايغاك. رأت شارلوت في ضوء الغسق بقعاً سوداء على الرمال. كانت دماً. استرخى الحيوان، وترجح على قائمتيه اللتين كانتا ترتعدان. وقام بعدة قفزات غير منتظمة، ليسقط مجدداً. كان قد جُرح حدّ الموت. هل كان ذلك بسبب الرجال الذين أوشكوا على قتلها؟ ربما. كان الفصل خريفاً. وكان الليل قارساً جداً. تقلصت شارلوت ملصقة جسدها بظهر الحيوان. لم تعد السايغاك تتحرك أبداً. وكانت قشعريرات تجتاح جسدها. وكان تنفسها ذو الصفير أشبه بتنهيدات بشرية، بكلمات هامسة. استفاقت شارلوت أكثر من مرة في خدر البرد والألم ملتقطة ذلك الهمس الذي كان يحاول قول شيء بهوس. في إحدى المرات التي استفاقت فيها في بطن الليل رأت بذهول شرراً قريباً جداً يلمع في الرمال. كانت نجمة قد سقطت من السماء... انحنت شارلوت على تلك النقطة المتلألئة. كانت عين السايغاك المشرعة، وكوكبة من النجوم بديعةَ وهشةً تعكس على الكرة المملوءة بالدموع... لم تدرك اللحظة التي توقفت فيها نبضات قلب ذلك الكائن الذي منحها الحياة... وكانت الصحراء في الصباح قد التمعت بالمُلاّح. بقيت شارلوت واقفة للحظات أمام الجسد الساكن الذي نُثر عليه البلّور، ثم صعدت ببطء الكُثيِّب الذي لم يستطع الحيوان أن تجاوزه في الليلة السابقة. عند

وصولها إلى القمة أطلقت «آهة» ترددت في الهواء الصباحي. كانت بُحيرة وردية بفعل الأشعة الأولى تمتد تحت قدميها. كانت السايغاك تحاول الوصول إلى ذلك الماء... وقد وُجدت شارلوت جالسة على الضفة في المساء نفسه.

أضافت مع حلول الليل في شوارع سارنزا تلك الخاتمة المؤثرة إلى قصتها إذ قالت بصوت خفيض:

ـ لم يثر جدك أبداً هذه الحكاية. أبداً... وقد كان يحب عمك سيرج كما لو كان ابنه، وربما أكثر. من الصعب أن يتقبل المرء أن يولد ابنه البكر نتيجة لعملية اغتصاب، خاصة بالنسبة لرجل. وأنت تعلم بأن سيرج لم يكن يشبه أحداً في العائلة. كلا، لم يتحدث عن ذلك أبداً...

أحسست صوتها يضطرب قليلاً. فكرت ببساطة شديدة: «أحبت فيودور، وهو من جعل هذا البلد حيث عانت كثيراً بلدها. وما تزال تحبه. فبعد كل هذه السنوات من دونه. تحبه في هذا السهب المظلم، وفي روسيا الهائلة هذه. تحبه...»

وبدا لي الحب مجدداً في كل بساطته الأليمة، وغير القابلة للتفسير، وغير القابلة للتعبير عنها، مثل كوكبة النجوم المنعكسة في عين حيوان مجروح في قلب صحراء مغطاة بالجليد.

أوضحت لي زلّة لساني التي وقعت مصادفة حقيقة محيّرة وهي أن اللغة الفرنسية التي أتكلم بها لم تعد كما كانت...

في ذلك اليوم، عندما كنت أطرح سؤالاً على شارلوت، زلّ لساني. ولا شك أني وقعت على أحد أزواج الكلمات، وكان زوجاً خادعاً، ذلكِ أن اللغة الفرنسية تحفل بها كثيراً. أجل، كانا توأماً من

نوع «جابٍ ـ مُرَبٍّ»، أو «أَمرَ ـ مَيّز» وهي ثنائيات خائنة، وعُرضة للمجازفة تماماً مثل «ترف ـ شبق» والذي كان يستدعي من قبل بعض السخرية من أختي وتصحيحات شارلوت الخفية نتيجة لأخطائي في تصريف الأفعال. . .

لم يكن الأمر يتعلق في تلك المرة بأن تهمس لي بالكلمة الصحيحة. فبعد لحظة تردّد، صحّحتُ لنفسي. لكن الشيء الذي كان أقوى من تلك الحيرة أن أصل إلى ذلك الاكتشاف المرعب، وهو أني كنت أتحدث لغة غريبة!

لم تكن أشهر تمردي من دون تبعات. كلا، فقد صرت أعبّر بالفرنسية من تلك اللحظة فصاعداً بسهولة أقل. غير أن القطيعة كانت هناك. فقد كنت وأنا بعد صغير السن أنصهر في المادة الصوتية للغة شارلوت. وكنت أسبح فيها من دون أن أتساءل عن سبب ذلك الانعكاس في العشب، واللمعان الملوّن والمعطر والحي، الموجود تارة في المذكر، بهوية صرفة وهشة وبلورية يفرضها كما يبدو اسمها *تسفيتوك*، ويغلّف تارة أخرى بنسمة مخملية، لبدية ومؤنثة فتغدو «وردة».

فكرت في ما بعد في حكاية أم أربع وأربعين التي لما سُئلت عن تقنية الرقص ارتبكتعلى الفور حركات أرجلها الكثيرة، والتي كانت عفوية من قبل.

ولم تكن حالتي ميؤوس منها إلى ذلك الحد، ولكن منذ يوم الزلة صارت مسألة «التقنية» لايمكن تجاوزها. وصارت الفرنسية أداة أحدد مداها وأنا أتكلم. أجل؛ أداة مستقلة عني، أستعملها مدركاً بين الفينة والأخرى غرابة ذلك الفعل.

ومع أن اكتشافي كان باعثاً على القلق غير أنه علمني حدساً نافذاً في الأسلوب. خاطبت نفسي قائلاً: «لم تكن هذه اللغة الأداة المستعملة المشحوذة، والمتقنة أي شيء آخر سوى كتابة أدبية في القصص الفرنسية، التي أكنت أرفه بها عن زملائي خلال تلك السنة بأكملها. وأحسست الخطوط الأولى لهذه اللغة الروائية. لم أغير فيها من أجل إرضاء «البروليتاريين» أو «مدّعي الفن». كان الذي يذوب العالم فيه. واللغة الفرنسية، لغتي لجدتي من أمي كانت، وهذا ما أدركته في تلك اللحظة، لغة الدهشة بامتياز».

. . . أجل، فمنذ ذلك اليوم البعيد الذي قضيته على ضفة نهر صغير مفقود في قلب السهب أتذكر بين الفينة والأخرى، وأنا في خضمّ حديثي الفرنسي، مفاجأتي آنذاك: حيث امرأة شعرها رمادي وعيناها واسعتان وهادئتان، تجلس وحفيدها في قلب السهل المقفر الذي تحرقه الشمس، ذلك السهل الروسي جداً في بعده اللامنتهي، وهما يتحدثان اللغة الفرنسية، كالشيء الأكثر طبيعية في العالم. . . أعيد رؤية المشهد، وأفاجأ للحديث باللغة الفرنسية. أتلعثم وأرفع رايتي البيضاء، وبشكل غريب، أو بالأحرى بشكل منطقي جداً، وعندما أجدني بين لغتين، أعتقد أني أرى وأحس بشدة أكثر من أي وقت مضى.

لربما في ذاك اليوم نفسه حيث نطقت «جابي» عوض «المعلم»، ولجت في صمت بين لغتين، وانتبهت أيضاً إلى جمال شارلوت. . .

وبدت لي فكرة ذلك الجمال في البداية كأمر مستبعد. ففي روسيا تلك الفترة كانت كل امرأة تتجاوز الخمسين من العمر تتحول إلى «بابوشكا» ـ أي إلى كائن من السخيف افتراض الأنوثة فيه، بل أبعد من ذلك أن يكون جميلاً. أما التأكيد على أن «جدتي جميلة». . .

ومع ذلك فشارلوت التي كانت تبلغ من العمر آنذاك أربعاً وستين سنة أو خمساً وستين سنة كانت جميلة. كانت جالسة أسفل شديدة الانحدار والرملية. وكانت تقرأ تحت أغصان الصفصاف التي تغطي فستانها بشبكة من الظل والشمس. وكان شعرها فضي اللون مجموعاً على رقبتها. وكانت عيناها تنظران نحوي بين الفينة والأخرى بابتسامة خفيفة. حاولت أن أفهم ما كان في ذلك الوجه، وذلك الفستان البسيط جداً يشع الجمال الذي كنت مرتبكاً تقريباً في الاعتراف بوجوده.

كلا، لم تكن شارلوت «امرأة لايظهر عليها عمرها»، فملامح وجهها لم تكن بذاك الجمال الوحشي مثل ما لتلك الوجوه «المعتنى بها جيداً» لأولئك النساء اللواتي يعشن في حرب دائمة ضد التجاعيد. لم تكن تبحث عن إخفاء سنها، غير أن الشيخوخة لم تسبب لديها ذلك الانكماش الذي يجعل الوجه ضامراً والجسد متيبساً. طوقت بنظري الانعكاس الفضي لشعرها، وخطوط وجهها ولذراعيها الذابلتين قليلاً، وقدميها العاريتين اللتين كانتا توشكان على ملامسة جريان المتقاعس السومرا... وبسعادة غريبة أدركت أنه لم يكن هناك من حد صارم بين القماش المزهر لفستانها، والظل المبقع للشمس. وكان محيط حدود جسدها يتلاشى خفية في إشراقة الجو، وعيناها مثل رسم مائي تمتزجان بألق السماء الحار، وحركة أصابعها التي تقلب الأوراق تنسج في تموّج فروع الصفصاف الطويلة... كان هذا الانصهار إذاً هو الذي يخفي غموض جمالها!

أجل، فوجهها وجسدها لا يتغضنّان خشية وصول الشيخوخة، ولكنهما يشبعان من الريح المشمسة وروائح السهب الحريفة، ومن

نضارة أشجار الصفصاف. وكان حضورها قد أضفى تناسقاً عجيباً على تلك الصحراء المترامية الأطراف. وكانت شارلوت هناك في رتابة التل الذي أحرقته الحرارة، وأخذ يتشكل تناغم غير قابل للإدراك: خرير التيار الشجيّ، ورائحة الصلصال الرطب اللاذعة، وعبق الأعشاب الجافة المبهّر، وتعاقب الضوء والظل تحت الأغصان. كانت لحظة فريدة لا يمكن تقليدها في التتمة غير المحددة للأيام وللسنوات وللزمن.

كانت لحظة لم تمر من قبل.

اكتشفت جمال شارلوت، وفي الوقت نفسه تقريباً اكتشفت وحدتها.

كنت في ذلك اليوم حيث كانت مستلقية عند حافة النهر، أنصت لها تتحدث عن الكتاب الذي كانت تحمله في نزهاتنا. ومنذ زلتي لم أعد أمنع نفسي عن ملاحظة الطريقة التي تستخدم بها جدتي اللغة الفرنسية مكملاً في الوقت نفسه المحادثة. كنت أقارن لغتها بلغة الكتّاب الذين قرأت لهم، ولغة الجرائد الفرنسية النادرة التي تدخل بلدنا. وكنت أعلم كل خصوصيات فرنسيتها وصيغها المفضلة، ونحوها الشخصي ومفرداتها اللغوية وحتى المظهر الزمني الذي تحمله جملها، ومسحة «الزمن الجميل»...

في تلك المرة، وإضافة إلى كل تلك الملاحظات اللغوية، خطرت ببالي فكرة مدهشة: «تعيش هذه اللغة منذ نصف قرن في عزلة تامة، ويتم التحدث بها بشكل نادر، وتهاجم حقيقة غريبة عن طبيعتها، مثل نبتة تعاند لتنمو على صخرة جرداء...». ومع ذلك فقد حافظت فرنسية شارلوت على قوة غريبة وازنة وخالصة وبشفافية الكهرمان التي

يكتسبها الخمر عندما يحفظ لوقت طويل. استطاعت تلك اللغة أن تبقى حية مقاومة عواصف ثلجية سيبيرية، والرمال الحارقة في صحراء آسيا الوسطى، وما تزال تتردد دوماً على ضفة ذلك النهر وسط السهب غير المنتهي...

وهكذا بدت أمام ناظري وحدة تلك المرأة في كل بساطتها الممزقة واليومية. خاطبت نفسي بذهول: «ليس لها من أحد لتتحدث إليه، شخص تتحدث إليه الفرنسية...». وفجأة أدركت ما يمكن أن تعنيه لشارلوت تلك الأسابيع القليلة التي كنا نمضيها معاً كل صيف. وفهمت أن اللغة الفرنسية وحياكة الجمل التي كانت تبدو لي عادية جداً تتجمد لسنة كاملة ما إن أرحل، وتعوّض باللغة الروسية، وباندعاك الأوراق، وبالصمت. تخيلت شارلوت وحيدة تمشي في الشوارع المظلمة لسارنزا المدفونة تحت الثلوج...

رأيت جدتي في اليوم الموالي تتحدث إلى غافريليتش سِكّير ساحتنا، ومثير الفضائح فيها. وكان مقعد البابوشكات فارغاً. لا شك في أن ظهور الرجل طردهن. وكان الأطفال يختبئون خلف أشجار الحور. بينما كان السكان خلف نوافذهم يتتبعون المشهد باهتمام حيث تلك الفرنسية الغريبة تجرؤ على الاقتراب من الوحش. فكرت مجدداً في وحدة جدتي. امتلأت جفوني بوخزات دقيقة: «هذه حياتها. هذه الساحة. وهذا السكير غافريليتش. وهذه الإسبة السوداء الكبيرة. وفي المقابل كل هذه العائلات المكدسة بعضها فوق بعض...». دخلت شارلوت لاهثة بعض الشيء لكنها مبتسمة، وقد غطت عينيها دموع السعادة. قالت لي باللغة الروسية وكأنها لم تملك الوقت لتمر من لغة إلى لغة أخرى:

ـ هل تعلم بأن غافريليتش حدثني عن الحرب. كان يدافع عن ستالينغراد في الجبهة التي حارب فيها والدك. غالباً ما يحدثني عن ذلك. كان يروي قصة عن معركة على ضفاف الفولكا. كانوا يقاتلون لانتزاع تل من الألمان. يقول إنه لم ير من قبل مزيجاً من الدبابات المحترقة والجثث الممزقة والدماء على الأرض. وفي المساء، وفوق ذاك التل كان رفقة حوالي اثني عشر رجلاً من الناجين الوحيدين. نزل إلى الفولكا، فقد كان عطشاناً. وهناك على الضفة رأى الماء هادئاً جداً، والرمل أبيض، والقصب وسمك المنوة التي ابثقت لدى اقترابه كما كان يحدث أيام طفولته في قريته...

كنت أنصت إليها، ولم تبد لي روسيا بلد وحدتها أكثر عدوانية من «فرنسيتها». حدثت نفسي متأثراً بأن ذلك الرجل الضخم والثمل ذي النظرة الحزينة، غافريليتش، ما كان ليجرؤ على الحديث عن أحاسيسه لأي شخص. كانوا سيضحكون كثيراً عليه: ستالينغراد والحرب، وفجأة ذلك القصب وتلك الأسماك كان لأحد في تلك الساحة لينصت إليه. هل يمكن لسكير أن يشير إلى شيء مهم؟ كان قد تحدث إلى شارلوت بثقة وبيقين من أنه سيُفهم. كانت تلك الفرنسية الشخص الأقرب إليه في تلك اللحظة من كل أولئك الذين كانوا يراقبونه آملين أن يكون هناك عرضاً مجانياً. راقبهم بعين معتمة متذمراً في داخله: «جميعهم هنا، كما في سيرك...». وفجأة لمح شارلوت تعبر الساحة حاملة كيس مؤن. اعتدل في وقفته وحيّاها. وبعد لحظة، أخذ يحكي بوجه كما لو أنه أشرق: «وهل تعلمين يا شارلوتا نوربيرتوفنا أن الأرض لم تكن أسفل أقدامنا، ولكن اللحم المفروم. لم أر شيئاً مثل ذلك منذ بداية الحرب. وفي المساء، عندما

انتهينا من الألمان، انزلقت إلى الڤولكا. وهناك. ماذا أقول لك...»

مررنا عند خروجنا صباحاً، جوار الإسبة السوداء الكبيرة، وكانت تتردد فيها أصوات كثيرة في ذلك الصباح الباكر، كنا نسمع هسيس الزيت الغالي فوق أحد المواقد، وتشاتم رجل وامرأة يتشاجران، وخليط من الأصوات، والموسيقى الآتية من عدة مذياعات... رميت شارلوت بنظرة، رافعاً حاجبي وراسماً على وجهي سيماء ساخرة. خمّنتُ من دون عناء ما ترمي إليه سيماء وجهي. لكن يبدو أن قرية النمل الكبيرة المستيقظة لم تثر اهتمامها.

ولم تتحدث إلا عندما أخذنا طريقنا في السهب. قالت بالفرنسية:

ـ أحضرت دواءً هذا الشتاء إلى فروسيا الطيبة، تلك البابوشكا. هل تعلم أنها تكون أول الفارات عندما يظهر غافريليتش... كان البرد قارساً ذلك اليوم. عانيت كثيراً لأفتح باب إسبتهم...

تابعت شارلوت حديثها، في حينِ أحسست باندهاش متزايد إذ لم تتأثر كلماتها البسيطة بالأصوات، وبالروائح، وبالأضواء المحجوبة بضباب البرد القارس... رجت المقبض، وفتح الباب محطماً إطاراً من الجليد، ومحدثاً صريراً قوياً. ألفت نفسها داخل المنزل الخشبي الكبير أمام درج سوّدته الأيام. وكانت الدرجات تصدر أنيناً متذمراً تحت أقدامها. وكانت الممرات ملأى بالخزائن العتيقة، وتكدست صناديق كرتونية كبيرة على طول الجدران، واخترقت الدراجات الهوائية ومرايا مطفأة ذلك المكان الكهفي مانحة رؤية غير متوقعة. وكانت رائحة الخشب المحترق تحلق بين الجدران المظلمة، واختلطت بالبرد الذي حملته شارلوت في ثنيات معطفها... وعند طرف ممر في الطابق الأول رأتها جدتي. كانت شابة تحمل وليداً بين

ذراعيها وتقف قرب نافذة غطتها حلزونيات الثلج، ومن دون أن تتحرك، كانت تميل برأسها قليلاً وترنو إلى تراقص اللهيب داخل باب مفتوح لمدفأة كبيرة تحتل زاوية الممر. وخلف النافذة المغطاة بالمُلاّح، كان غسق الشتاء الأزرق الصافي ينطفئ...

صمتت شارلوت للحظة، ثم عادت لتقول بصوت متردد بعض الشيء:

ـ كان ذلك وهماً بالطبع كما تعلم... غير أن وجهها كان شاحباً جداً ورقيقاً... حتى ليمكن القول إنها الورود الثلجية نفسها التي تغطي الزجاج. أجل، كما لو أن ملامحها انفصلت عن تزيينات الملاح. لم يسبق لي أبداً أن رأيت جمالاً بمثل تلك الهشاشة. أجل، تماماً مثل أيقونة رُسمت على الجليد...

مشينا طويلاً صامتيْن، وامتد السهب ببطء أمامنا مع صرير زيزالحصاد، غير أن الصوت الخشن والحرارة لم يمنعاني من أن أحفظ في رئتيّ الهواء البارد للإسبة السوداء الكبيرة. رأيت النافذة المغطاة بالملاح، ولمعاناً البلور الأزرق، والشابة مع وليدها. تحدثت شارلوت بالفرنسية. اقتحمت اللغة الفرنسية تلك الإسبة التي أخافتني دوماً بحياتها المظلمة والواطئة والروسية جداً. وفي أعماقها أضاءت نافذة. أجل، تحدثت باللغة الفرنسية. كان يمكنها أن تتحدث باللغة الروسية، وما كان ذلك ليأخذ شيئاً من اللحظة التي خلقت من جديد. وإذن توجد هناك لغة وسيطة. لغة كونية! فكرت مجدداً في «بين اللغتين» التي اكتشفتها بفضل زلتي، وبفضل «لغة الدهشة»...

في ذلك اليوم، ولأول مرة، خطرت ببالي هذه الفكرة المشجعة: «ماذا لو أمكننا أن نعبّر عن هذه اللغة كتابة؟»

بعد ظهر أحد الأيام، وبينما كنا على ضفة السومرا، فاجأت نفسي

أفكر في موت شارلوت، أو بالأحرى، فكرت في استحالة موتها. . .

كانت الحرارة قاسية بشكل خاص في ذلك اليوم. نزعت شارلوت حذاءها الرياضي وأخذت تتجول في الماء رافعة فستانها حتى ركبتيها. اعتليت إحدى الجزر الصغيرة، ورحت أنظر إليها تمشي على امتداد النهر. ومرة أخرى، اعتقدت أني أرقبها وذاك النهر برماله البيضاء والسهب كما لو أن الأمر يحدث من مسافة بعيدة جداً. أجل، كنت كما لو أني معلّق في سلة منطاد. هكذا تلاحَظ (وعلمت ذلك بعد وقت طويل) الأمكنة والوجوه التي نضعها من غير وعي في الماضي. أجل، كنت أنظر إليها من ذلك العلو الوهمي، من ذلك المستقبل الذي تنزع إليه كل قواي الفتية. كانت تمشي في الماء بلامبالاة مراهقة حالمة. وبقي كتابها على العشب مفتوحاً تحت أشجار الصفصاف. فجأة، وفي صدى لامع واحد، أعدت رؤية كل حياة شارلوت. كانت أشبه بخفقة أعقبت البرق، حيث فرنسا في بداية القرن وسيبيريا والصحراء، وما لا نهاية له من الثلوج مرة أخرى، والحرب، وسارنزا. . . لم تتوفر لي قبل ذلك فرصة لفحص حياة شخص حي. وهكذا، ولما تأملتها من بدايتها إلى نهايتها، قلت: انتهت تلك الحياة، ولن يكون هناك شيء آخر في حياة شارلوت خلا سارنزا، وذلك السهب والموت.

انتصبت فوق جزيرتي الصغيرة. وحدقت إلى تلك المرأة التي تمشي ببطء في نهر السومرا. وبسعادة مبهمة نفخت رئتي فجأة، ثم همست: «كلا، لن تموت». أردت أن أعرف سريعاً مصدر ذلك الضمان الصافي، وتلك الثقة الغريبة جداً، خاصة في تلك السنة التي عرفت وفاة والديّ.

لكن بدل البحث عن تفسير منطقي رأيت مداً من اللحظات تجري

في فوضى متألقة، حيث صبيحة مفعمة بضباب مشمس في باريس متخيلة، وريح بعبق الخزامى تقتحم إحدى العربات، وصرخة الكوكوشكا في الهواءِ المسائي الفاتر، واللحظة البعيدة لتساقط أولى حبات الثلج التي دوّخت رؤيتها شارلوت في تلك الليلة الرهيبة من ليالي الحرب، وأيضاً تلك اللحظة عينها، حيث تلك المرأة الرقيقة بغطاء أبيض على شعرها الرمادي. امرأة تتجول خفية في المياه الصافية لنهر يجري وسط سهب بلاحدود. . .

بدت لي تلك الظلال عابرة ومحملة نوعاً ما بالأبدية في آن. أحسست ثقة مثملة، فقد كانت تجعل من موت شارلوت بطريقة غامضة ضرباً من ضروب المستحيل. خمنت أن اللقاء في الإسبة السوداء مع الشابة قرب النافذة المغطاة بالمُلاّح كانت أيقونة على الجليد! وحتى قصة غافريليتش، حيث القصب وسمك البلعوط في إحدى أمسيات الحرب. أجل، ساهمت اللمحتان الخاطفتان من النور في استحالة الموت تلك. والأروع هو أنه لم تكن هناك أية حاجة لإظهار ذلك، ولتفسيره ولتبريره. كنت أنظر إلى شارلوت تصعد الضفة لتجلس في مكانها الأثير تحت أشجار الصفصاف، وأخذت أكرر لنفسي مثل حتمية مشرقة: «كلا، لن تختفي كل هذه اللحظات أبداً. . .»

عندما وصلت جوارها، رفعت جدتي عينيها وقالت لي:

ـ هل تعلم أني نسخت لك هذا الصباح ترجمتي قصيدتين لبودلير؟ سأقرأهما لك. سيمتعك ذلك. . .

ولما كنت معتقداً بأن الأمر سيتعلق بدراسة الأساليب الغريبة التي كانت شارلوت تحب أن تكشف عنها في قراءاتها من أجلي، وغالباً على شكل

أحجية، فقد فكّرت ملياً راغباً في إظهار ثقافتي الأدبية الفرنسية. ولم أكن أستطيع حتى افتراض أن قصيدة بودلير تلك ستكون بالنسبة إلي خلاصاً حقيقياً.

صحيح أن المرأة على امتداد أشهر فصل الصيف كانت مفروضة على كل حواسي مثل استبداد لاينقطع. ومن دون أن أدري ذلك، كنت أعيش التحول الأليم الذي يفصل بين أول ممارسة للحب الجسدي التي غالباً ما يخطط لها إلى حد ما، وتلك الممارسات التي ستعقبه. وهذا العبور أكثر لذة في بعض الأحيان من الانتقال من البراءة إلى أول جسد أنثوي.

وحتى في ذلك المكان المهلك للنفس الذي هو سارنزا، كانت تلك المرأة المركبة الفارة والمتعددة، حاضرة بشكل غريب. كانت أكثر نفاذاً وأكثر حذراً تماماً مثل المدن الكبرى، ولكن مستفزة بشكل أكبر. مثل تلك الفتاة على سبيل المثال، التي سأقابلها يوماً في شارع فارغ ومغبّر وملتهب بفعل الشمس. كانت ممشوقة القوام بشكل مثالي، وتتمتع بتلك المتانة الجسدية المعهودة في الضواحي. وكان قميصها الطويل يشد صدراً قوياً ومدوّراً. وكانت تنورتها القصيرة تخط ردفها الممتلئ. وجعل كعبا حذاءيها الأبيضين المصبوغين مشيتها مشدودة بعض الشيء. وقد منح لباسها الذي يتماشى مع الموضة، وتبرجها، وتلك المشية المهتزة، ظهورها في الشارع الخالي تماماً حداً يتجاوز الواقع، ولا سيما امتلاؤها الجسدي الزائد وحركاتها الأقرب للحيوان! بعد ظهيرة ذلك اليوم حيث الحرارة الخرساء، في تلك المدينة الصغيرة الساكنة من أجل أي هدف؟ لم أستطع منع نفسي من إلقاء نظرة خاطفة وعابرة خلفي: أجل، ربلتيْ

ساقيها القويتين الملمعتين بالاسمرار، ووركيها، ونصفي كرتين ردفها الذي يهتز بشكل مرن مع كل خطوة. حدثت نفسي مذهولاً بأنه يوجد حتماً في سارنزا الميتة تلك غرفة وسرير حيث ستتمدد صاحبة ذلك الجسد الذي سيستقبل جسداً آخر عبر ثنية الفخذ، فاسحة ساقيها. ألقتني تلك الفكرة البديهية في عمق حيرة من دون حدود. ذلك أن كل ذلك كان طبيعياً ولا يصدق في آن!

إضافة إلى تلك الذراع الأنثوية العارية والممتلئة التي ظهرت بإحدى النوافذ، في شارع صغير ذي انحدار مملوء بالأوراق الثقيلة، والساكنة. وتلك الذراع شديدة البياض، شديدة الامتلاء والمكشوفة حتى الكتف، والتي تموجت بضع ثوان، هي الوقت الكافي لسحب ستارة الموسلين في عتمة الحجرة. ولست أدري بأي تخمين تعرفت إلى فقدان الصبر الحماسي بعض الشيء الذي تعبّر عنه تلك الحركة، وحسبت أني أدركت على أي داخل سحبت الستارة تلك الذراع الأنثوية العارية... حتى إني أحسست الرطوبة الملساء لتلك الذراع على شفتي.

في كل لقاء من تلك اللقاءات كان يلح عليّ نداء مُلحّ: ينبغي الإسراع في إغراء أولئك المجهولات، وجعلهن لي، وملء أجسادهن بحفنة أجساد حالمة، ذلك أن كل فرصة تفوت تعتبر هزيمة وخسارة لا يمكن تعويضها، وفراغاً لن تتمكن الأجساد الأخرى من ملئه إلا بشكل جزئي، في تلك اللحظات تصير الحمّى التي تصيبني لا تُحتمل!

لم أجرؤ أبداً على التطرق إلى ذلك الموضوع مع شارلوت أو حتى أن أحدثها عن المرأة المشطورة نصفين في القارب، أو عن ليلتي مع

الفتاة الراقصة الثملة. هل خمّنت وحدها اضطرابي؟ بكل تأكيد، فمن دون التمكن من تخيّل تلك الباغية التي تمت رؤيتها من خلال الكوّات، أو الصهباء الشابة فوق المُعدّية العتيقة، كانت تحدّد، كما بدا لي وبكثير من الدقة، «حيث كنت» في تجربتي العاطفية. كنت أرسم شخصيتي كعاشق متعلم بطريقة غير واعية، عن طريق أسئلتي، وعن طريق تهربي، وبلامبالاتي الخادعة إزاء بعض المواضيع اللذيذة، وحتى بصمتي، غير أني لم أنتبه مثل من نسي أن ظله يُظهر على جدار الحركات التي أراد إخفاءها.

وهكذا عند سماعي لشارلوت تتحدث عن بودلير اعتقدت بأن ذلك يعود إلى مصادفة عادية عندما ظهر الوجود الأنثوي عند المقطع الأول لقصيدته:

عندما تغمض العينان في ليلة خريف ساخنة
أتنسم رائحة نهدك الحار
وأرى انبساط سواحل سعيدة
تتألّق بنيران شمس رتيبة...

واصلت جدتي في مزيج من اللغتين الروسية والفرنسية، إذ كان عليها أن تتلو نصوص الترجمة:

- أترى، عند بريسوف كانت ترجمة البيت الأول كالتالي: *في ليلة خريف، حيث عينان مغلقتان... إلخ*. ولدى بالمون كانت على الشكل التالي: *عندما كنت مغمضاً عينيّ في ليلة صيف خانقة...* وبحسب رأيي، فقد كانا معاً يبسطان بودلير، لأنه، ففي قصيدته، واعلم ذلك، «هذه الليلة الخريفية الحارة» هي لحظة خاصة جداً.

أجل، في وسط فصل الخريف. فجأة، ومثل نغمة، تأتي تلك الليلة الحارة الفريدة وفاصلة من نور وسط الأمطار ومآسي الحياة. وفي ترجمتيهما خانا فكرة بودلير: «ليلة خريفية»، «ليلة صيفية». هذا سطحي ومن دون روح. بينما لديه، تجعل تلك اللحظة السحر ممكناً، تعلم، تقريباً مثل تلك النهارات اللطيفة أواخر الفصل. . .

وكانت شارلوت تطور تعليقها دوماً مع ذلك الانفعال المحاكى قليلاً والذي يخفي معارف واسعة جداً لديها، وتخشى أن تظهرها بإباء. غير أني لم أكن أنصت إلا للحن صوتها الذي كان تارة باللغة الروسية وتارة أخرى باللغة الفرنسية.

بدلاً من الوسواس بالجسد الأنثوي، أحسست بارتياح عميق، لتلك المرأة الحاضرة دوماً، والتي تراودني بتعددها الذي لا ينضب. كانت بشفافية «ليلة خريفية حارة»، وصفاء تأمل بطيء، وحزين تقريباً لجسد أنثوي جميل ممدد في حالة التعب البهيج للحب. وذاك الجسد الذي ينتشر انعكاسه الشهواني في توال لعمليات تذكر مبهمة، وروائح وأنوار. . .

جاش النهر قبل أن تصل العاصفة إلى مكاننا. اهتززنا في مكانينا عند سماعنا للتيار يهدر عند أغصان أشجار الصفصاف. وصارت السماء بنفسجية وسوداء، وأضحى السهب ثائراً متجمداً، وحاجباً المناظر الدكناء، و نفذت إلينا رائحة لاذعة وحامضة مع نداوة المزن الأولى. أنهت شارلوت عرضها وهي تطوي المنشفة التي أكلنا فوقها حين قالت:

ـ لكن في النهاية، وعند آخر بيت هناك مفارقة حقيقية في الترجمة. فبرسيوف تجاوز بودلير! أجل، فقد تحدث بودلير عن

«غناء البحارة» فوق تلك الجزيرة المولودة من «رائحة نهدك الحار» بينما، عندما ترجمها برسيوف سمع «أصوات البحارة يصرخون بلغات مثيرة». وما كان مدهشاً، هو أن اللغة الروسية كان بإمكانها منح المعنى بنعت واحد. فذلك الصراخ بلغات مختلفة أكثر حياة من «غناء البحارة» والذي ينبغي الاعتراف بأنه يتضمن رومنسية بلطف متكلف بعض الشيء. رأيت. هذا ما قلناه ذلك اليوم من أن مترجم النثر هو عبد لكاتبه، بينما مترجم الشعر منافس لناظمه. من جهة أخرى وفي قصيدته. . .

ولم يكن لديها الوقت لإنهاء جملتها. فقد كان الماء يجري تحت قدمينا حاملاً معه ملابسي وبعض الأوراق وحذاء شارلوت الرياضي. وأخذت السماء المملوءة بالمطر تنهار على السهب. وهرعنا لإنقاذ ما يمكننا إنقاذه. أمسكت سروالي وقميصي الطافيين وقد علقا بأغصان أشجار الصفصاف، واصطدت حذاء شارلوت الرياضي بمهارة، ثم الأوراق. وكانت الترجمات المنسوخة التي أحالتها المياه سريعاً إلى كريات صغيرة ملطخة بالمداد. . .

ونتيجة لخوفنا لم نلحظ بأن ضوضاء العاصفة المصمة طردت بعنفها كل فكرة، وأن أعمدة الماء عزلتنا في الحدود المرتعدة لأجسادنا. أحسسنا بالحدة التي تملكت قلبينا العاريين الغارقين في ذلك الطوفان الذي خلط السماء بالأرض.

دقائق بعد ذلك أشرقت الشمس. ومن قمة الضفة تأملنا السهب المضيء والمرتجف بألف شرارة متقزحة. بدا وكأنه يتنفس. تبادلنا نظرة باسمة. كانت شارلوت قد فقدت خمارها الأبيض، فبدا شعرها المبلل بضفيرتين سمراوين على كتفيها. ولمع حاجباها بقطيرات

المطر. والتصق فستانها المبلل جداً بجسدها. «إنها شابة، وجميلة جداً على الرغم من كل شيء» تردد بداخلي ذلك الصوت اللإرادي الذي لا يطيع، والذي يضايق بصرامته من دون زخرفة، لكنه يعلن ما تراقبه الكلمات المفكر فيها.

توقفنا أمام ردم خطوط السكة الحديد. وتراءى في البعيد قطار بضائع طويل يقترب. وكان القطار اللاهث يتوقف هناك في الغالب معيقاً لفترة قصيرة ممرنا. وكان العائق الذي تتحكم فيه بلا شك آلة تحويل القطار أو ملوحة يمتّعنا. وكانت العربات تقف كأنها جدار ضخم وقد غطاها الغبار. وكانت موجة حرارة كثيفة تصدر عن حواجزها المعرّضة للشمس. ومن البعيد، كان أزيز القاطرة وحده من يكسر صمت السهب. وفي كل مرة كان يجتاحني حس المغامرة بألا أنتظر انطلاقته لأعبر السكة الحديد زاحفاً تحت العربات، كانت تمنعني شارلوت قائلة أنها سمعت لتوّها صفيره. وأحياناً عندما يصير انتظارنا طويلاً جداً نصعد المحمل المفتوح الذي كان موجوداً في ذلك العهد في قطارات البضائع، لنخرج من الجهة الأخرى لخط السكة الحديد. وكانت تلك اللحظات القصيرة مليئة بإثارة بهيجة.

ماذا لو أن القطار انطلق وأخذنا معه إلى وجهة أسطورية مجهولة؟

وما كان بإمكاننا الانتظار تلك المرة. فقد كنا مبلولَيْن، وكان علينا العودة قبل حلول الليل. قفزت أولاً، ومددت يدي إلى شارلوت التي صعدت على المدرجة. وفي تلك اللحظة بالضبط اهتز القطار، وعبرنا المسطحة عدواً. كان بإمكاني أن أقفز، ولم يكن ذلك بمقدور شارلوت ذلك... وهكذا بقينا أمام فرجة الباب التي كانت تُملأ بريح تزداد قوة شيئاً فشيئاً. وأخذ أثر معبرنا يتلاشى أمام

شساعة السهب.

كلا، لم نكن قلقيْن. كنا ندرك أن مسار قطارنا سيتوقف في محطة أخرى. حتى أن شارلوت بدت لي سعيدة نوعاً ما بمغامرتنا غير المتوقعة تلك. كانت تنظر إلى السهل الذي أجّجته العاصفة. وكان شعرها يتماوج بفعل الريح، وينثر على وجهها. وكانت تبعده بين الفينة والأخرى بحركة سريعة. وعلى الرغم من سطوع الشمس كانت زخات مطرية رقيقة جداً تهطل أحياناً. وكانت شارلوت تبتسم في وجهي من خلال ذلك الحجاب اللامع.

وكان ما حدث فجأة على تلك المسطحة المتأرجحة وسط السهب أشبه باندهاش طفل يكتشف بعد ملاحظة عبثية طويلة في الخطوط المتشابكة رسماً لشخصية أو لشيء مخفي. كان ينظر إليه، ويرى الخطوط المتعرجة للرسم تكتسب معنى جديداً، وحياة جديدة...

كذلك الشأن بالنسبة لرؤيتي الداخلية. ففجأة، رأيت! أو بالأحرى أحسست بكل جوارحي الرابط المضيء الذي يوحّد تلك اللحظة المليئة بالبريق المتقزح بلحظات أقمت فيها في الماضي. فتلك الليلة البعيدة مع شارلوت، والصراخ الحزين للكوكوشكا، ثم ذلك الصباح الباريسي المغلف بخيالي وبضبابة مشمسة، وتلك اللحظة الليلية على الطوف رفقة حبيبتي الأولى عندما أمالت الباخرة الكبرى جسدينا المتعانقين، وسهرات طفولتي التي عشتها كما يبدو، في حياة أخرى... ولما كانت موثوقة على ذلك النحو فقد شكلت تلك اللحظات عالماً متفرداً بوتيرته الخاصة، وبريحه وبشمسه الخاصتين. كوكب حيث تصير وفاة تلك المرأة ذات العينين الرماديتين الكبيرتين شيئاً لا يُعقل، وحيث ينفتح الجسد الأنثوي على تلاحق اللحظات

الحالمة، وحيث تغدو لغة الدهشة الخاصة بي مفهومة من قبل الآخرين.

حتى أن ذلك الكوكب كان العالم الذي يمتد في مسار قطارنا. أجل، تلك المحطة حيث توقف القطار في النهاية، وذلك الرصيف الخالي نفسه والذي بلّه وابل الأمطار، وأولئك المارة القلائل بهمومهم المعتادة، وذلك العالم نفسه غير أنه يُنظر إليه بطريقة مختلفة.

حاولت وأنا أعين شارلوت على النزول أن أحدد «بشكل مختلف». أجل، فمن أجل رؤية ذلك الكوكب الآخر كان يلزم أن يتم التصرف بطريقة متفردة. ولكن كيف؟

خاطبتني جدتي قائلة وهي تنتزعني من بحر من أفكاري:

ـ تعال، سنذهب لنأكل شيئاً.

ثم قصدت المطعم في أحد أجنحة المحطة.

كانت القاعة فارغة والطاولات أيضاً إذ كانت بدون فراش وملاعق وسكاكين وشوكات. جلسنا قرب النافذة المفتوحة التي تسمح لنا برؤية ساحة تحفّها الأشجار. وعلى واجهات العمارات كنا نرى لافتات طويلة من الكليكوت بشعاراتها المعهودة الممجدة للحزب وللوطن وللسلام... تقدم نحونا نادل ليعلن بصوت كئيب أن العاصفة حرمتهم من الكهرباء، وبالتالي فإن المطعم مقفل. أردت أن أقوم غير أن شارلوت أصرّت بأدب معزز بصياغاته الفرنسيةالقديمة يؤثر دوماً في الروس. تردد الرجل للحظة قبل أن يغادر وقد بدت الخيبة على ملامحه.

أحضر لنا طبقاً مدهشاً في بساطته، حيث ضم صحن حوالي اثنتي

عشرة كرية من السجق، وخيارة كبيرة مملحة قطعت إلى فصيلات دقيقة. ولكن على الخصوص، حين وضع أمامنا قنينة خمر. لم أتناول قط عشاءً مماثلاً. وحتى النادل بدا أنه اخترق الجانب الغريب في الثنائي الذي كنّاه، وغرابة تلك الوجبة الباردة، وابتسم وغمغم بعض الملاحظات حول الجو كما ليعتذر عن طريقة استقبالنا.

بقينا وحيدين في القاعة. وكانت الريح التي تدخل من النافذة تحمل رائحة الأوراق المبللة. وكانت السماء قد تدرجت إلى سحب رمادية وبنفسجية مضاءة بشمس تغرب. وبين الفينة والأخرى كانت عجلات إحدى السيارات تصدر صريراً على الإسفلت المبلل. وكانت كل رشفة خمر تمنح تلك الأصوات وتلك الألوان كثافة جديدة حيث ثقل الأشجار الندي، وزجاج النوافذ اللامع الذي نظفته الأمطار، واللون الأحمر في الشعارات على الواجهات، والصرير الرطب للعجلات، وتلك السماء التي ما تزال صاخبة. أحسست بأن كل ما نعيشه في تلك القاعة الفارغة ينفصل شيئاً فشيئاً عن تلك اللحظة، وعن تلك المحطة، وعن تلك المدينة المجهولة وعن حياتها المعتادة...

أوراق ثقيلة، وبُقع حمراء طويلة على الواجهات، والأسفلت المبلل، وصرير إطارات العجلات، وسماء رمادية بنفسجية. استدرت إلى شارلوت ولم تكن هناك...

لم يعد ذاك المطعم في محطة مفقودة داخل السهب، بل كان مقهى باريسي ـ وكان خلف الزجاج مساء ربيعي، حيث السماء الرمادية البنفسجية ما تزال عاصفة، وصرير السيارات على الأسفلت المبلل، والطراوة الغزيرة لأشجار الكستناء، واللون الأحمر لستائر المطعم

الذي يقع في الجانب المقابل من الساحة. وأنا، بعد عشرين سنة، أنا، الذي تعرفت لتوّي على تسلسل الألوان، وأعاود عيش دوخة اللحظة التي عادت لتوجد. كانت قبالتي شابة تتحدث بلطف فرنسي جداً عن لا شيء. نظرت إلى وجهها المبتسم، وكنت بين لحظة وأخرى أنسق وتيرة كلماتها بهزات من رأسي. تلك المرأة قريبة جداً مني. أحب صوتها، وطريقة تفكيرها، وأعرف تناسق جسدها...
«ماذا لو حدثتها عن تلك اللحظة التي حدّثت قبل عشرين سنة في قلب السهب، في تلك المحطة الفارغة؟» كذاك حدثت نفسي وأنا أعلم بأني لن أفعل ذلك.

في تلك الأمسية البعيدة، قبل عشرين سنة، قامت شارلوت، وعدلت شعرها ناظرة في انعكاس النافذة المفتوحة، ثم رحلنا. وانمحت من علي شفتي اللتين كانتا تحملان حموضة الخمر الجميلة تلك الكلمات التي ما كنت لأجرؤ أبداً على قولها: «إذا كانت ما تزال جميلة على الرغم من شعرها الأبيض، وكل تلك السنوات التي عاشتها، فلأنه من خلال عينيها، ووجهها، وجسدها، تظهر كل لحظات النور والجمال تلك...»

خرجت شارلوت من المحطة. تبعتها ثملاً باكتشافي الذي يصعب وصفه. وكان الليل قد نثر أرديته على السهب. الليل الذي دام عشرين سنة في سارنزا طفولتي.

رأيت شارلوت بعد عشر سنوات خلال بضع ساعات قُبيل سفري إلى الخارج. وصلت في وقت متأخر جداً من الليل. وكان عليّ الرحيل في الصباح الباكر إلى موسكو. كانت ليلة من ليالي نهاية فصل الخريف المتجمدة، اختزلت لشارلوت الذكريات القلقة لكل

رحيل شهدته حياتها، وكل ليالي الوداع... لم ننم. ذهبت لتعد الشاي، أما أنا فرحت أتجول في شقتها التي بدت لي بشكل غريب صغيرة، ومؤثرة بوفائها بالأشياء المعتادة.

كنت أبلغ من العمر خمساً وعشرين سنة، وكان سفري يبعث في نفسي الحماسة. وكنت أعلم بأني سأرحل لفترة طويلة، أو بالأحرى أن مقامي بأوروبا سيمتد أكثر بكثير من الأسبوعين المقررين. بدا لي أن رحيلي سيهز هدوء إمبراطوريتنا المخدرة حتى إن كل سكانها لن يتحدثوا إلا عن فراري، وأن عهداً جديداً سيفتح مع أول حركة لي، ومع أول كلمة ألفظها على الجانب الآخر من الحدود. كنت أعيش قبل ذلك على عرض للوجوه الجديدة التي سأقابلها، ولمعان المناظر التي حلمت بها، وإثارة الخطر.

قلت لها بأنانية الشباب المتبجحة، ونبرة مرحة بعض الشيء:

ـ لكن يمكنك أن تذهبي أنت أيضاً إلى الخارج! إلى فرنسا مثلاً... ألا يغريك ذلك؟

لم تتغير سيماء وجهها. خفضت عينيها فقط. وسمعت صفير الغلاية المنغم، ورنين شظايا الثلج البلورية على الزجاج الأسود.

وأخيراً قالت بابتسامة تعبة:

ـ هل تعلم بأني ذهبت سنة ١٩٢٢ إلى سيبيريا، وأني قمت بنصف الرحلة أو ثلثها على الأقل راجلة؟ كان ذلك مثل المسافة من هنا حتى باريس! أترى، لم أكن بحاجة حتى إلى طائراتكم...

وابتسمت مجدداً، وهي تنظر في عيني. لكنني على الرغم من نبرتها السعيدة لحظت في صوتها نفحة مرارة عميقة. ولما تملكتني

الحيرة التقطت سيجارة وخرجت إلى الشرفة. . .

هناك، فوق ظلمة السهب المثلجة، خلت أني فهمت أخيراً ما تعنيه فرنسا لها.

الفصل الرابع

[١]

في فرنسا كدت أنسى، بصفة نهائية، فرنسا شارلوت. . .

كانت عشرون سنة تفصلني عن زمن سارنزا، في فصل الخريف ذاك. أدركت تلك المسافة حيث «عشرون سنة بعد ذلك» السحرية. وفي اليوم الموالي، وهو اليوم الذي بثّت فيه محطتنا الإذاعية آخر برنامج لها باللغة الروسية. وفي المساء، عندما كنت أغادر قاعة التحرير تخيلت مداً لا نهاية له متثائباً بين تلك المدينة الألمانية والمدينة الروسية النائمة تحت الثلوج. انطفأ كل ذلك المكان المظلم حيث ترددت أصواتنا بالأمس فقط، في تلك اللحظة كما يبدو لي، في الصرير الأخرس للموجات الفارغة. . . وكنا قد أدركنا هدف برامجنا المنشقة والهدّامة. فالإمبراطورية تستيقظ منفتحة على باقي العالم. كان ذلك البلد على وشك أن يغيّر اسمه ونظام حكمه وتاريخه وحدوده. سيولد بلد آخر. ولم يعد أحد في حاجة إلينا. تقفل المحطة. ويتبادل زملائي وداعاً صاخباً وحاراً بشكل مصطنع، ليذهب كل إلى وجهته. أراد بعضهم تأسيس حياتهم في المكان عينه، في حين حزم الآخرون حقائبهم وقصدوا أميركا، وآخرون من الأقل

واقعية كانوا يحلمون بعودة ستقودهم تحت العاصفة الثلجية لما قبل عشرين سنة... لم يكن أحد متوهماً. فقد كنا نعلم أن ما يختفي لم يكن إذاعية فقط، ولكن زمننا نحن أيضاً. فكل ما قلناه، وكل ما كتبناه، وكل ما فكرنا فيه، وكل ما قاتلنا من أجله، وكل ما دافعنا عنه، وكل ما أحببناه، وكل ما كرهناه، وكل ما خشيناه، كل ذلك كان ينتمي إلى ذلك الزمن. وبقينا أمام ذلك الفراغ، مثل شخصيات من شمع في خزانة تثير الفضول، وحيث بقايا إمبراطورية ميتة.

حاولت وأنا على متن القطار الذي أخذني إلى باريس أن أمنح اسماً لتلك السنوات البعيدة في سارنزا. هل يكون منفى كطريقة حياة، أم حاجة بليدة للعيش، أم حياة تم العيش بنصفها وخلاصة القول أنها أفسدت؟ وبدا لي معنى كل تلك السنين مظلماً. حاولت إذن تحويلها إلى ما يعتبره الإنسان قيمة ثابتة في حياته، حيث ذكريات غربة شديدة وأجساد النساء العاشقات («من هناك رأيت العالم كله!» كذاك حدثت نفسي بفخر طفولي)...

غير أن الذكريات ظلت باهتة، وبقيت الأجساد جامدة على نحو غريب، أو أنها تخرق أحياناً غبش الذاكرة بإصرار تافه لعيني عارضة أزياء.

كلا، لم تكن تلك السنوات رحلة طويلة نجحت خلالها بين الفينة والأخرى في إيجاد هدف ما، اخترعته في لحظة الانطلاق أو عندما كنت في الطريق، أو حتى عند الوصول، عندما كان يتعيّن تفسير وجودي في ذلك اليوم، وفي تلك المدينة، وفي ذلك البلد عوض بلد آخر.

أجل، سفر من لا مكان إلى البعيد. وما إن يشرع المكان حيث

أتوقف بالتعلق بي، ويشدني برتابة أيامه اللطيفة إلا تحتّم عليّ أن أرحل. و لم يكن ذلك السفر يعرف إلا زمنين، زمن الوصول إلى مدينة مجهولة، وزمن الانطلاق إلى مدينة حيث تأخذ الواجهات في الارتعاش تحت النظر. . . وصلت قبل ستة أشهر إلى ميونيخ، وعند خروجي من المحطة، حدثت نفسي بكثير من الحس العملي بأنه يتوجب عليّ إيجاد فندق، ومن بعد شقة تكون أقرب إلى عملي الجديد في الإذاعة. . .

تملكني في أحد الصباحات في باريس وهمٌ شارد لعودة حقيقية. ففي شارع غير بعيد عن المحطة، وكان شارعاً لم يستيقظ تماماً في تلك الصبيحة الضبابية، رأيت نافذة مفتوحة، ووسط حجرة تتنفس هدوءاً بسيطاً واعتيادياً، غير أنه كان بالنسبة لي غامضاً، بمصباح مضاء على طاولة، وصوان قديم من الخشب القاتم، ولوحة منفصلة قليلاً عن الجدار. تملكتني قشعريرة لشدة فتور تلك الحميمية التي رأيتها، والتي بدت لي بغتة قديمة ومألوفة، حيث صعود السلالم، وقرع الباب، والتعرف إلى وجه، ويتم التعرف إليك. . . سارعت إلى طرد إحساس اللقاء ذلك الذي لم أر به إلا ضعفاً عاطفياً لمتشرد.

نفدت الحياة سريعاً، وركد الزمن، وأضحى منذ تلك اللحظة يدرك بالحواس فقط، باستنزاف الكعبين على الإسفلت المبلل، وتوالي الضجيج الذي سيحفظ سريعاً عن ظهر قلب تماماً مثل تيارات الهواء التي تتحرك من الصباح إلى المساء في ممرات الفندق. وكانت نافذة غرفتي تطل على بناية في طور الهدم. وكان هناك جدار مغطى بأوراق الدهان ينتصب وسط الأنقاض. وكانت هناك مرآة من دون إطار مثبتة على تلك الشقة الملونة، تعكس العمق الخفيف والهارب للسماء.

وكنت كل صباح أتساءل إن كنت سأجد ذلك الانعكاس إذا ما أزحت الستارة. وأخذ ذلك التشويق الصباحي يُحدث إيقاعاً، هو أيضاً للزمن الراكد الذي أخذت أعتاد عليه شيئاً فشيئاً. وحتى فكرة وجوب إنهاء تلك الحياة في يوم من الأيام، وقطع ذلك النزر الذي يربطني بأيام الخريف تلك، وتلك المدينة، و لربما أن أقتل نفسي، وحتى فكرة مماثلة، سرعان ما أضحت عادة... وعندما سمعت في صباح أحد الأيام ضجيجاً حاداً لانهيار، ورأيت خلف الستائر فراغاً ينفث الغبار عوض الجدار، بدت لي تلك الفكرة مثل خروج مدهش عن اللعبة.

تذكرت ذلك بعد بضعة أيام... كنت جالساً على مقعد إسمنتي وسط شارع مشبع بالرذاذ، ومن خلال خدر الحمى، أحسست في داخلي ما يشبه حواراً أخرس بين طفل مذعور ورجل. وحتى الراشد الذي كان قلقاً كان يحاول طمأنة الطفل محدثاً إياه بنبرة ابتهاج مزيفة. أخبرني ذلك الصوت المشجع أنّ بإمكاني أن أقوم وأعود إلى المقهى لأشرب كأس خمر أخرى، وأن أبقى ساعة في الدفء، أو أنزل إلى رطوبة المترو الفاترة، أو حتى أحاول أن أمضي ليلة أخرى في الفندق من دون أن يكون لديّ ما أدفعه، أو عند الاقتضاء، أن أدخل إلى تلك الصيدلية عند زاوية الشارع، وأن أجلس على كرسي من الجلد من دون أن أتحرك، وأن أعتصم بالصمت، وعندما سيحضر الناس ويتجمعون حولي، سأهمس بصوت منخفض قائلاً: «دعوني وشأني دقيقة فقط في هذا الضوء وفي هذه الحرارة، سأرحل. أعدكم بذلك...».

ازداد الجو البارد في الشارع ثقلاً، ليتفتت إلى مطر رقيق ودائب. قمت. صمت الصوت المطمئن. بدا لي أن رأسي كان مغلفاً بسحابة

من القطن الحارق. تحاشيت ماراً كان يمشي ممسكاً يد طفلة صغيرة. خشيت أن أثير فزع الطفل بوجهي المستعر، وبارتعاشات البرد التي كانت تعتريني. . . ولما أردت أن أعبر الطريق صدمت حافة الرصيف، وهززت ذراعي مثل بهلوان. توقفت سيارة كادت أن تصدمني. أحسست احتكاكاً سريعاً لباب السيارة بيدي. أخذ السائق على عاتقه إنزال الزجاج، وقذفني بشتيمة. رأيت تكشيرة وجهه غير أن الكلمات وصلتني ببطء مترهل بشكل غريب. وفي اللحظة نفسها فتنتني تلك الفكرة ببساطتها: «هذا ما يلزمني. هذه الصدمة. هذا الالتقاء مع المعدن، ولكن بعنف شديد. هذه الصدمة التي تهشم الرأس، والعنق والصدر. هذه الصدمة والصمت الفوري، والنهائي». اخترقت بعض الصافرات ضباب الحمى التي تحرق وجهي، وبِسُخف، فكرت في شُرطي انخرط في مطاردتي. أسرعت في خطوي، متخبطاً على عشب مبلل. اختنقت. كسرت نظرتي إلى عدة أوجه مبتورة. اجتاحتني رغبة في أن أختفي في التراب مثل حيوان.

امتصتني البوابة المشرعة بالفراغ الضبابي لممر طويل كان يُفتح خلفها. تخيّلت أنني أسبح بين صفين من الأشجار، في الجو الباهت لنهاية اليوم. وفي الحال تقريباً امتلأ الممر بصافرات ثاقبة. سلكت ممراً أكثر ضيقاً، منزلقاً على بلاطة ملساء، وغائصاً وسط مكعبات رمادية غريبة. وأخيراً، ومن دون جهد، انزويت خلف إحداها. طنّت الصافرة للحظة قبل أن تتوقف. وفي البعيد، سمعت صرير سياج الباب. وعلى الجدار المسامي للمكعب قرأت هذه الكلمات من دون أن أدرك في الحال معناها: *امتياز مدى الحياة. الرقم. . . السنة . .١٩.*

وفي مكان ما خلف الأشجار ترددت صافرة أخرى تبعها حديث. كان هناك رجلان. حارسان يعودان من الممر.

قمت ببطء. ومن خلال تعب وخدر بداية المرض شعرت بظل ابتسامة على شفتي: «يجب أن تدخل السخرية في طبيعة أشياء هذا العالم. تماماً مثل قانون الجاذبية...»

صارت كل بوابات المقبرة مقفلة في تلك اللحظة. التفتت إلى الحجرة الجنائزية التي تركت نفسي أسقط خلفها. فُتح بابها الزجاجي بسهولة. وبدا لي داخلُها واسعاً تقريباً. وقد كانت الأرضية ما عدا الغبار وبعض الأوراق الميتة، نظيفة ويابسة. لم أعد أستطع الوقوف أكثر. جلست ثم تمدّدت بكل طولي. وفي الظلام الحالك لامس رأسي قطعة من خشب. لمسته. كان مركعاً. وضعت رقبتي على مخمله الذابل. وبدت واجهته فاترة بشكل غريب كما لو أن أحداً جثى هناك لتوّه...

لم أترك ملجئي في اليومين الأولين إلا للبحث عن الخبز ولأغتسل. كنت أعود سريعاً، فأتمدد وأغرق في خدري الحُمّي الذي تقطعه صفارات ساعة الإقفال وحدها ولدقائق فقط. وكانت البوابة الكبرى تصر وسط الضباب، قبل أن ينحصر العالم في تلك الجدران ذات الحجر المسامي، والتي كان بإمكاني لمسها إذا ما فتحت يدي على شكل صليب، وفي انعكاس زجاج الباب الكامد، وفي الصمت الذي كنت أعتقدني أنصت إليه تحت الأرضية، تحت جسدي...

وسرعان ما اختلط عليّ ما تلا من تواريخ وأيام. تذكرت فقط أنه بعد ظهر ذلك اليوم أحسست بأني أفضل قليلاً. فقد عدت إلى البيت بخطوات متثاقلة وقد غضّنت الشمس التي عادت للظهور جفني...

عدت إلى بيتي. إلى بيتي! أجل، فكرت في ذلك، وتفاجأت بأني فكرت في ذلك. فطفقت أضحك خانقاً نفسي، وأنا أسعل بشدة، ما جعل المارة يلتفتون. تقع تلك الحجرة الجنائزية القديمة العائدة لأكثر من قرن من الزمان، في جزء من المقبرة قلّما يقصده الزوّار، ذلك أنه لم تكن هناك أضرحة شهيرة جديرة بالتكريم - عندي. حدثت نفسي ذاهلاً بأني لم أستعمل تلك الكلمة منذ طفولتي...

خلال فترة بعد ظهر ذلك اليوم، وبمساعدة ضوء الشمس الخريفية التي كانت تضيء داخل بيتي، تمكنت من قراءة الكتابات على قطع الرخام المثبتة على الجدران. وكانت في الواقع مصلّى صغيراً يعود إلى عائلتي بيلفال وكاستلو. وكانت شواهد القبور المختصرة تحكي نقوشها مسار تاريخهما.

كنت ما أزال واهناً جداً. قرأت واحدة أو اثنتين من تلك الشواهد ثم جلست على البلاطة لاهثاً كما يحدث عادة بعد القيام بمجهود كبير، وقد أخذ الدوار رأسي: *ولد في السابع والعشرين من شهر أيلول لسنة ١٨٣٧ في بوردو. توفي في الرابع من شهر حزيران لسنة ١٨٨٨ في باريس.* لربما كانت تلك التواريخ هي ما أصابني بالداور. استقبلت زمنهم بحساسية شخص يهذي. *ولد في السادس من شهر آذار لسنة ١٨٤٩، ولبّى نداء ربّه في الثاني عشر من شهر كانون الأول لسنة ١٩٠١*. كانت تلك الفواصل الزمنية تُملأ بالأصوات والظلال وحركات تمزج التاريخ بالأدب. وكان دفقاً من الصور التي تؤلمني تقريباً حدّتها الحية والملموسة. وحسبت أني أسمع حفيف الفستان الطويل لتلك المرأة التي كانت تصعد عربة. كانت تجمع في تلك الحركة البسيطة الأيام الخوالي لكل أولئك النساء المجهولات اللواتي

عشن، وأحببن، وتألمن، واللواتي رأين تلك السماء، واستنشقن ذلك الهواء... وبطريقة ملموسة أحسست بجمود ذلك الوجيه الذي يضع لباساً أسود: حيث الشمس والساحة الكبرى لمدينة من مدن الإقليم، والخطابات، والرموز الجديدة المشيرة إلى الجمهورية... والحروب، والثورات، والتجمعات الشعبية، والحفلات التي تسمرت للحظة في شخصية، وفي بريق ضوء، وفي أغنية، وفي رشفة، وفي قصيدة، وفي شعور. ثم عاد الدفق ليأخذ مجراه بين لحظة الميلاد ولحظة الموت. *ولدت في السادس والعشرين من شهر أغسطس لسنة ١٨٦١ في بياريتز، وتوفيت في الحادي عشر من شهر شباط لسنة ١٩٢٢ في فانسين...*

أخذت أنتقل ببطء من شاهدة قبر إلى أخرى لأقرأ: *نقيب في خيالة الإمبراطورة. قائد فِرقة. حائز على وسام تاريخي ملحق بالجيش الفرنسي في إفريقيا وإيطاليا وسوريا والمكسيك. مُعْتَمد عسكري عام. رئيس وحدة في مجلس الدولة. أديبة. رئيس مجلس الشيوخ. ملازم أول للواء ٢٢٤ للمشاة. حاصل على وسام إكليل الحرب. مات من أجل فرنسا.* كانت أطياف إمبراطورية تألقت في الماضي في كل أنحاء العالم... أما الكتابة الأحدث فقد كانت الأقصر أيضاً حيث كتب: *فرنسواز، الثاني من شهر تشرين الثاني لسنة ١٩٥٢ ـ العاشر من شهر أيار لسنة ١٩٦٩* . ست عشرة سنة وكل كلمة أخرى كانت زائدة لا فائدة منها.

جلست على البلاط وأغلقت عيني. أحسست بداخلي كل الكثافة المرتعشة لكل تلك الحيوات، ومن دون أن أحاول صياغة فكرتي همست:

ـ أخمّن جوّ أيامهم وجوّ موتهم، وغموض تلك الولادة في بياريتز في السادس والعشرين من شهر أغسطس لسنة ١٨٦١، والفرادة العجيبة لتلك الولادة، وبالتحديد في بياريتز، في ذلك اليوم، قبل أزيد من قرن. وأحسست هشاشة ذلك الوجه الذي غاب في العاشر من شهر أيار لسنة ١٩٦٩. أحسستها مثل عاطفة عشتها بشكل عنيف... تلك الحيوات المجهولة التي كانت قريبة بالنسبة لي.

رحلت وسط الليل. لم يكن السياج الحجري مرتفعاً في ذلك المكان، غير أن أسفل معطفي علق بأحد الأسياخ الحديدية المثبتة على حافة الجدار. كدت أقع على رأسي. لمحت في الظلام عين مصباح زرقاء رسمت علامة استفهام. وقعت على طبقة سميكة من الأوراق الميتة. وبدت لي تلك السقطة طويلة جداً حد أني حسبتني أحط بمدينة مجهولة. وبدت منازلها في تلك الساعة من الليل أشبه بآثار مدينة مهجورة. وكان هواؤها مفعماً برائحة الغابة الرطبة.

أخذت أنزل شارعاً خالياً. علماً بأن كل الشوارع التي مشيت فيها كانت تنحدر كما لو أنها تدفعني عميقاً في تلك المدينة العظيمة والكثيفة. بدت لي السيارات القليلة جداً التي مرت أمامي كأنها تفر منها بأقصى سرعة سالكة الطريق باتجاه الأمام. اهتز متشرّد عند مروري من داخل صدفته الكرتونية. أخرج رأسه، وأضاءت وجهه الواجهة المقابلة له. كان رجلاً إفريقياً بعينين ثقيلتين بنوع من الجنون المقبول. وكان هادئاً. تكلم، فملت نحوه غير أني لم أفهم شيئاً. كانت بلا شك لغة بلده... وكان كرتون ملجئه مليئاً بالحروف الهيروغليفية.

أخذت السماء في الشحوب عندما كنت أعبر السين. كنت أمشي منذ فترة بخطى مُسَرْنَمة. وكانت حمى النقاهة السعيدة قد اختفت.

كنت كالمتخبّط في ظل المنازل الذي كان ما يزال كثيفاً. وكان الدوار يقوّس الأفق ويلفه حولي. وكان تكدّس العمارات على طول الرصيف وعلى الجزيرة أشبه بديكور سينمائي مظلم بعد أن أطفئت مصابيحه. ولم أعد أستطيع معرفة سبب تركي للمقبرة.

وعندما كنت على الجسر الخشبي التفت عدة مرات. اعتقدت أني أسمع خطوات تتردد خلفي، أو خفقان الدم بصدغيّ. وأضحى صداها يُسمع أكثر عند شارع منحن أخذني تماماً مثل مزلقة. ارتددت، ذلك أني تصورت أني لمحت جسد امرأة بمعطف طويل ينزلق أسفل قبو. بقيت واقفاً خائر القوى مستنداً إلى جدار. وأخذ العالم يتجزأ، وانهار الجدار تحت ثقل راحتي، وسالت النوافذ على واجهات المنازل الشاحبة.

وكما لو أن الأمر تم بفعل السحر، ظهرت تلك الكلمات المحفورة على لوحة معدنية مسودّة. تعلّقت برسالتها: رجل مستعد لأن يغرق سكراً أو جنوناً، يتشبَّث بحكمة ذات منطق عادي، ولكنه ناجح، تبقيه في هذا الجانب من الأشياء... كانت اللوحة مثبتة بعلوّ متر عن الأرض. وقرأت ثلاث أو أربع مرات ما كتب عليها.

فيضان. كانون الثاني سنة ١٩١٠

... لم تكن مجرد ذكرى، بل الحياة نفسها. كلا، لم أكن أعاود العيش بل كنت أعيش. كانت أحاسيس متواضعة جداً في ظاهرها، حيث حرارة الدرابزين الخشبي لشرفة معلقة في جو فصل الصيف، وحيث الروائح الجافة واللاذعة للنباتات والصراخ البعيد والحزين لقطار، والارتعاش الخفيف للأوراق على فخذ امرأة جالسة وسط

الورود، بشعر رأسها الرمادي، وصوتها. . . تمتزج تلك الرعشات وذلك الصوت بحفيف أغصان الصفصاف الطويلة. كنت أعيش من قبل على ضفة ذلك النهر التائه في السهب المشمس اللامتناهي. وكنت أرى تلك المرأة ذات الشعر الرمادي الغارقة في حلم صاف تمشي في الماء ببطء، وكانت تبدو شابة جداً. أخذني إحساس الشباب ذاك إلى مدخل عربة قطار يسير بسرعة فائقة عبر السهل المتلألئ بالمطر والضوء. وكانت المرأة المقابلة لي تبتسم في وجهي مزيحة الخصلات المبللة عن جبينها. وكانت أهدابها تتلوّن بألوان قوس قُزح تحت أشعة الغروب. . .

فيضان كانون الثاني سنة ١٩١٠ . سمعت الصمت المعتم حيث هدير الماء عند مرور موكب. وكانت فتاة صغيرة تنظر إلى مرآة شاحبة في شارع غارق وقد ألصقت جبهتها بالزجاج. عشت تلك الصبيحة الصامتة بشدة في شقة باريسية كبيرة تعود لبداية القرن. . . وكان ذلك الصباح يفتح على التوالي على صباح آخر مع صرير الأرضية في ممر ذهبي اللون لوجود أوراق الخريف. وكانت هناك ثلاث نساء بفساتين حريرية سوداء طويلة، وبقبعات واسعة مطعمة بحجابات وريَش، يبتعدن كما لو أنهن يأخذن معهن تلك اللحظة، وشمسها، وجو زمن فار. . . وفي صباح آخر أيضاً وشارلوت (وقد عرفتها في تلك اللحظة) يرافقها رجل في الشوارع الصاخبة لنويي طفولتها، وكانت تلعب دور المرشد بسعادة غامضة بعض الشيء. اعتقدت أني ميّزت شفافية الضوء الصباحي على كل البلاط، ورأيت خفقة كل ورقة، وخمنت تلك المدينة المجهولة في عيني الرجل، ومدى الشوارع المألوفة بالنسبة لشارلوت.

أدركت في تلك اللحظة أن أطلنتيد شارلوت مكنتني من أن ألمح، منذ طفولتي، التناغم الغريب للحظات الخالدة. ومن دون علمي كان يرسمان منذ ذلك الوقت ما يشبه حياة أخرى غير مرئية وغير معروفة إلى جوار حياتي. وهكذا فإن نجاراً يصنع على امتداد حياته قوائم الكراسي أو يصقل الخشب لا يلحظ أن نجارته تشكل على الأرض، ويثير وضوحها في زخارف جميلة تلمع بالصمغ، جاذبة بشفافيتها الناصعة، اليوم، إشعاع الشمس الذي ينفذ عبر نافذة ضيقة مزدحمة بالأدوات، غداً ـ لمعان الثلج المزرق.

كانت تلك هي الحياة التي بدت لي أساسية في تلك اللحظة، وكان عليّ أن أجعلها تتفتح في داخلي من دون أن أعرف كيف أفعل ذلك. وكان يتعيّن إعمال الذاكرة في صمت لتعلُّم تسلسل تلك اللحظات، وتعلُّم العيش بالمحافظة على خلودها في رتابة الأعمال اليومية، وفي خدر الكلمات العادية، واعياً بذلك الخلود. . .

عدت إلى المقبرة قبل إغلاقها بوقت قصير. كان المساء صافياً، فجلست على عتبة الباب، وأخذت أكتب على دفتري الصغير المخصص للعناوين، والذي فقد فائدته منذ وقت طويل:

حياتي في ما بعد الموت مثالية، ليس فقط لاكتشافي تلك الحياة الأساسية، ولكن أيضاً، من أجل إعادة خلقها بحفظها على نمط عليّ أن أبتكره، أو بالأحرى سيكون هذا النمط من الآن فصاعداً طريقتي في العيش. لن تكون لي حياة أخرى سوى تلك اللحظات التي ستخلق على ورقة. . .

ونظراً إلى نفاد أوراقي كان بياني على وشك أن ينقطع. وكانت كتابته مهمة جداً من أجل مشروعي. في هذا المبدأ الأساسي الفخيم كنت أوكد

أن الأعمال التي تخلق على حافة القبر أو ما بعد القبر تقاوم محنة الزمن. ذكرت صرع البعض، والربو، وغرفة الدفن لآخرين، والمنفى الأعمق من سراديب الدفن بالنسبة للبعض الآخر... وبسرعة اختفت نبرة التكلف لإعلان المبادئ ذلك، ليغيّر بـ«الكرّاسة المسودّة» التي اشتريتها في اليوم الموالي بآخر ما تبقى لدي من مال، والتي كتبت على صفحتها الأولى بكل بساطة:

شارلوت لومونيي: ملاحظات سِيَرية.

إضافة إلى ذلك، فقد تركت في الصباح عينه نهائياً الحجرة الجنائزية لبيلفال وكاستلو... استفقت في جوف الليل. عبرت فكرة مستحيلة وغير منطقية خاطري مثل رصاصة خارقة. وكان عليّ أن أعلنها بصوت مرتفع لأقيس حقيقتها العجيبة:

ـ ماذا لو أن شارلوت كانت ما تزال على قيد الحياة؟...

تخيلتها ذاهلاً تخرج إلى شرفتها الصغيرة المغطاة بالورود، وتنحني على كتاب. لم يصلني أي خبر من سارنزا منذ سنوات. كانت شارلوت إذن تستطيع أن تعيش كما في السابق، كما في زمن طفولتي. ستكون قد جاوزت الثمانين من العمر، غير أن ذلك العمر ما كان ليجعلها تنطفي في ذاكرتي. ستبقى دوماً هي نفسها بالنسبة لي.

وهكذا كان هذا الحلم يرتسم. ولعل هالته هي التي دفعتني لأستيقظ، ولإيجاد شارلوت، وجعلها تعود إلى فرنسا...

كانت لاواقعية ذلك المشروع المشكل من قبل متشرّد ممدّد على حجر جنائزي حتمية بشكل كاف حتى لا أحاول أن أوضحها لنفسي.

قررت في ذلك الوقت ألا أفكر في التفاصيل، وأن أعيش محتفظاً كل يوم بذلك الأمل غير الحكيم، وأن أعيش على ذلك الأمل.

في تلك الليلة، لم أستطع معاودة النوم. وخرجت بعد أن التففت بمعطف. وكانت رياح الشمال قد عوّضت رطوبة نهاية الخريف. بقيت واقفاً أنظر إلى الغيوم المنخفضة التي تتشبّع شيئاً فشيئاً بالشحوب الرمادي. تذكرت أنه في يوم من الأيام، على إثر مزحة ثقيلة، قالت لي شارلوت إن ذهابها إلى فرنسا راجلة، بعد كل أسفارها عبر شساعة روسيا، ليس مستحيلاً البتّة...

كان حلمي المجنون يشبه في البداية تقريباً ذلك التحدي الحزين. وخلال أشهر طويلة من المعاناة والتسكع تخيلت امرأة تلبس السواد تدخل مدينة حدودية في الساعات الأولى لصبيحة سوداء من فصل شتاء. وكان أسفل معطفها محملاً بالضباب البارد. ثم إنها تدفع باب مقهى يقع في زاوية ساحة صغيرة ناعسة لتجلس قرب النافذة جوار جهاز تدفئة. وتحضر لها صاحبة المقهى فنجان شاي. ثم تهمس المرأة بصوت خفيض جداً، وهي تنظر من خلف النافذة إلى الواجهة الهادئة لمجموعة من البيوت المبنية من ألواح خشبية: «إنها فرنسا... لقد عدت إلى فرنسا. بعد... بعد حياة بأكملها.»

[٢]

عبرت المدينة عند خروجي من المكتبة سالكاً الجسر المعلق فوق نهر الغارون المشمس. حدثت نفسي بأنه توجد في الأفلام القديمة تلك الحيلة القديمة والجيدة التي تعبر في بضع ثوان عدة سنوات من حياة الأبطال. كانت اللقطة تتوقف لتظهر على الخلفية السوداء، التي أعجبتني دوماً صراحتها غير المواربة، عبارة: «سنتان بعد ذلك»، أو «ومرت ثلاث سنوات». لكن من يجرؤ على استعمال تلك التقنية التي تجاوزتها الموضة في أيامنا هذه؟

ومع ذلك، فعند دخولي تلك المكتبة الفارغة التي تقع وسط مدينة إقليمية والتي أرهقتها الحرارة، وعندما وجدت على الرف آخر كتاب لي، اكتفيت فقط بالتعليق «ومرّت ثلاث سنوات»، حيث المقبرة، والحجر الجنائزي لبيلفال وكاستلو، وذلك الكتاب ذو الغلاف الملوّن تحت اللافتة الصغيرة المعنونة بـ«مستجدات الرواية الفرنسية»...

وصلت مساء إلى غابة لانديز. فكرت قائلاً: أنا أمشي الآن، منذ يومين أو أكثر ربما، متحسِّساً خلف هذه التموّجات المغطاة بالصنوبر انتظار المحيط الأبدي. يومان، ليلتان... وبفضل «الملاحظات» اكتسب الوقت بالنسبة لي كثافة مدهشة. ولما كنت أعيش في ماضي شارلوت بدا لي أني لم أشعر بالحاضر يوماً بمثل تلك القوة! كانت مناظر الماضي تلك هي التي منحت الوضوح المتفرد لتلك الرقعة من

السماء وسط مجموعة الأشجار في فرجة الغابة تلك التي سكب عليها الغروب إضاءة مثل دفق الكهرمان. . .

وفي الصباح، لما استأنفت المشي، (كان جذع شجرة صنوبر محزّز لم أره بالأمس ينزف صمغه ـ أو «جوهره» كما يقال في تلك المنطقة). تذكرت من دون سبب، تلك الرفوف في إحدى زوايا المكتبة حيث كتب «أدب أوروبا الشرقية». وكانت فيها كتبي الأولى، محشورة بشكل تسبب لي في دوار كبير بين كتب ليرمونتوف ونابوكوف. وكان الأمر يتعلق من جهتي بخداع واضح وبسيط، ذلك أن تلك الكتب كانت قد كتبت باللغة الفرنسية مباشرة، ورُفضت من قبل أصحاب دور النشر. وكنت «روسياً غريباً أخذ يكتب باللغة الفرنسية». وفي حركة يائسة، اختلقت مترجماً وأرسلت المخطوطة معرّفاً إياها كما لو أنها ترجمت عن الروسية، فقُبلت ونُشرت، ولقيت إعجاباً لجودة ترجمتها. حدثت نفسي بمرارة في البدء، لكن بحماس في ما بعد، بأن لعنتي الروسية الفرنسية كانت دوماً حاضرة، ولكن إذا ما كنت مجبراً في طفولتي على إخفاء البذرة الفرنسية فقد غدت روسيّتي في تلك اللحظة مذمة.

وفي المساء، عندما توقفت لأمضي الليلة هناك، أعدت قراءة أوراق «الملاحظات» الأخيرة. وفي القطعة المعلّمة بالأمس كتبت: «توفي طفل في الثانية من العمر في الإسبة الكبيرة المقابلة للبناية التي تقطن فيها شارلوت. رأيت والد الطفل يضع على درج المدخل علبة مستطيلة شدّ إليها قماشاً أحمر، كان نعشاً صغيراً! وكانت قياساته المخصصة للدُّمى قد أفزعتني. وكان عليّ أن أجد في حينها مكاناً تحت هذه السماء، وفوق هذه الأرض حيث يمكن تخيل ذلك الطفل

حياً. فموت كائن يصغرني جداً جعلني أشكك في الكون بأكمله. هرعت إلى شارلوت. ولما لحظت فزعي أخبرتني شيئاً مدهشاً في بساطته حين قالت: «هل تذكر عندما رأينا في فصل الخريف تحليق سرب طيور مهاجرة؟ ـ أجل، حلّقت فوق الباحة ثم اختفت. ـ تماماً، غير أنها استمرت في التحليق في مكان ما في البلاد البعيدة، لكن لا نستطيع رؤيتها لضعف نظرنا الشديد. الأمر مماثل بالنسبة لأولئك الذين يموتون...»

وأثناء نومي اعتقدت أني أميّز حركة الأغصان التي بدت أكثر قوة وشدة عن المعتاد، كما لو أن الريح لم تهدأ ولو للحظة عن صفيرها. اكتشفت في الصباح أن ذلك كان صوت المحيط. ولما كنت تعباً في الليلة الماضية فقد توقفت من دون أن أدري في تلك المنطقة الحدودية حيث تغوص الغابة في الكثبان التي تضربها الأمواج.

أمضيت الصباح بأكمله في ذلك الجرف الخالي متتبعاً صعود الماء غير المحسوس... وعندما بدأ البحر في جزره تابعت طريقي بقدمين عاريتين على الرمل المبلل والصلب. فقد كنت أنزل في تلك اللحظة جنوباً. كنت أمشي مفكراً في ذلك الكيس الذي كنا نطلق عليه أنا وأختي في سنوات طفولتنا «حقيبة بون نوف»، والتي كانت تحوي حجيرات صغيرة مغلّفة بقطع أوراق. وكان هناك «فيكامب»، و«فردان»، وأيضاً «بياريتز»، والتي كان اسمها يوحي لنا بالكوارتز، وليس المدينة التي كنا نجهل وجودها... لأحاذي المحيط لعشرة أيام أو لاثني عشر يوماً لأجد تلك المدينة، التي تاهت قطعة صغير تافهة منها في مكان ما في أبعد نقطة من السهوب الروسية.

[٣]

انتظرت حتى شهر أيلول/ سبتمبر لتصلني أولى أخبار سارنزا عن طريق شخص يدعى أليكس بوند. . .

والواقع أن «السيد بوند» ذاك كان رجل أعمال روسياً يمثل بشكل خاص جداً جيل «الروس الجدد» هؤلاء، الذين بدأوا يعلنون ظهورهم في كل العواصم الغربية. فقد كانوا يشرّحون أسماءهم بطريقة أميركية معرفين بأنفسهم من دون أن يدركوا ذلك في الغالب كأبطال روايات التجسس أو كالمخلوقات الفضائية لقصص الخيال العلمي في الخمسينيات. في لقائنا الأول نصحت أليكس بوند الملقب بأليكساي بوندارتشينكو بأن يفرنس اسمه، وأن الأجدر له أن يعرّف نفسه بأليكس تونليي على أن يشوّهه بتلك الطريقة. ومن دون حتى ظل ابتسامة شرح لي مزايا اسم قصير ولطيف في مجال الأعمال. . . شعرت بأن فهمي لروسيا التي أراها اليوم من خلال بوند وكوندرا وفيد صار يتضاءل شيئاً فشيئاً. . .

كان يقصد موسكو، ولما تأثر بالجانب العاطفي من مهمتي، فقد قبل أن يغيّر مساره. وكان يمثل لي الوصول إلى سارنزا، والمشي في شوارعها، ولقاء شارلوت، شيئاً أغرب من السفر إلى كوكب آخر. وصلها أليكس بوند «بين قطارين» بحسب تعبيره. ومن دون أن يخمّن

ما تمثله لي شارلوت تحدث في الهاتف تماماً مثلما يفعل المرء عادة من تبادل الأخبار بعد الإجازات حين قال:

ـ يا لها من حفرة سوداء سارنزا تلك! فبفضلك اكتشفت روسيا العميقة. هه، هه. كل شوارعها تلك التي تفتح على السهب، وذلك السهب الذي لا ينتهي أبداً... هي بخير. جدتك بخير. لاتقلق إذن. أجل، ما تزال نشيطة. فعندما وصلت لم تكن هناك، وأخبرتني جارتها بأنها تحضر اجتماعاً، فقد شكل سكان عمارتها لجنة دعم أو لست أعرف ماذا من أجل إنقاذ إسبة عتيقة أُريد هدمها من ساحتهم، وهي بناية ضخمة تعود لقرنين من الزمان. وإذن فجدتك... كلا، لم أرها فقد كنت بين قطارين. وفي المساء، كان عليّ أن أكون في موسكو مهما كلفني ذلك من ثمن، لكني تركت لها رسالة... يمكنك أن تذهب لرؤيتها. الآن يُسمح للجميع بالدخول. هه، هه، هه، ولم يعد ستار الحديد إلا مصفاة، مثلما يقال...

لم تكن لديّ إلا أوراق اللاجئ إضافة إلى رسم سفر يسمح لي بزيارة «كل البلدان إلا الاتحاد السوفياتي». وفي اليوم الموالي لحديثي مع «الروسي الجديد» قصدت مخفر الشرطة للاستعلام عن إجراءات التجنيس. حاولت إخراس تلك الفكرة التي عادت بمكر إلى بالي: «عليّ من الآن فصاعداً مواجهة سباق غير مرئي ضد الساعة، فقد بلغت شارلوت من العمر حيث كل سنة وكل شهر يمكن أن يكون الأخير».

من أجل ذلك لم أرغب في أن أكتب أو أهاتف. كنت أخشى مستطيراً من أن أدمّر مشروعي ببضع كلمات عادية. وكان عليّ أن أحصل على جواز سفر فرنسي بسرعة، والذهاب إلى سارنزا،

والتحدث لليال طويلة مع شارلوت، واصطحابها إلى باريس. كنت أرى كل هذه الأفعال تتم بسرعة خاطفة وببساطة كما في حلم. ثم تشوشت تلك الصورة فجأة، وألفيت نفسي في مزيج معقد ولزج يعرقل حركاتي. كان اسمه: الوقت.

طمأنني الملف الذي طُلب مني جمعه حيث لم تكن هناك وثيقة يستحيل توفيرها أو أية خدعة مكتبية. كانت زيارتي للطبيب وحدها هي التي تركت لدي انطباعاً مكدّراً. ومع ذلك فلم يستغرق الفحص إلا خمس دقائق، والخلاصة أنه كان سطحياً، حيث سيبدو وضعي الصحي موافقاً للجنسية الفرنسية. فبعد أن تسمّعني الطبيب أمرني بأن أنحني محافظاً على استقامة ساقي، ولامساً الأرض بأصابعي. نفذت الأمر. ولعل تعجلي المبالغ فيه هو ما تسبب في ذلك القلق. فقد بدا الطبيب محرجاً، وغمغم قائلاً: «شكراً، هذا يكفي». كان كما لو أنه خشي أن أعيد انحنائي في خضمّ اندفاعي. في العادة يكون شيء بسيط في سلوكاتنا كافياً ليغيّر معنى الأوضاع الأكثر عادية، حيث رجلان في عيادة طبية ضيّقة، وتحت نور أبيض ساطع، وينحني أحدهما فجأة لامساً الأرض، وتقريباً قدميّ الآخر، ويبقى مدة منتظراً، كما لو ينتظر رضى الآخر.

فكرت عند خروجي إلى الشارع في المعسكرات التي يُختبر فيها الأسرى باختبارات مماثلة، غير أن تلك الفكرة المبالغ فيها بشكل كبير لم تفسر ضيقي.

فقد كان الحماس الذي نفّذت به الحركة هو ما أصابني بذلك. ألفيته أيضاً وأنا أقلب صفحات ملفّي. رأيت تلك الرغبة في إقناع شخص ما حاضرةً في كل مكان. وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن

مذكوراً في قائمة الأسئلة، فقد أشرت إلى أصولي الفرنسية البعيدة. أجل، تحدثت عن شارلوت كما لو أني استبقت أي معارضة، ومحوت بشكل مسبّق كل شك. والآن، لم يعد بإمكاني التخلص من الشعور بأني خنتها نوعاً ما.

وكان عليّ أن أنتظر عدة أشهر. فقد أخبرت بأجل حدد موعده في شهر أيار/مايو. وفي الحال أُفعمت أيام فصل الربيع تلك التي كانت ما تزال غير واقعية بضوء خاص مخلصة نفسها من دائرة الأشهر، ومشكلة عالماً يعيش على نسقه الخاص، وفي جوه الخاص.

كان ذلك الوقت بالنسبة لي وقت الاستعدادت، ولكن على الخصوص وقت الأحاديث الطويلة والصامتة مع شارلوت. فعندما كنت أمشي في الشوارع كنت أشعر بأني أنظر إليها بعينيها، وأرى مثلما رأت ذلك الرصيف الفارغ حيث بدت أشجار الحور تحت وقع الريح وكأنها تتبادل رسالة هامسة ومستعجلة، وأحس مثلما أحست أصوات البلاطات في تلك الساحة الصغيرة القديمة، والتي يخفي فيها هدوء الضاحية في قلب باريس محاولة سعادة بسيطة ،وحياة من دون بريق.

أدركت أنه على امتداد السنوات الثلاث لحياتي بفرنسا لم يوقف مشروعي أبداً سيره البطيء والخفي. قادت الصورة المشوشة لامرأة متشحة بالسواد تعبر راجلة مدينة حدودية حلمي إلى رؤية أكثر واقعية. رأيتني أقصد المحطة لاستقبال جدتي بها، وأصحبها حتى الفندق حيث ستمكث خلال مقامها الباريسي. ثم ما إن انتهت فترة البؤس الأكثر سواداً حتى جعلت أؤثث مكاناً أكثر راحة من غرفة فندق، حيث ستشعر شارلوت بحال أفضل. . .

تمكنت، لربما بفضل تلك الأحلام من الصبر في مواجهة البؤس والإهانة القاسيين عادة، واللذين يرافقان الخطوات الأولى في عالم حيث يصير الكتاب، هذا العضو الأكثر قابلية للجروح في حياتنا، بضاعةً. بضاعة تباع بالمزاد وتعرض رخيصة على مناضد الدكاكين. كان حلمي ترياقاً، وكانت «الملاحظات» ملجأ.

تغيرت طوبوغرافية باريس في بضعة أشهر الانتظار تلك، مثل بعض المخططات حيث تلون الدوائر بشكل مختلف. وامتلأت المدينة في عيني بإيقاعات مختلفة ميّزت حضور شارلوت. فكانت هناك شوارع يسودها صمت مشرق، وتحفظ في الصباح الباكر صدى صوتها، ورصيف مقهى حيث أخمن إعياءها عند انتهاء نزهة، وواجهة حيث الزجاج تغلفه نظراتها بجمال خفيف لتذكّر مبهم.

تركت تلك الطوبوغرافية المحلوم بها بقعاً بيضاء على الفسيفساء الملونة للدوائر. وكانت مساراتنا تتجنب بشكل عفوي الجرأة الهندسية للسنوات الأخيرة. ستكون أيام شارلوت الباريسية قصيرة جداً. وبالتالي لن نملك الوقت لتأنس نظراتنا بكل تلك البنايات الحديثة، وأبراج الزجاج، والأقواس، وتلك التي تجمدت أشكالها في غد مستقبلي غريب، لم يعكر أبداً أبدية حاضر نزهاتنا.

ولم أشأ أيضاً أن ترى شارلوت الحي حيث أقطن... فعندما حضر أليكس بوند إلى موعدنا صاح متعجباً وساخراً: «إسمعوا أيها الناس الطيبون، نحن لسنا هنا في فرنسا، ولكننا في أفريقيا!» ثم شرع في عرض ذكرني مضمونه بما يقوله العديد من «الروس الجدد»، فقد ضم كل شيء حيث انحلال الغرب والنهاية الوشيكة لأوروبا البيضاء، واجتياح المتوحشين الجدد، (وحتى يكون عادلاً أضاف «بمن فيهم

نحن السلافيين»)، ومحمّد جديد سيحرق كل قصباتهم الجملية، وجنكيس خان جديد «سيضع نهاية لكل «سلمهم الديمقراطي». ولما ألهم بالموكب غير المتوقف للسود المارين أمام الشرفة حيث كنا نجلس، تحدث مازجاً عن التوقعات الرؤيوية لنهاية العالم والأمل في أوروبا تبعث من جديد بفضل دم الهمجيين الشاب، ووعود بحرب إثنية شاملة، والثقة في تهجين كوني... وكان الموضوع يبث الحماسة فيه. ولا شك أنه كان يشعر بنفسه تارة إلى جانب الشرق المحتضر، لأن بشرته كانت بيضاء وثقافته أوروبية، وتارة أخرى إلى جانب الهان الجدد. «كلا، يمكنكم قول ما تشاؤون لكن على الأقل هناك العديد من الغرباء!» كذاك ختم خطابه، ناسياً أنه دقيقة قبل ذلك، خص أولئك بمهمة إنقاذ القارة العجوز...

كانت جولاتنا في أحلامي تلتف على ذلك الحي وما تمثله حقيقته من خليط ثقافي، ليس لأن ساكنته كانت ستصدم بحساسية شارلوت. إذ أنها لما كانت مهاجرة بالأساس، فقد عاشت دوماً وسط تعدد شديد بشري، وثقافي، ولغوي. فمن سيبيريا إلى أوكرانيا، ومن شمال روسيا إلى السهب، عرفت كل تنوع الأعراق البشرية التي تختلط في الإمبراطورية. وخلال الحرب التقتهم متساويين جميعاً في المستشفى، وبصفة مطلقة أمام الموت، وفي المساواة العارية مثل الأجساد التي تجرى عليها العمليات.

كلا، ليست ساكنة ذلك الحي الباريسي العتيق الجديدة هي من كان سيفاجئ شارلوت. وإذا لم أشأ أن آخذها إليه، فلأنه لا يمكن سماع كلمة فرنسية واحدة عندْ عبور شوارعه. وقد كان البعض يرى في تلك الأشياء الدخلية وعداً بعالم جديد، في حين كان يرى فيه البعض

الأخر كارثة، بينما لم نكن نحن نبحث عن الأشياء الدخيلة سواء المعمارية أو البشرية. فقد كانت غربتنا في تلك الأيام كما فكرت، أكثر عمقاً.

وباريس التي كنت أستعد لتعيد شارلوت اكتشافها كانت باريس غير كاملة، وحتى أنها من نواح أخرى كانت وهمية. تذكرت مذكرات نابوكوف تلك التي يتحدث فيها عن جده الذي كان يعيش آخر أيام حياته، والذي كان بإمكانه أن ينظر وهو على سريره، خلف ستار النافذة الذي كان من قماش سميك، ألق شمس جنوبية وعناقيد ميموزا. كان يبتسم، فقد كان يظن نفسه في نيس، في ضوء فصل الربيع، ولم يشك في أنه يموت في روسيا في عز فصل الشتاء، وأن تلك الشمس لم تكن في حقيقة الأمر إلا مصباحاً وضعته ابنته خلف الستارة، خالقة من أجله ذلك الوهم اللطيف. . .

كنت أعلم بأن شارلوت سترى كل شيء، على الرغم من احترامها لمساراتي. وما كان للمصباح خلف الستارة أن يخدعها. ورأيت غمزتها السريعة لي أمام بعض التماثيل الحديثة التي يتعذر وصفها. وكنت أنصت لتعاليقها المليئة بالفكاهة الرقيقة جداً، والتي لم يزد لطفها إلا في إظهار عدوانية العمل المشاهَد. ورأت الحي أيضاً، حيي الذي حاولت تجنبه. . . جالت هناك وحيدة أثناء غيابي بحثاً عن منزل في شارع لارميطاج، الذي كان يسكنه في الماضي جندي شارك في الحرب الكبرى، ذلك الذي منحها شظية حديدية كنا نسمّيها صغيرَيْن «فردان».

كنت أعلم أيضاً أني سأقوم بكل ما يمكنني حتى لا أتحدث عن الكتب، وأن نتحدث مع ذلك كثيراً حتى وقت متأخر من الليل.

ذلك أن فرنسا التي ظهرت في يوم من الأيام في قلب سهوب سارنزا كانت تدين للكتب بولادتها تلك. أجل، كان بلداً كتبياً في جوهره. بلد شُكّل من الكلمات حيث الأنهر تجري مثل المقاطع الشعرية، وحيث النساء يذرفن الدمع مثل إسكندريات، ويتواجه رجاله مثل سيرفانتس. كذاك اكتشفنا فرنسا صغيرَيْن عن طريق حياتها الأدبية. وشكلت مادتها الفعلية في قالب سونيتة، وقُصّت بفعل كاتب. وأثبتت أسطورتنا العائلية أن مجلداً صغيراً ذا غلاف تعب وحافة من ذهب كامد جعلنا نتعقب شارلوت من خلال كل رحلاتها، ومثل آخر رابط مع فرنسا. أو لربما مثل إمكانية السحر الثابتة. «هناك جو أمنح من أجله...» كم من مرة في صحراء الثلوج السيبيرية تشكلت تلك الأبيات «كقصر من الآجُرّ بجوانب حجرية، وبزجاج صُبغ بلون أحمر...». وكانت فرنسا تُخلط في أعيننا بأدبها. والأدب الحقيقي كان سحر أن تحولنا كلمة أو بيت شعر أو جملة مقدسة إلى لحظة جمال أبدية.

كنت أرغب في أن أخبر شارلوت أن ذلك الأدب مات في فرنسا، وأنني في تعدد كتب اليوم، التي التهمتها منذ بداية عزلة الكاتب الخاصة بي، بحثت عبثاً عن واحد من ضمنها يمكنني من تخيلي في حضرته، وكأني وسط إسبة سيبيرية. أجل، كتاب مفتوح، بعينين تحملان شرارة دمع صغيرة...

وخلال تلك الأحاديث المتخيلة مع شارلوت كنت أعود لأبدو مراهقاً، ويستيقظ نزقي الشبابي الذي كان لمدة طويلة تحت رحمة بديهيات الحياة. كنت أبحث مجدداً عن رائحة مطلقة وفريدة، وحلمت بكتاب يعيد إنشاء العالم بجماله. وكنت أسمع صوت جدتي

ترد عليّ. كان صوتها متفهماً وباسماً، تماماً كحاله في الماضي، في سارنزا، في شرفتها:

ـ هل ما زلت تتذكر تلك الشقق الضيقة في روسيا التي تنهار تحت وقع الكتب؟ أجل، كتب تحت السرير، وفي المطبخ، ومكدسة في المدخل تحت السقف، وكتب يشق إيجادها تُعار لك لليلة واحدة، وينبغي إعادتها على الساعة السادسة صباحاً بالتمام، وأخرى تنسخ في الآلات ست نسخ كربونية دفعة واحدة، وتقدم للمرء النسخة السادسة التي يستحيل قراءتها تقريباً، والتي كنا نسميها «العمياء». . . أترى أن المقارنة مستحيلة؟ ففي روسيا كان الكاتب يُعدّ إلهاً. وكان يُنتظر منه في الآن نفسه الحساب النهائي ومملكة السماء. هل سبق أن سمعت هنالك عن ثمن كتاب؟ كلا، لأن الكتاب لم يكن يقدّر بثمن! وكان بإمكان المرء عدم شراء زوج أحذية لتتجمد قدماه في فصل الشتاء، ولكنه يشتري كتاباً. . .

صمت صوت شارلوت كما لتفهمني بأن طقس الكتاب في روسيا لم يعد إلا مجرد ذكرى.

وبتعجب المراهق الذي كنت أصيره أصيح: «لكن هذا الكتاب الفريد، هذا الكتاب المطلق. هل هو دَيْنُونة ومملكة في آن معاً؟»

انتزعني الهمس المحموم من محادثتي المخترعة. ولما كنت خجلاً مثل من يُكتشف وهو يكلّم نفسه فقد رأيت نفسي تماماً مثلما كنت. رجل يومئ وسط غرفة صغيرة مظلمة حيث نافذة تصدم جداراً من الآجرّ حيث لا تحتاج إلى ستائر ومصراعين. غرفة يمكن عبورها في ثلاث خطوات، وضيق مساحتها يجعل الأشياء تلتصق بعضها ببعض، ويغتصب بعضها مكان البعض الآخر، وحيث تتشابكُ محتوياتها،

وحيث آلة كاتبة عتيقة، وموقد كهربائي، وكراس، ورفوف، وحمام صغير، وطاولة، وظلال الملابس المعلقة على الجدران. وفي كل مكان أوراق، وقطع من مخطوطات، وكتب تمنح تلك الغرفة المزدحمة نوعاً من الجنون المنطقي جداً. وخلف الزجاج كانت بداية ليلة من ليالي الخريف الممطرة، حيث يسكب على أسطح المنازل البالية ذلك اللحن العربي الحزين، حيث تمتزج الشكوى والابتهاج. وذلك الرجل الذي يرتدي معطفاً قديماً فاتح اللون (وكان الجو بارداً جداً)، ويضع يديه في قفازين ضرورين من أجل الضرب على الآلة في تلك الغرفة المتجمدة. كان يتحدث متوجهاً إلى امرأة. كان يتحدث إليها بتلك الثقة التي لا تكون موجودة دائماً في حميمية صوته نفسه. كان يسألها عن الرائعة المتفردة والمطلقة، من دون أن يخشى أن يبدو ساذجاً أو مثيراً للعواطف بشكل غبي. وكانت سترد عليه. . .

فكرت قبل أيام بأن شارلوت عند قدومها إلى فرنسا ستحاول أن تفهم ما آل إليه الأدب هي التي شكلت لها بضعة كتب قديمة في سيبيريا أرخبيلاً فرنسياً صغيراً جداً. وتخيلتها عند دخولها في إحدى الأمسيات إلى الشقة التي تسكنها، تلحظ على حافة مائدة أو على دعامة نافذة كتاباً مفتوحاً. كان كتاباً حديثاً أخذت شارلوت تقرأه في أثناء غيابي. انحنيت على صفحتيه ووقعت نظراتي على هذه السطور:

وكان بالفعل الصباح الأكثر لطفاً في فصل الشتاء ذاك. فقد كان مشمساً مثل أيام شهر نيسان الأولى. وكان المُلاّح يذوب والعشب المبلل يلمع كما لو بفعل الندى. . . ولما أمضيت صبيحتي الوحيدة أعيد رؤية أشياء كثيرة بحزن متزايد تحت غيمات فصل الشتاء فقد نسيت تلك الحديقة القديمة، وعريشة الكرمة تلك حيث تجددت

حياتي تحت ظلها . . . أن أحيا على صورة ذلك الجمال، كان هذا ما أردت أن أتعلم فعله. صفاء ذلك البلد، وشفافيته وعمقه والمعجزة التي مثلها لقاء الماء ذاك، والحجر والضوء، تلك هي المعرفة الوحيدة والمغزى الأول، وذلك التناغم لم يكن وهمياً. كان حقيقياً، وأحسست أمامه بالحاجة إلى الكلام. . .

[٤]

لا شك أن الخُطّاب الشباب قبل ليلة العرس، أو أيضاً المنتقلين حديثاً، يشعرون بسعادة اختفاء اليومي، حيث أيام الاحتفال القليلة، أو فوضى الانتقال السعيد، تبقى خالدة. ويخيل إليهم أنها تصير مادة حياتهم نفسها، الخفيفة والمشرقة.

عشت نشوة مماثلة خلال أسابيع انتظاري الأخيرة. تركت غرفتي الصغيرة، واستأجرت شقة، كنت أعلم أني لن أتمكن من سداد أجرتها إلا خلال أربعة أو خمسة أشهر. لم يكن ذلك يهمني كثيراً. ومن الغرفة حيث ستعيش شارلوت كان يمكن رؤية الامتداد الأزرق الرمادي للأسطح التي تعكس سماء شهر نيسان/ أبريل. . . اقترضت ما وسعني ذلك، واشتريت الأثاث والستائر وسجادة وكل ركام معدات المنزل التي كنت قد استغنيت عنها في إقامتي الماضية. ومع ذلك فقد بقيت الشقة فارغة، فقد كنت أنام على مرتبة، وكانت غرفة جدتي وحدها تصلح للسكن.

وكلما زاد اقتراب شهر أيار/ مايو زاد ذلك اللاوعي السعيد، وعظم ذلك الجنون في التبذير. وأخذت أشتري من باعة الأشياء المستعملة الأشياء الصغيرة اللازمة، والكفيلة بحسب رأيي، بمنح روح لتلك الغرفة التي كان ظاهرها عادياً جداً. وهكذا فقد ألفيت لدى متجر الأشياء القديمة مصباح منضدة. أضاء البائع المصباح فتخيلت وجه

شارلوت على ضوئه المنعكس. ولم يكن بإمكاني المغادرة من دون ذلك المصباح، وملأت الرف بمجلدات قديمة بحواف جلدية كانت لكتب مشهورة تعود لبداية القرن. وكنت كل مساء أنثر جوائزي على المائدة المستديرة التي تحتل وسط الغرفة المزينة، حيث نصف دستة كؤوس ومنفاخ عتيق، ورزمة من البطاقات البريدية القديمة. . .

ومع أني حدثت نفسي بأن شارلوت لم ترد الرحيل عن سارنزا، وخاصة ترك قبر فيودور لمدة طويلة، وأنها كانت مرتاحة في الفندق تماماً مثل هذا المتحف المرتجل، لم أستطع التوقف عن الشراء، وعن إتمام ما كنت قد بدأته. وحتى لو كان المرء معلقاً بسحر الذاكرة، وفن إعادة إحياء اللحظة الضائعة فإنه يظل معلقاً قبل كل شيء بتماثيل الماضي المادية، تماماً مثل مشعوذ اكتسب بفضل عطية إلهية هبة صنع المعجزات، يفضل عليها خفة أصابعه وحقائبه ذات العمق المزدوج التي لها فضل عدم زعزعة حسن تقديره.

كنت أدرك أن السحر الحقيقي يتجلى في ذلك الانعكاس الأزرق للأسقف، وفي الهشاشة الفضائية للخطوط خلف النافذة التي ستفحتها شارلوت في اليوم الموالي لوصولها في الصباح الباكر، وفي إيقاع الكلمات الفرنسية الأولى التي ستتبادلها مع أحدهم عند طرف الشارع. . .

فاجأت نفسي أتحدث إليّ في أحد أواخر أمسيات انتظاري. . . كلا، كلا، لم تكن صلاة بمعنى الكلمة. ذلك أني لم أتعلم إحدى الصلوات أبداً ما دمت قد نشأت في النور الهادئ لإلحاد مناضل وديني تقريباً، وبحرب دينية من دون هوادة ضد الإله. كلا، كانت بالأحرى عريضة جريمة مشوشة، ظلت وجتها غير معلومة. ولما

أمسكت نفسي متلبساً بذلك الفعل الغريب، سارعت إلى تحويله إلى موضوع ساخر. فقد فكرت في أنه، نظراً لإلحاد حياتي السابقة، كان عليّ أن أصرخ متعجباً مثل ذلك الملاح في إحدى قصص فولتير: «مشيت أربع مرات على صليب يمثل المسيح مصلوباً في أربع رحلات إلى اليابان!». نعتت نفسي بالملحد والمشرك. ومع ذلك لم تنجح تلك السخرية في قطع موجة الهمس الداخلي التي وقعت عليها بداخلي وكان في نبرتها شيء طفولي. كان الأمر وكأني أقترح على محدثي المجهول صفقة، وهي أني لن أعيش إلا عشرين سنة أو حتى خمس عشرة سنة، حسناً، فلتكن عشر سنوات فقط، بشرط أن يكون ذلك اللقاء وتلك اللحظات التي وقعت عليها ممكنة...

وقفت ودفعت باب الغرفة المجاورة. كانت الغرفة ما تزال مستيقظة في غبش ليلة ربيعية، يحركها انتظار خفي. وحتى تلك المروحة التي على الرغم من أني اشتريتها قبل يومين فقط بدت وكأنها بقيت لسنوات طويلة على المائدة المنخفضة في انعكاس القضبان المظلمة الشاحب.

كان يوماً سعيداً. كان أحد تلك الأيام الكسولة والرمادية والتائهة وسط الاحتفالات لبداية شهر أيار/ مايو. وفي الصباح علقت على الجدار حامل معاطف كبيراً عند المدخل. وكان بالإمكان تعليق حوالي عشرة من الملابس به تقريباً. إلا أني لم أسأل نفسي إن كنا سنحتاج إليه في فصل الصيف.

بقيت نافذة شارلوت مشرعة. وكان ممكناً في تلك اللحظة أن تُرى، في أماكن متفرقة بين الواجهات الفضية للأسقف، الجزر الصغيرة الواضحة لبداية الاخضرار.

أضفت في الصباح جزءاً صغيراً إلى «ملاحظاتي». فقد تذكرت أن شارلوت حدثتني في أحد الأيام في سارنزا عن حياتها في باريس بعد الحرب العالمية الأولى. أخبرتني بأن فترة بعد الحرب تلك، التي كانت فترة ما بين الحربين من دون أن يتمكن أحد من تخمين ذلك، وكان في جوها شيء زائف بشكل عميق، حيث الابتهاج زائف، والنسيان السهل جداً. ذكرها ذلك بغرابة تلك المواد الإشهارية التي قرأتها في الصحف خلال الحرب حيث «ادفوا من دون فحم!» وكانت تمنح تفسيرات عن كيفية استعمال «كرات الورق»، أو أيضاً «يا ربات البيوت، قمن بغسيلكن من دون نار!»، وحتى «يا ربات البيوت، اقتصدن. سلاقة من دون نار!» أملت شارلوت أنها حين عودتها إلى باريس رفقة ألبرتين التي التحقت بها في سيبيريا ستجدان فرنسا قد تجاوزت الحرب...

فكرت وأنا أدوّن تلك السطور القليلة أنه يمكنني في القريب أن أسأل شارلوت العديد من الأسئلة، وأن أدقق الكثير من التفاصيل، وأن أعرف على سبيل المثال من يكون الرجل الذي يظهر في إحدى صور عائلتنا، ولماذا قُصّ نصف تلك الصورة بدقة. ومن تكون المرأة ذات السترة من القطن المندوف، والذي فاجأني حضورها مع شخصيات الزمن الجميل.

عند خروجي في فترة ما بعد الظهر، وجدت مظروفاً في علبتي البريدية. كان بلون القشدة ويحمل شعار قوى الأمن. وقفت وسط الرصيف، ثم شرعت أفتحه ببطء، ممزقاً المظروف بطريقة رعناء...

تدرك العينان عادة أسرع من الروح، خاصة عندما يتعلق الأمر بخبر لا تريد الأخيرة فهمه. وهكذا، خلال لحظة التردد القصيرة تلك،

يحاول النظر تكسير التسلسل المتين جداً للكلمات كما لو أن بإمكانه تغيير الرسالة قبل أن يريد العقل فهم معناها.

أخذت الحروف تهتز أمام ناظري، وشظايا الكلمات وقطع الجمل تغرقني. ثم ظهرت بشكل رزين الكلمة المهمة، المنسوخة بأحرف بارزة وقد جعلت مساحات بينها كما ليتم تأكيدها فارضة نفسها: غير مقبول ممتزجة بخفق الدم في صدغي، أعقبتها الصيغ المفسرة حيث: «وضعكم لا يستجيب...»، و«الواقع أنكم لا تلبّون...» بقيت لربع ساعة على الأقل من دون أن أتحرك، بعينين جاحظتين على الرسالة. في النهاية مشيت إلى الأمام ناسياً الوجهة التي يتعيّن عليّ قصدها.

لم أعد أفكر في شارلوت. آلمتني في الدقائق الأولى ذكرى زيارتي إلى الطبيب. أجل تلك الانحناءة السخيفة حتى الأرض، وبدا لي حماسي في تلك اللحظة بالذات غير مجد، ومذل جداً.

لم أدرك ما حدث معي فعلاً إلا عند عودتي فقط. فقد علقت سترتي على مشجب المعاطف خلف الباب الداخلي، ورأيت غرفة شارلوت. لم يكن الوقت إذن هو ما يهدد بتقويض مشروعي (آه، كم ينبغي الحذر من الحروف المطبوعة بشكل كبير!). ولكن قرار ذلك الموظف البسيط بجمل ضربت على الآلة الكاتبة وحملتها ورقة وحيدة. رجل لن أعرفه أبداً ولن يعرفني إلا عن طريق استمارة الأسئلة. في الواقع كان عليّ أن أوجه إليه صلواتي الانفعالية...

أرسلت في اليوم الموالي نقضاً، «نقض لطيف» كما أسماه مراسلي. لم يسبق لي أبداً أن كتبت رسالة شخصية كاذبة مماثلة، ومتكبرة بشكل غبي ومستعطفة في الآن نفسه.

لم ألحظ مرور الأيام. أيار/ مايو، وحزيران/ يونيو وتموز/ يوليو.

وكانت هناك تلك الشقة التي ملأتها بأشياء بالية وبأحاسيس الماضي، وذلك المتحف الزائف الذي كنت محافظه غير المجدي. وغياب تلك التي كنت أنتظرها. أما «الملاحظات» فلم أضف إليها شيئاً منذ يوم الرفض. كنت أدرك أن طبيعة تلك المخطوطة ترتبط بشكل خاص بذلك اللقاء، بلقائنا الذي أملت على الرغم من كل شيء أن يكون تحقيقه ممكناً.

وخلال كل تلك الشهور كنت أحلم دوماً الحلم عينه، الذي يوقظني في قلب الليل حيث امرأة بمعطف داكن اللون طويل، تدخل مدينة حدودية صبيحة أحد أيام فصل الشتاء الصامتة.

في لعبة قديمة حيث يتم اختيار صفة معبّرة عن ميزة قصوى مثل «كريه» على سبيل المثال، ثم يجري البحث عن الصفة المرادفة لها التي، وإن كانت قريبة منها، لا تعبّر عن ميزة بدرجة أقل قوة «شنيع» إذا أمكن. وتعبر الكلمة الموالية عن ذلك التراجع الدقيق عينه «بشع»، وهكذا دواليك نزولاً درجة صغيرة للميزة المعلنة «مضن»، و«لا يطاق»، و«بغيض»... وصولاً في النهاية بكل بساطة إلى «سيء»، مروراً بـ«رديء»، و«متوسط»، و«تافه»، وترتفع مع «متواضع»، و«مرضي»، و«مقبول»، و«ملائم»، و«مستحب»، و«جيد» وصولاً بعد حوالي عشر كلمات إلى «رائع»، و«ممتاز»، و«عظيم».

كانت الأخبار التي وصلتني من سارنزا في بداية شهر آب/ أغسطس قد عرفت تعديلاً مماثلاً، ذلك أنها لما أرسلت إلى أليكس بوند (حيث ترك لشارلوت رقم هاتفه بموسكو)، فقد سافرت طويلاً تلك الأخبار والطرد الصغير المرافق لها، مروراً من شخص إلى شخص

آخر. ومع كل تنقل كانت درجتها المأساوية تقل ويمّحي التأثر. وهكذا فقد أعلن لي مجهول عبر الهاتف بنبرة شبه مرحة:

ـ اسمع. لقد تسلمت علبة صغيرة لك. هي من طرف... لست أعلم من تكون. في النهاية هي من قريبتك التي توفيت... في روسيا. لا شك في أنك تعلم الأمر مسبقاً. أجل، لقد أرسلت لك وصيتها. هه. هه...

أراد أن يقول مازحاً: «إرثك». وهكذا ونتيجة لخطأ، وللتدني اللغوي الذي لحظته عادة لدى «الروس الجدد»، الذين أضحت اللغة الإنجليزية لغة حديثهم، تحدث عن «وصية».

انتظرته طويلاً في صالة أحد أجود الفنادق الباريسية. وكان الفراغ البارد للمرآتين جانبي الكنبات يوافق تماماً العدم الذي كان يملأ نظري وبالي.

خرج الشخص المجهول من المصعد سامحاً لشقراء أن تمر أمامه. كانت طويلة القامة، ومتألقة بابتسامة كأنها موجهة إلى الجميع وإلى لا أحد في الآن عينه. وكان رجل آخر عريض الكتفين يتبعهما.

عرّف الشخص المجهول بنفسه وهو يصافحني قائلاً:

ـ فال غريغ.

ثم قدم رفيقيه موضحاً:

ـ مترجمتي القَلوب، وحارسي الشخصي الوفي.

كنت أعلم بأني لن أتمكن من رفض الدعوة إلى البار. فالإنصات إلى فال غريغ كان طريقة لشكره على الخدمة التي قدمها. وكان يحتاج إليّ ليتذوق بشكل تام الراحة في ذلك الفندق، وصفته الجديدة كـ«رجل أعمال عالمي»، وبجمال «مترجمته القلوب». تحدث عن

نجاحاته، وعن الكارثة الروسية، من دون أن يأخذ بعين الاعتبار ربما أن هناك علاقة سببية سخيفة وغير إرادية كانت تجمع بين ذينك الموضوعين. بدت المترجمة التي لا شك في أنها سمعت تلك الأحاديث في العديد من المرات نائمة بعينين مفتوحين. أما الحارس الشخصي فكان يتفحص وجوه الداخلين والخارجين وكأنما ليبرّر وجوده. فكرت فجأة: «سيكون من الأيسر عليّ تفسير ما أحس به لقادمين من كوكب المرّيخ، على أن أقوم بذلك لهؤلاء الثلاثة...»

فتحت الطرد في قطار الأنفاق فسقطت بطاقة أليكس بوند أرضاً. كان فيها بعض كلمات التعازي والاعتذار (تايوان، كندا...) لعدم تمكنه من منحي الطرد بصفة شخصية، ولكن على الخصوص تاريخ وفاة شارلوت، ذلك أن الأمر حدث في التاسع من شهر أيلول/ سبتمبر من السنة الماضية!

لم أعد أتتبع المحطات المتعاقبة. وهكذا لم أعد إلى وعيي إلا في المحطة الأخيرة. شهر أيلول من السنة الماضية... ذهب أليكس بوند إلى سارنزا في شهر آب/ أغسطس قبل سنة. وبعد أسابيع، قدمت طلب الحصول على الجنسية، في الوقت عينه الذي كانت فيه شارلوت تموت. وكل مساعيّ، وكل مشارعي، وكل شهور الانتظار تلك، كانت بعد انقضاء حياتها، تمت خارج حياتها، ومن دون أي رابط ممكن مع تلك الحياة المنقضية... احتفظت الجارة بالطرد، ثم في فصل الربيع فقط تم إرساله إلى بوند. وكانت هناك بضع كلمات مكتوبة بخط يد شارلوت على ورقة كرافت «أرجو أن تسلموا هذا الظرف إلى أليكساي بوندارتشينكو، الذي سيتفضل بإيصاله إلى حفيدي».

أخذ قطار الأنفاق مجدداً في المحطة النهائية، وحدثت نفسي بارتياح مؤلم أن قرار الموظف في النهاية لم يكن هو من قوّض مشروعي، بل كان الوقت. الوقت المشروط باحتضار يصدر صريراً بألاعيبه، وتفككاته، ذكرنا بسلطته المطلقة.

لم يكن في الظرف إلا حوالي عشرين ورقة مخطوطة شُدت بممسكة. انتظرت حتى أقرأ رسالة الوداع وإن لم أفهم كل ذلك الطول، مع علمي بأن شارلوت قليلة الاهتمام بالصيغ الاحتفالية، والدفق اللغوي. ولما لم أقرر الشروع في قراءة متواصلة فقد أخذت أقلّب الصفحات الأولى من دون أن أعثر في أي مكان على صيغة مثل «عندما ستقرأ هذه السطور، لن أكون هنا»، كنت أخشى رؤيتها بالتحديد.

زد على ذلك أن الرسالة بدت في نهاية الأمر غير موجهة إلى شخص محدد. وهكذا أخذت أمرّ سريعاً من سطر إلى سطر، ومن فقرة إلى فقرة، فاعتقدت أنّ الأمر يتعلق بقصة لا رابط بينها وبين حياتنا في سارنزا، أو بفرنسا أطلنتيد الخاصة بنا، أو بتلك النهاية التي كان بإمكان شارلوت أن تجعلني أخمّن قربها...

خرجت من المترو، وتابعت قراءتي بشرود من دون الرغبة في الصعود. جلست على مقعد في إحدى الحدائق. أدركت حينها أن قصة شارلوت لا تعنينا. كانت تنقل بأسلوبها اللطيف والمركز حياة امرأة. لا شك في أني تجاوزت من دون انتباه المكان الذي تشرح فيه جدتي كيف تعرّفت عليها. وما كان ذلك ليهمني كثيراً، ذلك أن تلك الحياة المحكية لم تكن إلا مصيراً نسائياً إضافياً، وأحد تلك المصائر المأسوية كان على عهد ستالين، الذي كان يصيبنا بالاضطراب عندما كنا صغاراً، وقد أنهك

ألمها منذ ذلك الحين. ذاقت تلك المرأة وهي ابنة *كولاك* المنفى وهي بعد صغيرة في مستنقعات سيبيريا الشرقية. وبعد الحرب، ولما اتهمت «بالدعاية ضد التعاونيات الكولخوزية» ألفت نفسها في أحد المعسكرات... تتبعت تلك الصفحات مثل صفحات كتاب أعرفه معرفة جيدة. كان الأسرى في ذلك المعسكر وسط الثلوج كانوا يغوصون فيه حتى نصف قامتهم، وهم يقطعون أشجار الأرز، وحيث الوحشية اليومية، والابتذال، والحراس، والمرض، والموت، وحيث الجنس تحت الإكراه، وتحت التهديد بسلاح أو بعمل لا إنساني، وحيث يُشترى الجنس بقنينة كحول... أخذ الطفل الذي وضعته المرأة ينفذ حكم والدته. كذاك كان القانون في «معسكر النساء» ذاك. وكان هناك كوخ معد لمثل أولئك المواليد. توفيت المرأة بعد أن دهسها جرار شهوراً قبل عفو ذوبان الثلوج، وكان الطفل يدنو من سنته الثانية ونصف السنة...

طردني المطر من مقعدي. أخفيت رسالة شارلوت تحت سترتي، ثم عدوت إلى *منزلنا*. بدت لي القصة التي لم أكملها نمطية جداً، فمع بداية ظهور علامات التحرر الأولى شرع كل الروس في إخراج ذكرى الماضي الذي كان خاضعاً للرقابة من مخابئه العميقة. ولم يفهموا أبداً أن التاريخ لم يكن محتاجاً إلى كل ذلك العدد الذي لا يُحصى من معسكرات الاعتقال الصغيرة. كان يكفيها معسكر واحد تذكاري ومعترف به كعمل كلاسيكي. وعندما أرسلت لي شارلوت شهاداتها كانت قد وقعت في فخ الكلمة الحرة، تماماً مثل الآخرين. آلمني عدم جدوى تلك الرسالة المؤثر. ومجدداً لمت لا مبالاة الوقت الساخرة. تلك المرأة الأسيرة رفقة طفلها كانت تترنح على

عتبات النسيان النهائي، وحُفظت فقط في تلك الورقات المخطوطة. وحتى شارلوت نفسها؟

دفعت الباب. وهز تيار هواء بصرير جاف مصراعي إحدى النوافذ المشرعة. وكنت أهمّ بإغلاقها في غرفة جدتي...

فكرت في حياتها. حياة تربط بين عهود مختلفة جداً: بداية القرن، ذلك الزمن العادي تقريباً، والأسطوري تقريباً، تماماً مثل حكم نابوليون، ونهاية فرنسا، ونهاية الألفية، وكل تلك الثورات، والحروب، والمثالية الفاشلة، والرعب الروسي. فقد بثت جوهرها في آلام وأفراحِ أيامها. وسرعان ما كانت كثافتها المختلجة ستغرق في النسيان، تماماً مثل معسكر الاعتقال الصغير للأسيرة وطفلها.

بقيت لفترة أمام نافذة شارلوت. تخيلت نظرها يقع خلال عدة أسابيع على ذلك المنظر...

قررت في المساء قراءة صفحات شارلوت حتى نهايتها من باب العلم بالشيء فقط. فألفيت المرأة الأسيرة، وفظاعات المعسكر، وذلك الطفل الذي حمل إلى هذا العالم القاسي والملطخ بعض لحظات الصفاء... كتبت شارلوت أنه كان بإمكانها الحصول على إذن للذهاب إلى المستشفى حيث توفيت المرأة...

وفجأة تحولت الورقة التي كنت أمسك بها بيدي إلى ورقة فضية رقيقة. أجل، فتنتني بانعكاس معدني، وبدت وكأنها تبعث بصوت بارد قارس. ولمع سطر كسلك لمبة مشدود تماماً مثل بؤبؤ العين. كانت الرسالة مكتوبة باللغة الروسية، وخلال ذلك السطر مرت شارلوت إلى اللغة الفرنسية، كما لو أنها لم تعد تثق في لغتها الروسية، أو كما لو أن اللغة الفرنسية، فرنسية زمن آخر، كانت ستمّحني تحرراً مما ستخبرني به:

«تلك المرأة التي كانت تدعى ماريا ستيبانوفنا دولينا، كانت أمك، وهي من شاءت ألا نخبرك شيئاً لأطول مدة ممكنة...»

كان هناك ظرف مشبك بتلك الورقة الأخيرة. فتحته فكانت فيه صورة تعرفت عليها من دون عناء. كانت لامرأة بشابكا كبيرة، مقلمة من جهتي الأذنين، وبسترة مبطنة بالقطن المندوف. وعلى مثلث من القماش الأبيض مخاط، وجوار صف من الأزرار، كان هناك رقم. وبين ذراعيها كان هناك وليد لُفّ بملاءة من صوف...

في الليل، ألفيت في ذاكرتي صورة اعتقدت دوماً أنها نوع من الذكرى العائلية المشوشة الآتية من أسلافي الفرنسيين، والتي كنت فخوراً بها وأنا بعد طفل. كنت أرى فيها دليلاً على فرنسيتي الموروثة. كان ذلك في أحد أيام فصل الخريف المشمس، وعند طرف غابة حيث حضور أنثوي غير مرئي، وهواء صاف جداً، وخيوط العذراء في تلك المساحة المشرقة... أدركت في تلك اللحظة أن الغابة كانت في الحقيقة تايغا من دون نهاية، وأن الصيف الجميل لسان مارتان سيختفي في شتاء سيبيري سيدوم تسعة أشهر. ولم تكن خيوط العذراء بلونها الفضي، وبوزنها الخفيف في وهمي الفرنسي، إلا صفوفاً من أسلاك شائكة جديدة لم يسعفها الوقت لِتَصْدأ. و كنت أتجول مع أمي، في حدود «معسكر النساء»... كانت تلك أولى ذكريات طفولتي.

بعد يومين، تركت الشقة. فقد أتى المالك وقبل بتسوية ودية، ذلك أني تركت له كل الأثاث والأشياء القديمة التي جمعتها خلال أشهر...

لم أنم إلا لوقت قصير. فعند الساعة الرابعة صباحاً كنت قد

استيقظت. أعددت حقيبتي الظهرية ظاناً بأني سأذهب في اليوم نفسه في رحلتي المعهودة سيراً على الأقدام. وقبل أن أرحل ألقيت النظرة الأخيرة على غرفة شارلوت تحت ضوء الصباح الرمادي، ولم يذكرني صمتها بمتحف. كلا، لم تعد تبدو لي غير مألوفة. ترددت للحظة قبل أن أتناول كتاباً مجلداً عتيقاً موضوعاً على دعامة النافذة، وخرجت.

كانت الشوارع خالية وقد غشاها النوم. وبدأت أمداؤها تتشكل مع اقترابي منها.

فكرت في «الملاحظات» التي حملتها في حقيبتي. حدثت نفسي قائلاً إني سأضيف في ذلك المساء أو في اليوم الموالي تلك الفقرة التي خطرت في بالي في تلك الليلة. حدث ذلك في سارنزا، وخلال الصيف الأخير عند جدتي... في ذلك اليوم، وعوض أن تسلك الممر الذي يعبر السهب أخذت شارلوت طريقاً تحت أشجار غابة عجت بآليات الحرب، والتي كان السكان يطلقون عليها اسم «ستالينكا». تبعتها بخطوات مترددة. وبحسب الإشاعات، كان يمكن للمرء أن يقع على قنبلة وسط كثافة الستالينكا. توقفت شارلوت وسط فرجة واسعة، وهمست: «انظر!». رأيت ثلاث أو أربع نبتات متشابهة. كانت تصل حتى ركبنا. وكانت بأوراق كبيرة مرصعة، وعطفات معلقة على سيقان رقيقة غائصة في الأرض. هل كانت قياقب صغيرة، أم شجيرات كشمشة سوداء؟ لم أدرك سعادة شارلوت الغريبة. أخيراً قالت لي:

ـ إنها كرمة. كرمة حقيقية.

ـ آه. طيب...

لم يزد ذلك الاكتشاف من فضولي، ذلك أني لم أستطع أن أربط في رأسي بين تلك الغرسة العادية والطقس المخصص للنبيذ في وطن جدتي. بقينا لدقائق في قلب الستالينكا أمام غرس شارلوت السري.

ولما تذكرت تلك الكرمة أحسست بألم يكاد لا يُحتمل، وشعرت في الوقت عينه بفرح عميق. فرح جعلني أحس بالخجل في البداية. فقد توفيت شارلوت، وبحسب أليكس بوند، بُنِيَ ملعب مكان الستالينكا. وإذن لم يكن هناك من دليل أكثر مادية من الاختفاء الشامل والنهائي. غير أن الفرح تفوق في النهاية، فقد كان هناك مصدر في تلك اللحظة المعاشة وسط تلك الفرجة، وفي هبوب رياح السهوب، وفي الصمت الصافي لتلك المرأة التي، وفي وقفتها أمام أربع شجيرات، أخمن أنها كانت تحمل عناقيد صغيرة تحت أوراقها.

كنت أنظر بين الفينة والأخرى، وأنا أمشي، إلى صورة المرأة ذات السترة من القطن المندوف. أدركت في تلك اللحظة ما كان يمنح ملامح وجهها من شبه بعيد بألبوم صور عائلتي بالتبني. كانت تلك الابتسامة الخفيفة بفضل الصيغة السحرية لشارلوت «تفاحة صغيرة!» أجل، لا شك في أن المرأة التي تم التقاط صورة لها قرب بوابة المعسكر قد نطقت من تلقاء ذاتها بذينك المقطعين اللفظيين الغريبين... توقفت للحظة ونظرت جيداً إلى عينيها». علي أن أعتاد على فكرة أن هذه المرأة، الأصغر سناً مني، هي أمي». كذلك خاطبت نفسي.

أعدت الصورة إلى مكانها، واستأنفت المسير. وعندما فكرت في

شارلوت، كان وجودها في تلك الشوارع النائمة كحتمية وجود خفي وعفوي للحياة نفسها.

افتقدت فقط الكلمات التي كان بإمكانها أن تقولها.

هذا الكتاب

كنت أخمّن، وأنا بعد صغير السنّ، أن تلك الابتسامة الفريدة جداً تمثل نصراً صغيراً وغريباً بالنسبة لكل امرأة. نعم، إنها انتقام مؤقّت من كل الخيبات، ومن فظاظة الرجال، ومن ندرة الأشياء الجميلة والحقيقية في هذا العالم. لو كنت أعلم كيف أقولها آنذاك لسمَّيت هذه الطريقة في الابتسام «أنوثة»... غير أن لغتي كانت واقعية جداً. فقد كنت أكتفي بأن أتملّى في وجوه النساء في ألبومات صورنا لأجد انعكاس الجمال هذا عند بعضهنّ.

